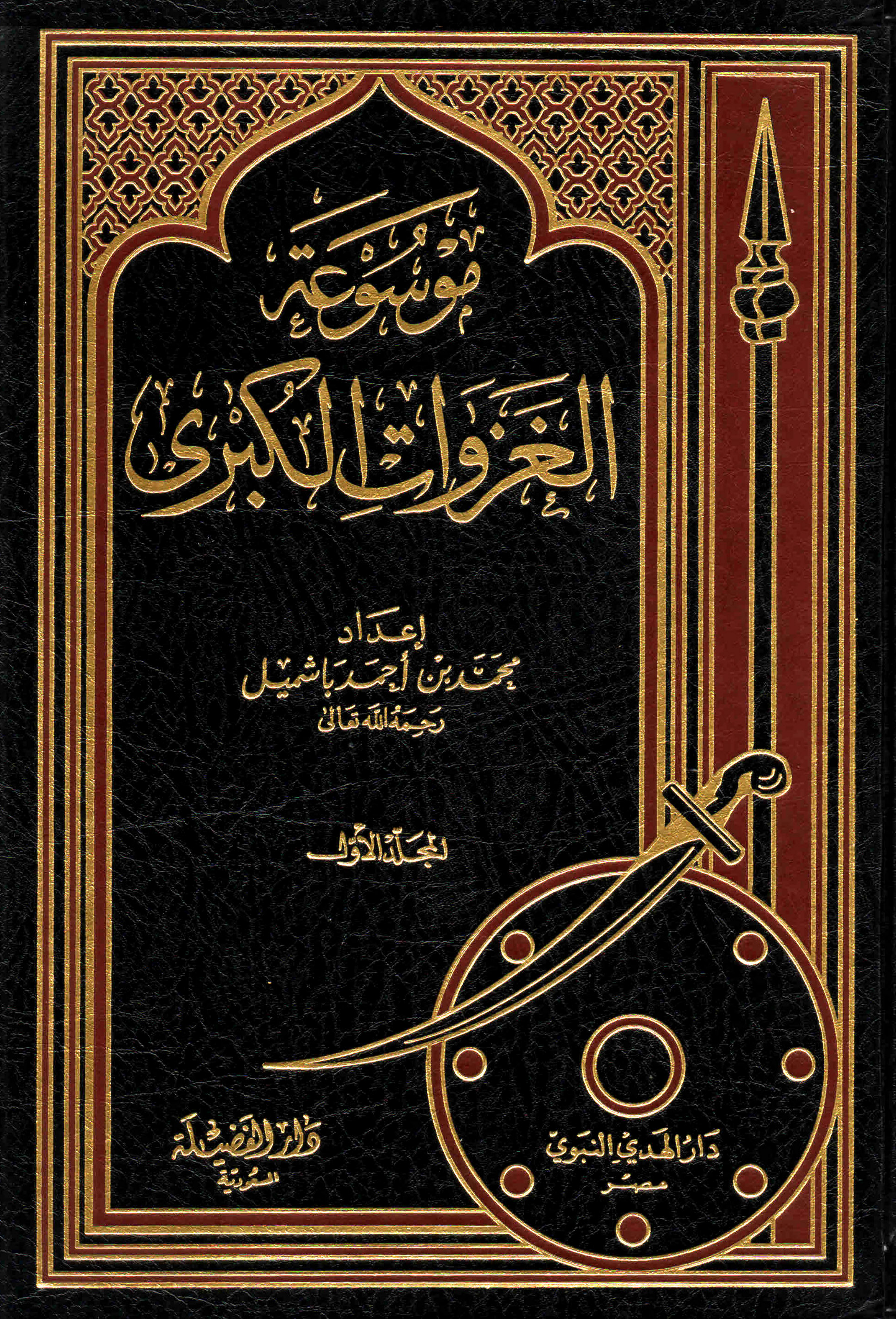

موسوعة
الغزوات الكبرى
إعداد
محمد بن أحمد باشميل
رحمه الله تعالى
المجلد الأول
دار الفضيلة
السعودية
دار الهدي النبوي
مصر

مِنْ مَعَارِكِ الإِسْلَامِ الفَاصِلَة

(٤)

غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

دروس عن غزوة بني قريظة

(١)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدي ومولاي رسول الله ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ورضي الله عن قادة الفتح الإسلامي وجنوده، وقادة الفكر الإسلامي وجنوده، وعن الذين عملوا من قبل، والذين يعملون اليوم، والذين سيعملون غداً، بشرف وصدق وإخلاص في خدمة الإسلام والمسلمين، وإعلاء شأنهم بين الأمم، لتكون كلمة الله هي العليا، ويغمُر نور الإسلام وهديه القلوب والعقول معاً: مبدداً الظلم والظلمات، ناشراً العدل والمساواة، رافعاً رايات القرآن عقيدةً ولغةً شرقاً وغرباً.

وبعد،

فقد قرأت مسوَّدات الكتاب الرابع من معارك الإسلام الفاصلة [1] عن: غزوة بني قريظة، فوجدت فيه فائدة وفيه عبرة.

وربما لا أتفق مع بعض ما جاء في الكتاب من آراء المؤلف، وربما أخالفه في أسلوب العرض والتحليل واستخلاص النتائج؛ ولكنني موقن بأن كل ما يكتبه المؤلف صادر عن إخلاصه لعقيدته ولحضارة أمته، في وقت تنكَّر فيه كثير من المسلمين لعقيدتهم السمحاء، ولحضارتهم العريقة: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [2].

فما الذي يثيره مثل هذا الكتاب في العرب خاصة وفي المسلمين عامة من دروس لحاضرهم ومستقبلهم.

---

(١) يطلق على تعبير المعارك الفاصلة في بعض الجيوش العربية تعبير: المعارك الحاسمة. قال الله تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ والحسم: الشؤم. والحسم: الدأب على العمل، وحسم الشيء: قطعه وأزاله. والمعركة الحاسمة فيها معنى الشؤم على العدو وقطعه وإزالته من الوجود، لذلك فإن تعبير: المعارك الحاسمة أقرب لأداء المعنى الواقعي الصحيح.

(٢) الآية الكريمة من سورة البقرة (١٠٢).

لقد انتصر المسلمون الأولون في الصدر الأول من أيام الإسلام على أعدائهم من يهود[1] ومنافقين ومرتدين وفرس وروم - بالإسلام، عقيدة وعملاً، وتضحية وفداءً، وسياسة واقتصاداً، وأخلاقاً ومُثُلاً عليا، واعتزازاً ونخوة، وحضارة وفكراً، ولن ينتصر المسلمون على أعدائهم بغير الإسلام بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والفداء.

إن الله أعز العرب والمسلمين بهذا الدين القوي الأمين، ولن يعزوا بغيره مهما بذلوا من جهد وحاولوا من محاولات.

كان المسلمون الأولون موضع تقدير العالم واحترامه، حين كانوا متمسكين بدينهم النابع من رسالة السماء، معتزين بحضارته، مدافعين عنها بالأفكار النيرة والآراء السديدة؛ ولن يكونوا موضع تقدير العالم واحترامه بغير التمسك بدينهم، معتزين بحضارته، مدافعين عنها، مظهرين مفاخرها في ميادين العلوم والآداب والفنون.

لن يكونوا موضع تقدير العالم واحترامه، حتى يكونوا ترجمة عملية لمبادئ دينهم في تصرفاتهم وسلوكهم وأعمالهم، وتجسيداً لها عملاً صالحاً يمشي على الأرض.

أما أن نستورد المبادئ من الشرق والغرب، مبهورين متخاذلين، ونترك مبادئنا وراءنا ظهرياً.

وأما أن نُعْرِضَ عن حضارتنا ونتباهى بالحضارة الغربية أو الشرقية، وهي حضارة مسيحية في الغرب وحضارة ملحدة في الشرق: تحارب الإسلام علناً، ونحاول القضاء على المسلمين لأنهم القوة النائمة التي يخشى الغرب والشرق معاً يقظتها من سباتها العميق..

أما أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير..

أما أن نفعل كلّ ذلك مقلدِّين مستسلمين، مقبلين مدبرين، متواكلين متهافتين، فلن نكون أكثر من ذنب تافه للغرب أو الشرق، والذنب لا يكون أكبر من حقيقته: يركض وراء صاحبه دون أن يعرف المنقلب والمصير.

---

(١) العرب الأولون كانوا يطلقون كلمة: يهود، بدون (ال) التعريف، احتقاراً لهم وتقليلاً من شأنهم. انظر كلمات السلف الصالح عن يهود في الطبري وابن هشام مثلاً وما أحرانا أن نعيد هذا التعبير إلى الأذهان كتابة وقراءة، لنستعيد معناه الذي يدل على الاستخفاف، خاصة والعرب في حرب حياة أو موت على إسرائيل.

والذيـن يظـنون أن تهافـتهم الذلـيل وراء الغـرب أو الشرق سيجعل منهم جزءًا لا يـتجزأ منهما قوةً وعقيدة وحضارة ومكانة وتعاطفاً وانسجاماً، مغرورون كل الغرور، أو أغبياء كل الغباء، أو مخطئون كل الخطأ، أو عملاءَ كل العمالة!.

هل أصبح الأفريقيون المتكلمون باللغة الإنكليزية جزءًا لا يتجزأ من الإنكليز؟.

هل أصبح الأفريقيون المتكلمون باللغة الفرنسية جزءًا لا يتجزأُ من الفرنسيين؟.

هـل أصـبحت الـدول الشـيوعيّة القابعـة وراء السـتار الحديـدي جزءًا لا يتجزأ من الروس؟.

إن الإنكليز ينظرون إلى الشعوب الإفريقية المتكلمة بالإنكليزية نظرة السيد إلى المسود.

والفرنسيين ينظرون إلى الشعوب الإفريقية المتكلمة بالفرنسية نظرة المتبوع إلى التابع.

والـدول الشـيوعية الـتي وجـدت نفسها ونهضت من كبوتها أظهرت تنكرها للاتحاد السـوفيتي بعـد جهـد جهـيد، لأنهـا وجـدت أنها فقدت شخصيتها المميزة لها وأصبحت مستعبدة، كما فعلت الصين[١] ويوغسلافيا ورومانيا وألبانيا، وأوّل الغيث قطر ثم ينهمر!

والـدول الإفريقـية والآسيوية أيضاً التي وجدت نفسها ونهضت من كبوتها، أظهرت تـنكرُها لفرنسـا وبريطانـيا وللولايـات المـتحدة الأمريكـية، لأنهـا وجـدت أنهـا فقـدت شخصيتها المميزة لها وأصبحت مستعبدة لتلك الدول الكبرى.

ولكـن لا تـزال بعض الدول الآسيوية والإفريقية تعاني ما تعاني من آثار الاستعمار الفكري فيها.

ومـن المؤسـف حقـاً، أن تنشـر إحـدى المجلات العربية الصادرة خلال شهر حزيران (يونـيه) سـنة ١٩٦٦: أن النشـيد الوطـني السـوفيتي أُنشـد في معهـد عربي في بلد عربي، فقوبـل إنشـاده بالهتاف والتصفيق، ولكن حين أنشد النشيد الوطني لذلك البلد العربي في ذلك المعهد العربي، قوبل بالسخرية والاستهزاء!

---

(١) في مؤتمر السلام العالمي الذي انعقد خلال شهر حزيران (يونيه) سنة ١٩٦٦. اتهم مندوبو الصين في المؤتمر روسيا بالرجعية والانحراف والاستعمار.

وقد نقلت هذا الخبر محطة إذاعة عربية وأذاعته في الساعة السابعة والربع مساءً من يوم ٢٥ حزيران عام ١٩٦٦م...! وعلى نفسها جنت براقش...!

ولكن لمصلحة من كل هذا التهافت والاستخذاء؟!

(٢)

لقد تنكر العرب والمسلمون لعقيدتهم وحضارتهم، والأمة التي لا تحترم نفسها لا يمكن أن تحترمها الأمم، والمرءُ حيث يضع نفسه، والأمة حيث تضع نفسها.

وبعد معركة (جنين) التي خاضها فوج[١] عراقي واحد مقابل ما يزيد على العشرة آلاف يهودي، أخلى اليهود مدينة الطفولة وحيفا، وانفجرت مظاهراتهم الصاخبة مطالبة بإيقاف الحرب بأي ثمن ودون قيد أو شرط.

ومعركة (جنين) هي معركة العراء الوحيدة التي اضطر يهود على خوضها، ولم يشهدوا بعدها معركة عراءٍ أبداً، وصدق الله العظيم: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[٢].

وكان ضباط اليهود حين يحضرون المفاوضات مع ضباط العرب بإشراف ممثلي الهدنة من هيئة الأمم المتحدة، يرفضون الحضور ما لم يتأكدوا من أن الضباط العرب عُزّل من السلاح.

وقد هاجمت دورية[٣] قتال يهودية قرية (جلبون) في ليلة من ليالي خريف سنة ١٩٤٨ وأسرت ستة رجال وامرأتين، فما كان من جيش العراق المرابط في (جنين) إلا أن قصف مستعمرة (تل العمال) القريبة من (بيسان) بست عشرة قنبلة من قنابل المدفعية، وأشاع أن هذه العملية هي انتقام من يهود لأسرهم العرب من (جلبون)، فسارع يهود على أثرها بإطلاق سراح الأسرى، وأرسلوهم معزّزين مكرّمين بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من موعد قصف المدفعية لمستعمرة (تل العمال)[٤].

---

(١) الفوج: وحدة مشاة لا يزيد تعداده على ألف شخص.
(٢) الآية الكريمة من سورة الحشر: (٥٩: ١٤).
(٣) دورية: جماعة للاستطلاع والحصول على المعلومات إما بالقتال أو بدونه.
(٤) سيرد تفصيل ذلك في كتابنا: طريق النصر في معركة الثأر.

ومع ذلك وطدت إسرائيل أقدامها في الأرض المقدسة، ومع ذلك استطاع يهود أن يحتلوا اللدّ والرملة بثلاث مدرّعات..

ومع ذلك استطاعت إسرائيل أن تفرض إرادتها على العرب لقد كان لمن وراء إسرائيل من الدول العظمى أثر بالغ على فرض إسرائيل في جزء مقدّس من أرض العرب ودار الإسلام.

ولكنّ من وراء إسرائيل وزنوا العرب وهم مائة مليون أو يزيدون، ووزنوا المسلمين وهم خمسمائة مليون أو يزيدون، في ميزان القوّة مع يهود إسرائيل، وهم يومئذ ١ مليون ونصف، فوجدوا أن وزن يهود في ميزان القوة أثقل من وزن العرب والمسلمين، لأن العرب والمسلمين حينذاك كانوا غثاء كغثاء السيل، ولو كان الأمر خلاف ذلك لتبدّل الحال غير الحال.

ويوم يثبت العرب والمسلمون أنهم رجال حقاً، فسيجدون العالم كلّه إلى جانبهم، لأن صوت القوة هو الصوت المسموع في العالم كلّه، وكل قول يخالف ذلك هراءُ في هراءٍ.

لقد كانت الجيوش العربية عام ١٩٤٨ مقيدة بقيود ثقيلة من السياسيين المحترفين الذين كانت قلوبهم مع العرب وسيوفهم مع الاستعمار، لذلك قلت في حفلة توديع الجيش العراقي بمناسبة عودته من فلسطين إلى العراق.

لا تعذلوا جيش العراق وأهله ... بلواكمو ليست سوى بلوانا
إن السنان يكون عند مكبّل ... بالقيد في رجليه ليس سنانا
إني لأعلم أن دين محمد ... لا يرتضي للمسلمين هوانا
وهو الخلود لمن يموت مجاهداً ... ليس الخلود لمن يعيش جباناً

إن اللغة الوحيدة التي يفهمها يهود، هي لغة القوة، ولن يحلّ مشكلة العرب في فلسطين غير السيف.

أما هيئة الأُمم المتحدة، أما مجلس الأمن الدولي، أما المؤتمرات الدولية، أو الاحتجاجات الصاخبة، أما الخطب والقصائد، أما الصراخ والعويل، فلن تحلّ هذه المشكلة، وينطبق عليها المثل العربي السائر: «أشبعتهم شتماً وراحوا بالإبل».

(٤)

تلـك هـي الـدروس الـتي تـبرز مـن وراء الغيـب عبرة للعرب والمسلمين من تاريخ غزوات النبي ﷺ في حرب اليهود.

هـذه الـدروس، وهذه العبَر، هي التي يجب أن يأخذ العرب والمسلمون بها لاستعادة حقّهم المغتصب في أرض فلسطين.

وإذا لم يكـن لهـذا الكـتاب مـن فـائدة، غـير التذكير بهذه الدروس والعبر، فقد كفاه فخراً وكفى مؤلفه أجراً.

تحية تقدير للأخ الأستاذ محمد أحمد باشميل على جهوده المثمرة وجهاده المفيد.

والحمد لله كثيراً، وصلى الله على سيد القادات وقائد السادات، رجل الرجال وبطل الأبطال، رسول الله ﷺ.

محمود شيت خطاب

عضو المجمع العلمي العراقي

بسم الله الرحمن الرحيم
كلمة المؤلف

نحمدك اللهم وإياك نعبد وإياك نستعين، ونسألك أن تصلي على نبيك ورسولك محمد الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغُرّ الميامين، ونَضْرَع إليك اللهم أن تجعل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم وأن تعصمنا من مزالق الغرور ومهاوي السمعة والرياء إنك سميع مجيب.

وبعد، فهذا هو الكتاب الرابع من سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) نحمد الله العلي القدير الذي أعاننا على إخراجه، ونرجو (مخلصين) أن ينفع الله به من يقرأه، وشكراً لمن أرشدنا إلى خطأ فيه لنقوم بإصلاحه.

(١)

منذ اللحظة الأُولى التي أشرق فيها نور الإسلام، ومنذ الساعة التي وصل فيها النبي ﷺ إلى المدينة واليهود يكيدون للإسلام ويتربصون به وبالمرسَلِ به الدوائر بغياً وحسداً عكس ما يوصيهم به كتابهم (التوراة) الذي يجدون فيه محمداً ﷺ مكتوباً نبياً يجب اتّباعه.

وبالرغم من اللين والتسامح الذي عامل به النبي ﷺ اليهود عند ما ألقت إليه يثرب كلها بزمام حكمها، وبالرغم من المعاهدة «معاهدة الدفاع المشترك والتعايش السلمي وعدم الاعتداء» المعقودة بين المسلمين واليهود فقد ظلّ اليهود (ما أمكنهم) يقاومون الدعوة الإسلامية ويثيرون المتاعب في وجه حامل لوائها النبي ﷺ يبثّون من أراجيف وينشرون من أكاذيب تستهدف تشكيك الناس في صدق دعوته والنفور منها، ويعضّدون كل من يريد به شراً أو يبيّت له ولأصحابه مكروهاً، بل ويتآمرون ضد الإسلام بغية الإطاحة بحكمه والقضاء على رسوله.

غير مبالين بعهد أعطوه ولا مقيمين وزناً لميثاق أبرموه، لأن هذه العهود والمواثيق (عند هؤلاء اليهود) لا قيمة لها ولا اعتباراً إلاّ عندما يكون التمسك والالتزام بها يحقق لهم مصلحة خاصة فحسب.

ولذلك فقد كان سكونهم أو حركتهم (في يثرب) لا يأتيان تمشياً مع روح العهود والمواثيق التي أعطوها وإنما يأتيان تبعاً للظروف في حدود المصلحة الشخصية، فإن رأوا فرصة مواتية أظهروا البغض والعداء وتحركوا للنيل من المسلمين، وإن لم يروا فرصة لا ذوا بالصمت وانزووا كالأفاعي في انتظار الفرصة المواتية، فهؤلاء اليهود، هم (بحق) أول من وضع أسس المذهب (الميكافيلي) الخبيث، كما سيرى القارئ في هذا الكتاب.

ولقد عانى المسلمون ونبيهم ﷺ في يثرب من هذا الخلق اليهودي (طيلة أربع سنوات) مشاق كثيرة ومتاعب عظيمة كان الرسول ﷺ يقابلها بحلم واسع وتسامح عظيم، وحتى الذين تآمروا على حياته من هؤلاء اليهود وقرروا اغتياله ذهب في التسامح معهم إلى أبعد الحدود حيث اكتفى (فقط) بنفيهم من المدينة مع أنه قادر على إبادتهم بعد أن استسلموا له دونما قيد أو شرط بعد محاصرتهم وإدانتهم بجريمة التآمر على حياته.

ولم يقف النبي ﷺ من اليهود موقفاً صارماً ويُسمعِهم لغة السيف الدامية إلاّ عندما ارتكب فريق منهم (وهو بنو قريظة) أشنع وأخس جريمة في تاريخ الغدر والخيانة، حينما نكثوا العهد وخانوا الميثاق وداسوا شرف الكلمة التي أعطوها، فانضمّوا إلى الغزاة من قريش وغطفان في غزوة الأحزاب الرهيبة.

واستعدوا لضرب المسلمين من الخلف في أدق ساعات مصيرهم، مستهدفين القضاء على الإسلام واستئصال شأفة المسلمين استئصالاً تاماً. غير مبالين بما أعطوا من عهد ولا ملتفتين إلى ما أبرموا من مواثيق.

فكان جزاؤهم الإبادة الكاملة، وهو المصير الذي قد وطدوا العزم على أن يدفعوا المسلمين إليه عندما وضعوا أيديهم في أيدي الغزاة من الأحزاب وظاهروهم على المسلمين قولاً وعملاً، فكانت صرامة العقوبة «وهي إبادة حوالي ثمانمائة مقاتل من هؤلاء اليهود في يوم واحد بعد اندحار الأحزاب» تتناسب وجريمة الخيانة العظمى التي ارتكبها هؤلاء اليهود ضد المسلمين الذين كان يربطهم بهم ميثاق تحالف، ومعاهدة عدم اعتداء، وعهد تواطن في إطار أمة واحدة يجمعها وطن واحد وهو يثرب[(١)].

(٢)

وبما أن غزوة بني قريظة. هي المعركة الكبرى والأخيرة التي بها تمت تصفية العنصر اليهودي في يثرب، وبها تم تطهير تلك البقعة الطيبة من شرور ذلك النوع الخبيث من البشر. وبما أن صلة هذا النوع بجزيرة العرب، صلة موغلة في القدم ترجع إلى ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام بعدة قرون، فقد رأينا أن نعقد فصلين كاملين، هما الفصل الأول والثاني من هذا الكتاب يتضمنان موجز تاريخ اليهود في جزيرة العرب.

---

(١) نصت المعاهدة المعقودة بين المسلمين واليهود على أن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٠٣ وما بعدها.

الفصل الأول يتضمن موجز تاريخ اليهود في جزيرة العرب قبل الإسلام، والفصل الثاني يتضمن موجز تاريخهم منذ ظهور الإسلام حتى غزوة خيبر - المعركة الختامية للصراع بين الإسلام واليهود والتي ستكون موضوع كتابنا الخامس من هذه السلسلة إن شاء الله.

ففي الفصل الأول تحدثنا بإيجاز (وبتوسع أحياناً) عن تاريخ اليهود في يثرب وتيماء ووادي القرى وخيبر وأيلة (إيلات) ومناطق الشمال الأُخرى، كما تحدثنا في هذا الفصل عن اليهودية في اليمن، وتحدثنا (بصفة عامة) عن مدى تأثير الديانة اليهودية بين عرب الجاهلية، كما تحدثنا عن مدى تأثر اليهود بالثقافة العربية التي صهرتهم إلى درجة نسوا معها ثقافتهم الإسرائيلية وجعلوا لغتهم العبرانية التي لم يبق من يجيدها منهم غير قليل من الكهّان والأحبار.

وفي الفصل الثاني تحدثنا بإيجاز عن مواقف اليهود من الإسلام (وكلها مواقف عدائية)، وأشرنا إلى كل مراحل الحرب الباردة والساخنة التي كان اليهود يشنونها على الإسلام منذ أن سطع نوره على هذه الأرض، كل ذلك لنعطي القارئ فكرة واضحة عن حقيقة هذا العنصر الذي يمثل (في كل عصر وزمان) دور التخريب والإفساد.

(٣)

كذلك لما كان إعدام حوالي ثمانمائة رجل من يهود بني قريظة في هذه الغزوة مثار انتقادات مغرضة وتهجمات ظالمة على النبي ﷺ من خصوم تقليديين للإسلام كبعض الكتاب الغربيين واليهود، ومن تلاميذ لهم (أيضاً) ينتسبون إلى الإسلام حيث زعموا جميعاً أن عملية إبادة هؤلاء اليهود تتسم بطابع الوحشية والهمجية، ولا تتفق مع روح التمدن وحقوق الإنسان. فقد أفردنا فصلاً خاصاً في هذا الكتاب (وهو الفصل الرابع) تناولنا فيه التهم الموجهة إلى النبي ﷺ من هؤلاء الخصوم وناقشناها بالتفصيل وأثبتنا بالحجة والبرهان بطلان تلك التهم والانتقادات، وأوضحنا أن إعدام بني قريظة لا غبار على شرعيته وتمشّيه مع قواعد العدالة، وأنه عمل تقرّه أصول القضاء في جميع الأعراف والقوانين حتى هذه اللحظة، لأنه عقوبة عادلة نزلت بقوم ارتكبوا جرائم ثلاث، لا تزال القوانين الدولية في جميع أرجاء العالم (بلا استثناء) تنزل عقوبة الموت بمن ارتكب واحدة منها فكيف بمن ارتكبها مجتمعة، كما فعل بنو قريظة.

وفي هـذا الفصـل (وعـند تعرّضـنا لبحث استرقاق نساء وأطفال بني قريظة) تعرضنا للرق في الإسلام بصفة عامة وناقشنا التهم التي وجهت إلى الإسلام من خصومه - عبر موقفه من الرق - وأثبتنا أن الإسلام لم يكن المشّرع الأول للرق أو مشجعاً عليه بل هو الديـن الوحـيد الـذي حـارب الـرق بمخـتلف الأسـاليب، فردم جميع منابعه ما عدا نوعاً واحـداً أبقـى علـيه بعـد أن حصره في دائرة ضيقة، وهو الرق الناتج عن الحروب العادلة الـتي يخوضـها المسـلمون ضـد أعـداء الإسـلام.. هذا النوع من الرق أبقى عليه الإسلام كإجـراء حـربي مقابل لابد منه، لأنه معاملة بالمثل لا مناص للمسلمين من القيام بها تجاه أعـداء يسـترقون ويسـتعبدون مـن يقـع في أيديهم من أسرى المسلمين بما في ذلك النساء والأطفـال، وأثبتـنا في هـذا الفصـل أن الإسـلام مـع إبقائه على هذا النوع من الرق، قد أعطى الرقيق من الحقوق وكفل له من الضمان والحماية ما لم يعطه أو يكفله له أي عرف أو قـانون في الدنـيا حيـث بلـغ بـه في الارتفـاع إلى درجـة ساوى فيها بينه وبين مالكه في الحقوق العامة.

(٤)

وفي هـذا الكـتاب سـيرى القـارئ كيف أن الخُلُق اليهودي، هو منذ أن حلّت اللعنة بهـذا الشـعب عـلى لسـان داود وعيسـى بـن مريم.. سيرى في تصرّفات هذا العنصر في جزيـرة العـرب وخاصة مع المسلمين ونبيّهم ﷺ ضروباً مقرفة من الخسة واللؤم، وألواناً كالحـة مـن الغـدر والخـيانة، ونمـاذج كئيـبة من الانتهازية والنكث.. مجموعة من المخازي ورصيداً هائلاً من الرذائل لم يسجل التاريخ مثله لأُمة من الأُمم المغضوب عليها من الله، الـلهم إلا مـا بـدأ الـتاريخ يسجله الآن (ويا للأسف) لفئة من الناس في المنطقة تتلمذوا عـلى المذهـب الميكافـيلي اللاأخلاقـي فأخذوا يسيرون على نهج هؤلاء اليهود في الغدر والانـتهازية ونكث العهود والمواثيق، فيدعون إلى إبرام الاتفاقيات والعهود والتمسك بها عـندما يظـنون أن في ذلـك كسـباً لهـم، ويدرسـونها ويـرمون بهـا عُـرْض الحـائط عندما يكتشفون أنها لا تحقق الكسب الخاص الذي دعوا إلى إبرامها من أجل تحقيقه.

بـل ويرتكبون من الأعمال الوحشية والهمجية ما لم يرتكب مثله هؤلاء اليهود حيث يبـيدون عشـرات الألـوف مـن النسـاء والأطفال المسلمين، ويمسحون من الوجود القرى العـزلاء الآمـنة ليرهـبوا شـعباً مسـلماً أبـياً شرسـاً قـام على كواهل أجداده بنيان تاريخ الإسـلام العسـكري الشـامخ.. بغـية إخضـاع واسـتعمار هذا الشعب العملاق الذي رد المعـتدين وسحق الغزاة (عبر القرون) في كل مرة يحاولون فيها إخضاعه واستعماره فصار

يضـرَبُ بـه المـثل في الصـمود ورفـض التسلط الأجنبي مهما كان نوعه، حتى صار يطلق عـلى هـذا الشـعب (من بين جميع الشعوب) اسم محطم الغزاة ومؤدّب الطغاة. ومروّض الجبابرة.. فـلا يعـتدي عليـه طاغـية أو يغزوه طامع إلا وقَبّرَ جيشه الغازي وحطم آماله وبـدَّد أطماعـه وجعلـه وجيوشه (مهما قويت وكثفت) أضحوكة الثقلين وعبرة لمن بعده مـن الأجـيال، وهـا هـو الـتاريخ الـيوم يعـيد نفسه في أرض هذا الشعب العملاق الأبّي الشرس.

(٥)

إن الذي لا يعرف الخلق اليهودي، ولم يسبق له معاشرة هذا النوع من البشر الذي هو كالجسم الغريب الضار في جسد البشرية ولم يحط علماً بحقيقة تاريخه، قد يستعظم ما لاقاه ويلاقيه من كره لدى الشعوب عامة، وقد يستبشع ما ينزل أحياناً بهذا النوع من نفي وتشريد وتقتيل.

ولكـن الخـبراء بنفسـيات هذا الشعب اليهودي والملمّين بحقيقة تاريخه (عبر القرون) يؤكـدون بمـا لا يـدع مجالاً للشك أن هذا الشعب هو الشعب الوحيد الذي يظهر كل فرد مـن أفـراده وكأنـه قـد رسـخ في ذهـنه وامـتزج في دمـه أن مهمـته في الحياة هي الإفساد والتخريـب والـتدمير لكـل ما هو غير إسرائيلي. فكل تيارات التدمير الخلقي والانحراف العقـائدي ومـا صـاحب ذلـك مـن مجـازر فظـيعة في العـالم وارتكاسـات مدمِّرة في حياة الشـعوب وارتباكات في اقتصاديات الأمم إنما هو (في الغالب) من صنع التفكير اليهودي وتخطيطه.

ويكفـي للتدلـيل عـلى ذلـك أن الحـركة الشـيوعية الماركسية التي ارتكب قادتها من جـرائم التعذيـب والقـتل والإبـادة - وعـلى مسـتوى مـن الوحشية والهمجية لم يشهد الـتاريخ مثـلها مـنذ أن خلـق الله الدنـيا - هـذه الحركة التي لم تُصَبْ البشرية في مختلف عصـورها بنكـبة مـثل نكبـتها إنما جاءت وفق بروتوكول وضعه مفكرون من اليهود، ولا أدلَّ على ذلك من أن واضع النحلة الشيوعية (كارل ماركس) هو يهودي مجرم حاقد.

كذلـك أثبـت الـتاريخ أن واضـع مخطط جرائم المجازر الوحشية الهمجية الرهيبة التي ارتكبـت في أول عهـد الـثورة الفرنسية والمدبر المحرك لهذه المجازر إنما هم اليهود الذين من طبيعـتهم الـتلذذ بمـا يصـيب غيرهـم من الشعوب والذين ما عاشوا في اى عصر وفي اى مكـان مـع أى شعب من الشعوب غيرهم إلاَّ وشرعوا في تخريبهم وإفسادهم، كما يعرف ذلك كل شعوب العالم.

فما يحل دائماً باليهود من نفي أو إبادة مما يتظلمون منه في كل عصر وزمان إنما هو (في الغالب) رد فعل معاكس عنيف لما يقومون به من جرائم وخيانات وأعمال تخريب وإفساد بين الشعوب التي يواطنونها ويجدون مستقراً بينها، وما أصاب بنو قريظة على أيدي المسلمين إنما هو من صنع أولئك اليهود أنفسهم.

فكل القادة والمسئولين الحريصين على سلامة أوطانهم وشعوبهم يحاولون (منذ آلاف السنين) تطهير أوطانهم وتنقية مجتمعاتهم من هؤلاء اليهود، لعلمهم بحقيقة نفسيات هذا النوع الخطر من البشر الذي لا يواطن أمة من غير جنسه إلاَّ وأفسدها وأطلق (بوسائله الخاصة) به التخريب والتدمير فيها.

وبين أيدينا الآن وثيقة على غاية من الخطورة والأهمية تدين هؤلاء اليهود بالتخريب والإفساد أينما حلوا، وأهمية هذه الوثيقة تتمثل في كون واضعها من أكبر زعماء الولايات المتحدة الأمريكية في القرن الثامن عشر وأعظم قادتها والمخلصين لها على الإطلاق وهو الرئيس (بنجامين فرنكلين).

ولأهمية هذه الوثيقة الصادرة عن أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية فإنا سنثبت هنا النص الحرفي الكامل للوثيقة باللغة الإنكليزية مع ترجمة لها باللغة العربية:

نص الوثيقة باللغة الإنكليزية

PROPHECY OF BENJAMIN FRANKLIN IN REGARD OF THE JEWISH RACE

(Excerpt from the Journal of Charles Pirckney of South Calorina of the proceedings of the Constitutional Converntion of ١٧٨٩ regarding the statement of Benjamin franklin at the Convention concerning JEWISH IMMIGRATION).

There is a great danger for the United States of American. This great danger is the JEW, Gentlemen, in which enery land the Jews have settled they have depressed the moral level and lowered the degree of commercial honesty. They have remained apart unassimilated; opperssed, they attempt to strangle the nations financially, as in the case of portugal and Spain.

For more than ١٧٠٠ years they have lamented their sorwful fate, nameiy, that they have been driven out of their mother land; but, Gentlemen, if in the world should give them back today palestine and their property, they would immediately find pressing reasons for not returning there. Why? Because they are Vampires- they cannot live among themselves. They must live among Christians and others, who do not belong to their race.

If they are not excluded from the United States by the Constitution, within at least ١٠٠ years they will stream into this Country in such numbers that they will rule and destroy us and change our form of Government for which we Americans shed our blood and sacrificed our livesp ،roperty and personal freedom. If the Jews are not excluded, within ٢٠٠ years our children will be working in the fields to feed the Jews while they remain in the counting house, gleefully rubbing their hands.

I warn you, Gentlemen, if you do not exclude the Jews forever, your children

and children s children will curse you in your graves. Their ideals are not those of Americans, even when they have lived among us for ten generations. The leopard cannot change his sports. The Jews are a danger to this land if they are allowed to enter. They will imperil our in stitutions. They should be excluded by the Constitution.

(Original of this copy is in the franklin Institute, philadelphia, Pa.).

ترجمة الوثيقة باللغة العربية (١)

في عام ١٧٨٩م ألقى الرئيس بنجامين فرنكلين خطاباً عند وضع دستور الولايات المتحدة جاء فيه ما يلي:

«هناك خطر عظيم يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك الخطر العظيم هو خطر اليهود.»

أيها السادة: في كل أرض حلَّ بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخلقي وأفسدوا الذمة التجارية فيها، ولم يزالوا منعزلين لا يندمجون بغيرهم، وقد أدّى بهم الاضطهاد إلى العمل على خنق الشعوب مالياً، كما هو الحال في البرتغال وأسبانيا.

منذ أكثر من ١٧٠٠ عام وهم يندبون حظهم الأسيف، ويعنون بذلك أنهم قد طردوا من ديار آبائهم ولكنهم أيها السادة، لن يلبثوا إذا ردَّت إليهم الدول اليوم فلسطين، أن يجدوا أسباباً تحملهم على ألا يعودوا إليها، لماذا؟ لأنهم طفيليات لا يعيش بعضهم على بعض، ولابد لهم من العيش بين المسيحيين وغيرهم ممن لا ينتمون إلى عرقهم.

(١) إن الفضل في نشر هذه الوثيقة الخطيرة يعود إلى الشاب السعودي الفاضل الأستاذ حسين أبو بكر القاضي المتخصص في الدراسات الإسلامية والحائز على الماجستير في العلوم السياسية والقانون الدولي، فعندما كان هذا الرجل الفاضل طالباً في جامعة الباسفيك بالولايات المتحدة كتب إليه العلامة الشيخ مصطفى الزرقا الأستاذ بجامعة دمشق - بعد أن اطلع على هذه الوثيقة باللغة العربية كتب إليه ليوافيه بالنص الإنجليزي من مصدره، وقد حدثني الأستاذ حسين القاضي فقال: قصدت إلى معهد بنيامين فرنكلين في فيلادلفيا (بولاية بنسلفانيا) لنقل النص حرفياً من مصدره. وكم كانت دهشتي حين راجعت خطبة الرئيس الأمريكي (بنجامين فرنكلين) إذ وجدت أن القسم الذي يتضمن هذه الوثيقة قد انتزع كاملاً من خطبة الرئيس الأمريكي، فراجعت المسئولين عن المعهد فهالهم الأمر إذ اكتشفوا أن في الأمر جريمة خطيرة ارتكبها أحد المجرمين من يهود، ثم يقول إلا أنه لحسن الحظ تبين - بعد البحث - في المتحف نسخة أخرى من تلك الخطبة كاملة لم يتطرق إليها عبث المفسدين، فنسخت عنها باللغة الإنكليزية هذا القسم المتعلق بالخطر اليهودي.. ولقد عمد الأستاذ القاضي في حينه فطبع عدة آلاف من هذه الوثيقة باللغة الإنكليزية فقام (وهو لا يزال طالباً) فوزعها على الهيئات الدولية والسياسية والعلمية في الولايات المتحدة وغيرها خدمة لدينه وأمته الإسلامية، وقد نشرت هذه الوثيقة (بسعْي الأستاذ القاضي) مجلة (المسلمون) في أحد أعدادها كما نشرتها مجلة التمدن الإسلامي في الجزأين ٢٥، ٢٦، وجريدة الندوة بمكة في عددها ٥١١ وتاريخ ربيع الأول ١٣٨٠هـ - فشكراً لهذا الشاب المسلم الصادق الأستاذ حسين القاضي وأكثر الله في شبابنا الإسلامي من أمثاله ليكونوا سفراء خير لدينهم أينما حلوا.

إذا لم يبعُد هؤلاء عن الولايات المتحدة (بنص دستورها) فإن سيلهم سيتدفق إلى الولايات المتحدة في غضون مائة سنة إلى حد يقدرون معه على أن يحكموا شعبنا ويدمّروه ويغيّروا شكل الحكم الذي بذلنا في سبيله دماءنا وضحينا له بأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا الفردية.

ولن تمضي مائتا سنة حتى يكون مصير أحفادنا أن يعملوا في الحقول لإطعام اليهود، على حين يظل اليهود في البيوتات المالية يفركون أيديهم مغتبطين.

وإنني أحذرّكم أيها السادة، أنكم إلاَّ تُبْعدوا اليهود نهائياً، فلسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركم، إن اليهود لن يتخذوا مثلنا العليا ولو عاشوا بين ظهرانينا عشرة أجيال، فإن الفهد لا يستطيع إبدال جلده الأرقط.

إن اليهود خطر على هذه البلاد إذا ما سمح لهم بحرية الدخول، إنهم سيقضون على مؤسساتنا، وعلى ذلك لابد من أن يُستبْعَدُوا بنص الدستور». أ هـ.

وبعد، فإلى الشباب المسلم وإلى كل إنسان رزقه الله نعمة السيطرة الحرة الكاملة على عقله وتفكيره، وعصمه من التردّي في هوّات التحيّز والعناد والهوى أتقدم بهذا السفر الجديد سائلين المولى جل وعلا أن ينفع به وأن يتفضل علينا (وهو ذو الفضل العظيم) بالرضا الدائم والتوفيق المستديم إنه على كل شيء قدير، والله أكبر والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

جدة ــ المملكة العربية السعودية

شهر صفر ١٣٨٦هـ ــ مايو ١٩٦٦م

محمد أحمد باشميل

الفصل الأول

- **موجز عن تاريخ اليهود في جزيرة العرب قبل الإسلام.**
- **اليهود في يثرب وخيبر والشمال.**
- **مدى سلطان اليهود.**
- **خضد اليمانيين لشوكتهم قبل الإسلام.**
- **اليهود في اليمن.**
- **أثرهم الثقافي والديني بين العرب.**
- **شعراء اليهود في الجزيرة.**

نسب اليهود: يرجع نسب اليهود الإسرائيليين إلى نبي الله يعقوب المسمّى (إسرائيل)، واشتقاق كلمة (اليهود) من قولهم هاد إذا رجع، ولزمها هذا الاسم من قول موسى عليه السلام (إنّا هدْنا إليك) أي رجعنا وتضرعنا، ومنتحلُها اليهود المتمسكون بشريعة موسى عليه السلام، وهم أعم من بني إسرائيل، لأنه ليس كل يهودي إسرائيلي، لأن الإسرائيلي في حقيقته هو الذي يعود نسبه إلى نبي الله يعقوب (وهو إسرائيل)، وكثير من أجناس العرب والروم وغيرهم قد دخلوا في اليهودية وليسوا من بني إسرائيل [١]، كما أن هناك كثيراً من إسرائيلي النسب دانوا بغير اليهودية كالإسلام والمسيحية، وهكذا فليس كل يهودي إسرائيلي وليس كل إسرائيلي يهودي.

لقد كان لإبراهيم عدة أبناء كانوا آباءً لأُمم كثيرة في بلاد شتى أخصهم إسماعيل وإسحاق، أمّا إسماعيل فإنه سكن بلاد العرب، وكان من عقبه العرب المستعربة.

أمّا إسحاق فإنه أقام مع أبيه حتى مات، فكان الجد الثاني للعبرانيين، وخلّف إسحاق ولدين عيسو (العيص) ويعقوب، فجلا عيسو، وحلَّ يعقوب محل ابيه ولُقب بـ (إسرائيل) وإليه يُنسب الإسرائيليون كافة [٢] ومنهم اليهود الذين استوطنوا يثرب وغيرها من جزيرة العرب.

---

(١) صبح الأعشى ج١٣ ص ٢٥٣.

(٢) اليهود في القرآن ص ٩٥.

قبائل اليهود في يثرب: وقد كان اليهود قبائل وبطوناً مختلفة الأسماء بلغت في يثرب اثنتي عشرة قبيلة وهم، بنو عكرمة، وبنو ثعلبة، وبنو محمر، وبنو قيقاع، وبنو زيد، وبنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بهدل، وبنو عوف، وبنو الفصيص، وبنو مرانة، وبنو زاعوراء. وكل هذه (ماعدا زاعوراء) أسماء عربية صرفة.

العنصرية بين اليهود: ويشير الإخباريون إلى أن بني قريظة وبني النضير قد عُرفوا من بين اليهود (بالكاهنين) نُسبوا بذلك إلى جدهم الذي يقال له: (الكاهن) (١).

والكاهن (عندهم): هو الكاهن بن هارون بن عمران على زعم بعض أهل الأخبار، فهم على هذه من أصل رفيع ومن نسب حسيب يميزهم عن بقية طوائف يهود، ولهذا كانوا يفتخرون بنسبهم هذا ويرون لهم السيادة والشرف على من سواهم من إخوانهم في الدين (٢).

كيف جاء اليهود إلى يثرب؟ لا يستطيع أحد أن يذكر بصفة قاطعة متى وكيف استقر اليهود في هذه البقعة من الجزيرة العربية.

غير أن الذي لا سبيل إلى إنكاره واتفق عليه المؤرخون بالإجماع هو أن اليهود كانوا موجودين في هذه البقعة العربية، قبل الإسلام بعدة قرون.

كما أنه من المجمع عليه (أيضاً) أن العنصر اليهودي هو عنصر دخيل على الجزيرة العربية نازح إليها من بعيد، لا تربطه بسكان هذه الجزيرة أية رابطة من دين أو لغة أو دم.

أمّا متى نزل اليهود منطقة يثرب، فإن الإخباريين قد اختلفوا في تحديد ذلك، إلا أنهم كادوا يتفقون على أن اليهود قد جاءُوا إلى منطقة يثرب في فترات متباعدة جداً.

فأول فترة (كما يقول هؤلاء الإخباريون) جاء فيها اليهود إلى يثرب ترجع إلى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد، وذلك في أواخر أيام نبي الله موسى عليه السلام، وفي أوائل عهد النبي يوشع.

والفترة الرئيسية الثانية التي هاجرت فيها مجموعة كبيرة من اليهود إلى منطقة يثرب تقع ما بين خراب هيكلهم في عام ٧٠م وتنكيل (هدريان) باليهود في عام ١٣٢م (٣).

---

(١) الأغاني ج ١٩ ص ١٩٦.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٣.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي ج ٦ ص ١٤.

ومن المصادر العربية التي جاء فيها هذا التحديد، كتاب الأغاني الشهير[١] للإخباري المشهور (أبو الفرج الأصبهاني).

فقد ذكر هذا المؤلف في كتابه المذكور، أن نبي الله موسى عند عودته من مصر ببني إسرائيل إلى الشام بلغه أن قوماً جبارين من العمالقة[٢] في منطقة المدينة قد بغوا في الأرض وساموا الناس سوءَ العذاب، فجرد عليهم حملة عسكرية من قومه بني إسرائيل، وأمر قائد هذه الحملة بأن يستأصل شأفة هؤلاء العماليق[٣] الجبابرة، ولا يبقى على أحد منهم.

ويقول الأصبهاني: إن هذه الحملة العسكرية وصلت (فعلاً) إلى المدينة، فأوقعت بالعماليق وأبادتهم عن بكرة أبيهم إلا شاباً واحداً هو ابن ملك العماليق (الأرقم)، أعفوه من القتل واصطحبوه معهم ليرى فيه نبي الله موسى رأيه.

ولما قفل هذا الجيش راجعاً إلى الشام وجد نبي الله موسى قد توفاه الله.

ولكن زعماء بني إسرائيل من بعده لما علموا أن الجيش قد أعفى شاباً واحداً من العماليق من القتل، قالوا هذه معصية عصى الجيش بها نبي الله موسى، ولهذا منع بنو إسرائيل هذا الجيش من البقاء بينهم، قائلين: والله، لا تدخلون علينا الشام أبداً.

ويذكر الأصبهاني أن قادة هذا الجيش تشاوروا فيما بينهم، وأخيراً استقر رأيهم على أن يعودوا بكامل جيشهم إلى المدينة قائلين: ما كان خيراً لنا من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز، نرجع إليهم فنقيم في أرضهم، فرجعوا على حاميتهم حتى قدموا المدينة واستقروا فيها. فانتشروا في نواحي المدينة كلها إلى العالية، فاتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع.

فكان أفراد هذا الجيش (كما يقول الأصبهاني) أول من سكن المدينة من اليهود.

أما بشأن الفترة الثانية التي نزح فيها اليهود إلى المدينة، فقد ذكر الإخباريون أن الروم لما استولوا على بلاد الشام في الفترة الواقعة ما بين سنة ٧٠ - ١٣٢ للميلاد وفتكوا باليهود ونكلوا بهم اضطر هؤلاء اليهود إلى الفرار بأنفسهم وتفرقوا في أنحاء آمنة بعيدة عن مجالات الروم.

---

(١) الأغاني ج ١٨ ص ١٩١ وما بعده.

(٢) يجعل المؤرخون العرب عنصر العماليق في عداد العرب البائدة، حيث ينقسم العرب عند هؤلاء المؤرخين إلى عرب بائدة وعاربة وعربي، فالبائدة مثل طسم وجديس والعماليق وعاد. والعاربة الإسماعيليون، والعربي هم القحطانيون.

(٣) كان ساكنو المدينة في ذلك العصر من العماليق بني هف وبني سعد وبني الأزرق وبني مطروق، وكان ملك الحجاز منهم رجلاً يقال له: الأرقم ينزل ما بين تيماء إلى فدك.

ومـن هـؤلاء الـيهود (كمـا يذكـر المسـتر أوليري) يهود بني قريظة وبني النضير وبني بهـدل، فـروا مـن وجـه الـرومان إلى الجنوب في اتجاه يثرب وساروا في ذلك الاتجاه حتى استقروا مع من قبلهم في تلك المنطقة من الحجاز [١].

والمسـتر (أويـري) هـذا يـتفق في قولـه هذا مع صاحب الأغاني (الأصبهاني) أو هو ناقل عنه.

فقـد ذكـر الأصـبهاني في كـتابه الأغاني ج ١٩ ص ١٩٥ طبعة مكتبة دار الحياة: أن الـروم لمّا تغلبوا على بني إسرائيل في الشام ونكلوا بهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين منهم إلى الحجاز.

وأن هـؤلاء اليهود الفارين لما وصلوا إلى منطقة يثرب نزلوا الغابة [٢] فوجدوها وبيئة فكرهوا الإقامة بها، ولذلك بعثوا رائداً منهم يلتمس لهم مكاناً صالحاً للسكنى نقي الهواء طيب التربة.

فخـرج باحـثاً عـن ذلـك حـتى قـاده البحث والاستكشاف إلى منطقة العالية، وهي بُطْحـان ومهـزور ـ واديـان مـن حـرة ـ على تلاع أرض عذبة، بها مياه عذبة تنبت حُرَّ الشجر.

فـرجع إلى قومـه بالغابـة وأخـبرهم بمـا رأى فقرَّ رأيهم على الإقامة في تلك المنطقة، فـنزل بـنو النضير ومن معهم على بُطْحان، ونزلت بنو قريظة وبنو بهدل ومن معهم على مهـزور، فكانـت لهـم تلاعه وما سقى من بُعاث وسموات؛ وكان يساكن اليهود في يثرب ـ قـبل نـزول الأوس والخـزرج عليهم ـ قبائل عربية غير يهودية، منها، بنو الحرمان ـ حـيّ من اليمن ـ وبنو مرثد ـ حيّ من بَلِي ـ وبنو نيف ـ وهم من بَليّ أيضاً ـ وبـنو معاويـة ـ حـي مـن بني سُلَيم ثم من بني الحرث ابن بهثة ـ، وبنو الشطبة حيّ من غَسّان.

أدوار الـتاريخ اليهودي في يثرب: ويمكـن تقسيم تاريخ الوجود اليهودي في يثرب إلى قسمين:

القسم الأول: قسم ما قبل الإسلام، وهذا القسم قد مر فيه على اليهود عهدان:

- عهد السيطرة والتحكم المطلق في منطقة يثرب.

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ج٦ ص ١٤.

(٢) الغابة موضع يقع شمال المدينة على بعد عدة أميال منها.

- عهد الانكسار والهزيمة.

ويبدأ العهد الأول ببداية نزول العنصر اليهودي أرض يثرب، وقد استمر هذا العهد (على ما يقوله الإخباريون) أكثر من ألف سنة.

أما عهد الانكسار فيبدأ بهجرة الأوس والخزرج من مأرب اليمن إلى يثرب وذلك في أوائل القرن الأول للميلاد.

إخضاع اليهود لسيطرة اليمانيين على يثرب: لقد ظل اليهود ـ طيلة ألف ومئتي سنة ـ سادة يثرب دون منازع يتحكَّمون فيها تحكماً استعمارياً (عسكرياً وسياسياً واقتصادياً) بالرغم من أن بعض القبائل العربية كانت تساكنهم في هذه المنطقة، فقد كانت هذه القبائل (على ما يظهر وحتى وصول اليمانيين) من الضعف والتفكك بحيث لم تستطع التعرُّض لليهود ساعة نزولهم يثرب ولم تقم بأية محاولة لمقاتلتهم كدخلاء أجانب، فليس فيما بين أيدينا من مصادر التاريخ شيء يشير إلى أن اليهود (قبل وصول الأوس والخزرج) كانوا يتعرضون لأية مكافحة أو مقاومة في هذه المنطقة.

ظل اليهود هكذا سادة يثرب حتى جاء القرن الميلادي الأول فأرسل الله سيل العَرِم على سَد مأرب الشهير في التاريخ فتهدم، وكانت مملكة (مأرب في اليمن) قبل انهدام السد من أخصب بقاع الشرق الأوسط، وكان أهلها يشكلون أقوى قوة حربية في جزيرة العرب، وكان ملكهم (عند انهدام السد) ملكاً عظيماً اسمه عمرو بن عامر مزيقيا وهو الملقب في التاريخ (بماء السماء).

الأوس والخزرج في المدينة: وعندما تهدم السّد انتاب الضعف مملكة مأرب فتفرق أهلها (وهم من الأزد من أبناء كهلان بن سبأ) في الأرض، فذهب الغساسنة منهم إلى الشام فصاروا ملوكها، ونزل اللّخميون منهم العراق فدانت لهم أيضاً فصار منهم ملوك (الحيرة) وهم المناذرة المشهورون في التاريخ، كما اتجه الأوس والخزرج منهم إلى يثرب فنزلوها، فكان نزولهم إيذاناً بزوال سلطان اليهود في المنطقة، فقد عمل هؤلاء اليمانيون ـ منذ نزولهم أرض يثرب ـ على مضايقة اليهود بغية مشاركتهم في سلطان المدينة وثرواتها الكبيرة.

ولكن الأوس والخزرج ظلوا عاجزين أمام سطوة اليهود وتماسكهم.. فقد بقى الأوس والخزرج ـ منذ نزولهم المدينة ـ في حالة فقر مدقع لا حول لهم ولا طول، وكان إخوانهم من العرب (سكان المدينة الأصليين قبلهم) أضعف منهم، لذا قنع الأوس والخزرج بما حصلوا عليه من أرض جدباء لا تنبت إلاَّ القليل من الزرع، فعاشوا في ضيق من العيش، وبقي اليهود يتمتعون بسلطان الملك، والثروة كلها في أيديهم.

ظل الحال على هذا المنوال ردحاً من الزمن، إلى أن فكَّر اليمانيون في الاستعانة بإخوانهم الغساسنة من ملوك الشام.

فقد أوفدت الأوس والخزرج أحد زعمائها - مالك بن العجلان - إلى ملك الغسانيين (أبو جبيلة)، ولما وصل إليه شرح له سوء حال قومه وغلبة اليهود المحتلين على منطقة يثرب واستئثارهم بثرواتها دونهم، وطلب منه العون العسكري لإخضاع هؤلاء اليهود.

فتوجّه الملك الغساني بجيشه لنجدة أبناء عمومته إلى يثرب، وهناك أوقع باليهود فكسرهم وأذلهم، في خبر طويل ليس هذا محل شرحه، وبعد ذلك رجع الملك الغساني إلى بلاده.

فكانت هذه الحادثة أول إخضاع لليهود على أيدي العرب (قبل الإسلام).

وبعد هذه الوقعة التي أباد فيها الملك الغساني مجموعة كبيرة من سادة اليهود وقادتهم، تنفس الأوس والخزرج الصّعداء فصاروا ندّاً لليهود يصاولونهم ويجاولونهم - بعد أن كانوا لا يجرءون على التعرض لهم - ، ومع هذا بقى اليهود على جانب كبير من القوة والتماسك، يصاولون اليمانيين ويجاولونهم. ولهذا دامت الحروب والمناوشات بين الفريقين زمناً غير قصير، إلى أن دبَّر مالك بن العجلان (زعيم الأوس والخزرج) مكيدة أفنى فيها مجموعة كبيرة من زعماء اليهود، وفتك الأوس والخزرج باليهود فتكاً ذريعاً [1].

وبهذا خضد اليمانيون (الأوس والخزرج) شوكة اليهود فذلّوا وانهدم سلطانهم، فقلَّ امتناعهم وخافوا العرب خوفاً شديداً ولم يستطيعوا الوقوف على أقدامهم في المدينة إلا بعد أن قبلوا الاندماج (قبلياً) في قبيلتي الأوس والخزرج بالحلف، حيث لجأ كل فريق من اليهود إلى قبيلة من قبائل الأوس والخزرج يتعزّز ويمتنع بهم.

ومن ذلك اليوم صار بنو قريظة وبنو النضير ومن تبعهم حلفاء الأوس، وبنو قينقاع ومن تبعهم حلفاء الخزرج، فكان كلما نشبت حرب قبلية بين الأوس والخزرج، يكون بنو قريظة والنضير ومن تبعهم في صفوف الأوس، وبنو قينقاع ومن تبعهم في صفوف الخزرج.

---

(١) انظر التفاصيل في الأغاني ج ١٩ ص ١٩١ وما بعدها، طبعة دار الحياة.

وبهـذا الـتحالف الـذي اندمـج فـيه الـيهود (قبلياً) بالأوس والخزرج، ضمن اليهود بقـاءهم في مـنطقة يـثرب، ولـو لم يفعلوا ذلك لإبادتهم القبائل العربية عن أخرهم، طالما كـان الاعـتداءُ عـلى اليهود سبباً في إثارة حرب طاحنة بين قبيلتي الأوس والخزرج نتيجة تحـالف الـيهود مـع هذه القبائل، وما حرب بُعاث الشهيرة الطاحنة التي دارت رحاها بين الأوس والخزرج قبل ظهور الإسلام بقليل، إلا لمحاولة قبائل الخزرج احتلال أراضي يهود بني قريظة (حلفاء الأوس) وطردهم منها [١].

الحرب الأهلية بين اليهود: ولم يخلو اليهود من خوض غمار حرب أهلية فيما بينهم في يـثرب) فقد كان بنو قينقاع (وهم من أشجع يهود المدينة) على خلاف دائم مع بني قريظة والنضـير يؤيـد ذلـك أن يهـود بـني قريظة والنضير لم يحركوا ساكناً لنصر يهود بني قينقاع عندما حاصرهم النبي ﷺ بعد معركة بدر وأجلاهم عن المدينة.

ويقـول المؤرخـون: إن سـبب وجـود يهود بني قينقاع داخل المدينة بعد أن كانوا مثل إخوانهـم بـني النضـير وقـريظة يسكنون في ضواحيها، هو أنه قبل الإسلام دارت معارك عديـدة بـين يهـود بني قينقاع وبني قريظة ألحق فيها بنو قريظة والنضير ببني قينقاع خسائر فادحـة اضـطروا عـلى أثـرها إلى الالـتجاء إلى داخـل المديـنة فأقـاموا وسـط حـي من أحيائها[٢].

---

(١) يروي المؤرخون العرب أن عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي قال لقومه بني بياضة: إن أباكم أنزلكم منزل سوء بين سبخة ومفازة، وإنه والله لا يمس رأسي غسل حتى أنزلكم منازل بني قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل، ثم أرسل لبني قريظة والنضير إنذاراً قال لهم فيه: إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم نسكنها وإما إن نقتل رهنكم (وكان لديه من هؤلاء اليهود أربعين غلاماً رهائن) فانزعج اليهود وخافوا خوفاً شديداً وهموا بترك منازلهم لقبائل الخزرج، إلا أن سيدهم كعب بن أسد زجرهم وحال بينهم وبين ذلك وطلب منهم الصمود وعلم حلفاؤهم (الأوس) فوقفوا إلى جانبهم ضد قبائل الخزرج، حتى إن رجالاً من الأوس نزلوا مع اليهود في حصونهم ليدافعوا معهم عنها إذا حاول الخزرج الاعتداء عليهم، وهكذا انتقل النزاع من نزاع ضيق بين اليهود والخزرج إلى نزاع رئيسي مسلح بين الأوس والخزرج، نشبت فيه معركة بعاث الشهيرة التي كان النصر فيها للأوس وحلفائهم من بني قريظة والنضير على الخزرج والتي كاد الأوس فيها يستأصلون شأفة إخوانهم الخزرج ويهدمون دورهم - داراً، داراً لولا أبو قيس بن أسلت - أحد قادة الأوس - الذي منع قومه من عملية الإبادة التي اعتزموا القيام بها ضد إخوانهم الخزرج بعد انهزامهم في تلك المعركة.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦.

حـال الـيهود بعـد فقد السلطان: وبالـرغم مـن الضربة الموجعة التي أنزلها الأوس والخـزرج بالـيهود قـبل الإسـلام، (والـتي انهدم على أثرها سلطانهم السياسي وتحطمت قوتهـم العسـكرية في يـثرب) فـإنهم ظلـوا في حالة تماسك في ظل وحدة عنصرية محورها الديانة اليهودية.

ومع أنهم قد فقدوا سلطانهم السياسي والعسكري فإنهم (في ظل الارتباطات القبلية الـتي ربطـوا أنفسـهم بهـا مـع رؤسـاء القـبائل القويـة المحاربـة) قـد وسـعوا من نفوذهم الاقتصـادي بـين قبائل العرب، حيث وجهوا كل نشاطهم إلى تضخيم ثرواتهم عن طريق تعـاطي الـربا الفـاحش والاتجـار في مختلف السـلع، واشتهروا بصنع الخمر وبيعه وجلبه أحياناً من بلاد الشام.

مركـز الـيهود المالي: وكان الأعراب يقصدونهم (دائماً): يبتاعون منهم ما يحتاجون ويقترضـون مـنهم بالـربا، وقـد اتسـعت ثـرواتهم حـتى صاروا ملوك المال، وعن طريق سـلطان المـال والـثروة، استعادوا شيئاً من نفوذهم الذي فقدوه، فصاروا بما لهم من تأثير اقتصـادي يـثيرون الفـتن والحروب بين القبائل الوثنية (وخاصة في منطقة يثرب) حتى لا تتم أية وحدة بين هذه القبائل لأن ذلك يهدد الكيان اليهودي بالخطر.

وظلـوا يوسِّعون مـن نفوذهـم الاقتصـادي ويشـترون زعماء القبائل العربية الوثنية بالمـال، وكـانوا يحـاولون بشـتى الوسـائل، اسـتعادة سلطانهم السياسي والعسكري الذي فقـدوه عـلى يـد الأوس والخـزرج، فصـاروا يسـتغلون الشـاحنات القبلية (وخاصة بين الأوس والخـزرج) فيشـعلون نيرانهـا بغـية إنهـاك قوة هاتين القبيلتين ليسهل على هؤلاء الـيهود اسـتعادة سـلطانهم إلا أنهـم لم يحققـوا أهدافهم، بل ظلوا (حتى ظهور الإسلام) تـابعين لـلأوس والخـزرج، تحتمي كل قبيلة من هؤلاء اليهود بقبيلة الأوس والخزرج عن طريق ارتباطات الأحلاف المعروفة في عهود الجاهلية.

وعـلى العمـوم فقـد بقي اليهود في يثرب - بالرغم من هزيمتهم العسكرية وانهدام سـلطانهم عـلى أيدي أوس اليمن وخزرجها - عنصراً قوياً من عناصر يثرب، وخاصة في المجـال المـالي والاقتصـادي، حيـث كـانوا يشـكلون أقوى عنصر في هذه الناحية حتى ظهور الإسلام.

فقد كان هؤلاء اليهود يعتمدون في تنمية ثرواتهم وتوطيد نفوذهم على إعطاء القروض الربوية (والربا من مميزات اليهود) التي كانت تدر عليهم أرباحًا طائلة تجعلهم الطبقة الغنية المتميزة بين الأعراب الذين لا يحسنون هذه التجارة الملعونة، ولم يقض على سلطان اليهود المالي القاهر إلا التشريعات الإسلامية التي حرّمت التعامل بالربا الذي كان العمود الفقري لاقتصاد اليهود وتجارتهم، ولهذا فقد كان تحريم التعامل بالربا ضربة قاصمة لظهور اليهود في يثرب وغيرها من بلاد العرب.

كما أن اليهود بالإضافة إلى تعاطي الربا (ركيزتهم الاقتصادية الأولى) كانوا يمتازون ببعض الصناعات المربحة كالصياغة، والنسيج، والحدادة التي كان العرب يأنفون منها ويعتبرونها من المهن الحقيرة، كما أنهم كانوا بالإضافة إلى ذلك كله نشطين إلى حد بعيد في المجالات التجارية الأخرى، فكانوا قبل الإسلام من أكثر اليثربيين نشاطاً في الاتجار بالبُرِّ والشعير والبلح، وكانوا مشهورين باحتكار الخمر وبيعها في الجاهلية، إذ كانوا يذهبون خصيصاً إلى الشام لجلب مختلف أنواع الخمر إلى يثرب بل إلى مختلف أقاليم الجزيرة فيدر عليهم بيع الخمر أرباحاً طائلة، وكانت لهم في المدينة (حتى نزول القرآن بتحريم الخمر) حانات يرتادها الكثيرون لتعاطي الخمر، فكان اليهود لذلك كله يحتكرون ثروات يثرب ويتحكمون فيها اقتصادياً، ولا ينكر أحد نفوذ المال وسلطانه القاهر.

اليهود في خيبر: مما لا جدال فيه أن منطقة خيبر (الواقعة شمال شرقي المدينة) تضاهي يثرب من حيث الوجود اليهودي وكثرة هذا العنصر الدخيل وسيطرته على تلك المنطقة الزراعية الخصبة، كما أنه مما لا جدال فيه أن هؤلاء اليهود كانوا قد استعمروا مقاطعة خيبر واستولوا عليها قبل ظهور الإسلام بعدة قرون.

إلا أنه لا يستطيع أحد (كذلك الجزم بصفة قاطعة) متى كان وصول اليهود إلى خيبر: هل هو قبل الميلاد أم بعده، فقد اختلفت المصادر بهذا الصدد.

فبينما يذكر ابن خلدون في تاريخه الكبير(العبر: المجلد الثاني، القسم الأول ص١٦٨) أن تاريخ الوجود اليهودي في خيبر هو نفس التاريخ الذي نزل فيه اليهود يثرب حيث يذكر أنهم من نفس الغزاة الذين جاءُوا إلى أرض الحجاز فأبادوا العمالقة في الحجاز ثم استقروا في خيبر كما استقر إخوانهم في يثرب، بعد أن منعهم بنو إسرائيل من دخول الشام بعد وفاة نبي الله موسى لإبقائهم على أسير واحد من العماليق لم يقتلوه وحلفوا أن لا يدخلوها، فعادوا على تعبيتهم إلى الحجاز وسكنوا منازل العمالقة الذين أبادوهم قبل الميلاد بأكثر من ألف سنة.

بينما يذكر ابن خلدون هذا نرى الدكتور جواد علي يذكر في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٧ أن يهود خيبر هم من نسل (ركاب المذكور في التوراة) هاجروا بعد خراب الهيكل الأول بعد الميلاد إلى الحجاز فاستقروا في خيبر.

وأيًا كان الأمر فإن المتفق عليه عند جميع المؤرخين أن اليهود في خيبر هم أجانب دخلاءُ استولوا على هذه المنطقة قبل ظهور الإسلام بعدة قرون فاشتغلوا بزراعة الحبوب والنخيل وكانوا محاربين أقوياءَ تمكّنوا من السيطرة على خيبر من أول عهدهم حتى سقطت في أيدي المسلمين بقيادة النبي ﷺ بعد أن اتخذها يهود بني النضير مركزاً للعدوان والتآمر ضد المسلمين، كما أشرنا إلى ذلك فيما مضى من هذا الكتاب، وكما هو مفصل في كتابنا غزوة (الأحزاب).

ولقد كان يهود خيبر على جانب كبير من القوة والمنعة، ولم يذكر التاريخ أنهم تعرضوا طيلة عهد استعمارهم لخيبر حتى ظهور الإسلام لأي غزو، كما لم يروِ التاريخ أنه حدثت فيما بينهم أية حروب أهلية كما هو شأن يهود يثرب وكانت خيبر مشهورة بالحصون والقلاع المنيعة التي أنشأها اليهود عندما كانت لهم السيطرة عليها وأشهرها سبعة حصون وهي حصن ناعم، وحصن القموص، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السلالم، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة، وقد استولى المسلمون على كل هذه الحصون عندما فتحوا خيبر في السنة التاسعة من الهجرة.

هذا هو كل ما يمكن قوله عن تاريخ اليهود في خيبر قبل الإسلام، وهو كما يرى القارئ تاريخ غير ذي بال إذا ما قورن بتاريخ اليهود في يثرب أو حتى تاريخ اليهود في اليمن أو تاريخهم في الشمال (منطقة تيماءَ) حيث السموأل بن عاديا الذي اشتهر ذكره قبل الإسلام وظل شائعاً إلى يومنا هذا.

فتاريخ اليهود في خيبر لم يكتب ويشتهر إلا بعد أن جاء الإسلام، وقد بدأ هذا التاريخ (وهو تاريخ أسود) بهجرة يهود بني النضير المنفيين من يثرب، وانتهى بنفي اليهود كلياً من جزيرة العرب في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما سيأتي تفصيله في كتابنا الخامس من سلسلة معارك الإسلام الفاصلة (غزوة خيبر) إن شاء الله.

اليهود في الشمال: أما المنطقة الثالثة التي تمركز فيها اليهود من جزيرة العرب، فهي نقاط محددة في الشمال الممتد من وادي القرى حتى مقاطعة تيماء في أقصى الشمال.

والمنطقتان اللتان اشتهرتا بتمركز اليهود فيهما هما وادي القرى وتيماء وهما بقعتان خصبتان بهما العيون والمياه.

فقد ذكر التاريخ أن هاتين البقعتين كان بهما جاليات يهودية قبل الإسلام، ولا يعرف بالضبط تاريخ وجود هذه الجاليات كما هو الحال بالنسبة لتاريخ الوجود اليهودي في يثرب وخيبر، وتاريخ اليهود في هاتين المنطقتين ليس بذي بال (سواء قبل الإسلام أو بعده) إذا ما قورن بتاريخ اليهود في يثرب وخيبر واليمن، وخاصة تاريخ يهود وادي القرى إذ لم يسجل التاريخ لهم أكثر من ذكر وجودهم في هذه المنطقة.

وكل ما ذكره التاريخ عن يهود وادي القرى (الواقعة منازلهم بين المدينة وخيبر) بعد الإسلام هو أن الرسول ﷺ لما عاد من المدينة بعد أن فتح الله عليه خيبر مرَّ بوادي القرى فدعا اليهود فيه إلى الإسلام فأبوا إلا الحرب، فقاتلهم يوماً واحداً فقط، شرعوا بعده في المفاوضة وطلبوا المصالحة، فصالحهم النبي ﷺ وأقامهم على أرضهم وأموالهم وذراريهم كما أقام أهل خيبر بعد فتحها [1]، فعاشوا في ظل الإسلام آمنين مطمئنين على أموالهم وأنفسهم أحراراً في دينهم.

يهود تيماء: أما تيماء (وهي تقع في أقصى الشمال الغربي من جزيرة العرب) فقد كانت من المواضع القديمة التي حلَّ بها اليهود قبل الإسلام، وتاريخ يهودها (أيضاً) خامل الذكر قبل الإسلام وبعده، إلاَّ أن تاريخهم في هذه المنطقة (قبل الإسلام) قد تردد ذكره أكثر من تاريخ يهود وادي القرى وغيره من النقاط المبعثرة شمالي المدينة.

وذلك بسبب الشاعر اليهودي الشهير (السَّمَوأل بن عاديا) صاحب الحصن المشهور والذي ردد الإخباريون ذكره في تاريخ ما قبل الإسلام، ونسبوا إليه الشعر الجزل والوفاء بالعهد إلى درجة ضحَّى معها بأحد أبنائه مقابل وفائه لامرئ القيس الكندي الذي أبى أن يخفر ذمته كما هو مفصل في أُمهات التاريخ وليس هذا محل تفصيله.

ولولا هذا اليهودي الشاعر (السموأل) لما احتفظ التاريخ ليهود تيماء قبل الإسلام بشيء يذكر.

---

(١) انظر فتوح البلدان للبلاذري ص ٤١.

أمـا تـاريخ يهـود تيماء بعد الإسلام، فليس فيه أكثر من أنهم كانوا مسالمين لم يثيروا حـرباً ضـد المسـلمين ولم يفكـروا في ذلـك، بـل بمجـرد سـقوط خيـبر في أيدي المسلمين وخضـوع أهـل وادي القرى لحكم الإسلام سنة تسع للهجرة سارعوا إلى الرضوخ لحكم الإسـلام فـأبلغوا الرسـول ﷺ ذلك فصالحهم وقبل المسلمون الجزية فعاشوا مطمئنين في ظل الدولة الإسلامية(١).

نقاط أخرى في الشمال: وهـناك جاليات يهودية صغيرة مبعثرة في الشمال الغربي، في تـبوك، ومقَـنْا وأيلة (٢) وغيرها، وعلى ساحل البحر الأحمر، كانت موجودة قبل الإسلام ولم يذكـر الـتاريخ شـيئاً عـن هذه الجاليات قبل الإسلام ذا بال، اللهم إلا ما ذكره بعض المفسـرين والإخباريين من أن يهود (أيلة) هم الذين اعتدوا في السبت كما جاء في القرآن الكريـم(٣).

في الطائف والبحرين: ويذكـر المؤرخون أيضاً أن هناك جاليات يهودية كانت موجودة في الطـائف والـبحرين عند ظهور الإسلام، فقد ذكر البلاذري في كتابه فتوح البلدان ص ٦٣ أنـه كـان في الطـائف يهـود طُـردُوا مـن يثرب واليمن، وأن النبي ﷺ لما فتح الطائف صـلحاً وأسـلم أهـلها مـن العـرب جمـيعاً بقـى الـيهود فيها على دينهم، بعد أن خضعوا للحكم الإسلامي بدفع الجزية.

فقد قال البلاذري في كتابه المذكور: «كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من الـيمن ويـثرب، فأقـاموا بهـا للتجارة، فوضعت عليهم الجزية، ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف».

اليهود في اليمن: أمـا الـيمن فقد كانت اليهودية فيها قبل الإسلام أقوى من أي مكان آخـر في جزيرة العرب من حيث الانتشار وقوة السلطان، إذ أصبحت في عهد من العهود دين الدولة الرسمي وذلك في عهد بعض ملوك الحميريين.

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٤٤٢.

(٢) أيلة (بفتح أوله وسكون ثانيه) قال البقاعي هي مدينة في (مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع): هي مدينة على ساحل بحر القلزم، قيل هي آخر الحجاز وأول الشام وهي مدينة اليهود الذين اعتدوا في السبت.. ويظهر أنها المدينة التي يسميها الصهاينة اليوم بمدينة (أيلات) وهي الواقعة اليوم في أقصى الطرف الشمالي لخليج العقبة والتي اغتصبها اليهود ضمن ما اغتصبوا من بلاد العرب، فقد كانت هذه المدينة تعتبر عند قدماء الجغرافيين ضمن الأراضي الحجازية كما أكد ذلك ياقوت في معجمه.

(٣) انظر (مراصد الإطلاع) ج١ ص ١٣٨.

ومـع أن المؤرخـين مجمعون على وجود اليهودية في اليمن قبل الإسلام، إلا أن أحداً منهم لم يذكر بصفة قاطعة متى اعتنق أهل اليمن الدين اليهودي وفي أي تاريخ على وجه التحديد.

غـير أن المؤرخـين والإخـباريين الإسـلاميين يكـادون يجمعـون على أن أول اتصال للـيهودية بالـيمن هـو في عهـد (تـبان أسـعد أبـي كـرب) تـبَّع اليمن الثالث الذي اعتنق اليهودية في يثرب ثم حملها إلى اليمن ودعا شعبه إليها فدانوا بها دونما إكراه [1].

ويـزعم بعض المؤرخين الغربيين أن اليمن قد عرفت اليهودية منذ أقدم العصور وفي عهـد نـبي الله سـليمان علـيه السـلام. ومـن هـؤلاء المـؤرخ المشـهور (ثـيودور لكـتور Theodorus) وهو من رجال النصف الأول للقرن السادس للميلاد.

فقد قال هذا المؤرخ: إن الحميريين كانوا في بادئ أمرهم على دين يهود، دخلوا فيه أيام ملكة سبأ المعروفة بقصتها مع الملك سليمان بدعوتها إياهم إلى هذا الدين [2]، وإذا صح قول هذا المؤرخ الغربي فإن أهل اليمن يكونون قد دانوا جميعهم بدين الله الحق لا دين اليهودية المحرّف، لأن ملكة سبأ إنما آمنت على يد سليمان وهو نبي، ودينه في الحقيقة (في جوهره) الإسلام، بدليل قوله تعالى في حق ملكة سبأ المؤمنة: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [3].

ومـع عـدم وجـود أي دليل كاف على دخول اليهودية إلى اليمن في عهد الملكة سبأ. فإنـه مـن المحتمل أن تكون الديانة الموسوية قد دخلت أرض اليمن بتأثير ملكة سبأ؛ وهذا ما لم يجزم به أحد من المؤرخين الإسلاميين ولكنه لا يستبعد حدوثه.

كـيف دخلت اليهودية اليمن: وعلى ما رواه الإخباريون الإسلاميون (كابن إسحاق والطبري) يمكن تقسيم الوجود اليهودي في اليمن قبل الإسلام إلى عهدين:

١- عهد السيطرة والسلطان. ٢- عهد الانكسار والتشريد.

أما عهد السيطرة والسلطان فيبدأُ باعتناق تبّع اليمن الثالث (وكان وثنياً) لليهودية في يثرب، وخلاصة ذلك أن هذا الملك الحميري قد اعتنق الديانة اليهودية في يثرب عندما مر بهـا في عودتـه إلى الـيمن مـن الشـمال وإيران، حيث خاض هناك حروباً وقام بفتوحات ليس هذا محل تفصيلها.

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣ وما بعدها.. الطبري ج ١ ص ٩٠١ وما بعدها.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٢٩.

(٣) النمل: ٤٤.

ويذكر الطبري وابن إسحاق أن تهوّد هذا الملك كان على يد حبرين من أحبار بني قريظة في المدينة، ففي قصة يطول شرحها جاء هذا الملك الحميري (تبع الثالث تبان أسعد أبي كرب) إلى يثرب يريد إهلاك أهلها من العرب لثأر له عندهم، فلما سمع حَبْران من أحبار بني قريظة بذلك جاء إلى الملك تبع فنصحاه بأن لا يفعل ما اعتزم من إهلاك أهل المدينة قائلين:

أيها الملك، لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها، ولم نأْمن عليك عاجل العقوبة، فقال: ولم ذلك؟.

فقالا: هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره، فتناهى عن ذلك ورأى أن لهما علماً، وأعجبه ما سمع منهما، فانصرف عن المدينة بعد أن اتبعهما على دينهما.

وكان قد بلغ أهل اليمن دخول ملكهم في الديانة اليهودية فاستاءوا لذلك أشدَّ الاستياء، ولذلك فإنه لما دنا من اليمن ليدخلها حالت قبائل حمير بينه وبين ذلك وقالوا: لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا. فأبلغهم بأن دينه الجديد خير من الوثنية التي هم عليها، وبعد مناقشات ومجالات بين الملك الحميري وزعماء شعبه - يطول شرحها- أقنعهم بوجهة نظره يسانده في ذلك الحبران اليهوديان اللذان اصطحبهما معه من يثرب إلى اليمن، فدخل شعبه بأجمعه في اليهودية، فصارت من يوم ذاك الدين الرسمي لأهل اليمن، فذلك هو بداية وسبب دخول اليهودية إلى اليمن، والله أعلم.

أما عهد انحسار اليهودية في اليمن وتشريد أتباعها فيبتدئ بانتهاء الملك ذو نواس (تبع اليمن الخامس) وآخر ملوك حمير وهو صاحب قصة الأخدود المذكورة في القرآن.

فقد روى المؤرخون أن تبع الخامس (ذو نواس) بلغه أن بنجران قوماً من النصارى فسار إليهم بجنوده، ثم دعاهم إلى اليهودية وترك دين عيسى بن مريم وخيَّرهم بين الدخول في اليهودية أو القتل، فاختاروا القتل على مفارقة دين عيسى عليه السلام، فاشتد غضبه فأمر بخدّ الأخدود لهم ثم ملأها بالنيران وأخذ يقذف بهم في نيران الأُخدود فقتل منهم بشراً كثيراً بلغوا قريباً من عشرين ألفاً.

وهذه الحادثة الفظيعة التي ارتكبها ذو نواس أشار القرآن الكريم إليها بقوله:

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [1].

---

(١) البروج آية: ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨.

ذهـــاب ملك التبابعة على أيدي الحبش: وعندما بلغ ملك الحبش ما حدث بإخوانه في النصـرانية عـلى يـد ملـك الحمـريين المـتهود (ذو نواس) جهز (بإشارة من قيصر الروم) جيشـاً كـبيراً بلغ عدده سبعين ألف مقاتل من الأحباش وأمر قائده بعبور البحر إلى اليمن لمحاربـة (ذو نـواس) فصـدع بالأمر، ولما التقى الجيشان انهزم ذو نواس وانتصر الأحباش بعـد أن قُتلَ ذو نواس حين اقتحم به فرسه البحر حتى غمره الماء، فاستولى القائد الحبشي عـلى الـيمن فكـان هـذا بدايـة نهايـة الـيهودية في الـيمن قـبل الإسلام، حيث نكَّل بهم الأحباش تنكيلاً شديداً فانخضدت شوكتهم وتقلص ظل اليهودية من اليمن، حيث هاجر أكثرهم منها، ولم يبق منهم فيها إلا الذليل المستضعف الذي نجا من القتل.

وبالـرغم من التنكيل الشديد والقتل الذريع الذي نزل بيهود اليمن قبل الإسلام بعد احـتلال الأحباش لها فقد بقيت جاليات يهودية ظلت تقطن اليمن عدة قرون حتى ظهور الإسـلام، وقد بقي العنصر اليهودي موجوداً في اليمن حتى أواسط القرن العشرين حيث هاجروا إلى إسرائيل على أثر الحوادث التي أدت إلى اغتصاب اليهود فلسطين.

ومـا تجـدر الإشـارة إليه أن يهود اليمن ليسوا إسرائيلي الجنس وإنما هم من العرب؛ لأن الـذي نقـل الـيهودية إلى اليمن هو ملك عربي حميري دعا قومه حِمْير إلى هذا الدين الـذي اعتـنقه عـلى أيـدي الحبرين اليهوديين في يثرب فاتبعوه ودانوا جميعاً باليهودية، ولم يثبـت الـتاريخ أن هـناك غـزاة إسرائيليين جاءُوا إلى اليمن بأعداد كبيرة، بل كل ما يرويه الـتاريخ العـربي أن الملـك تبّع الذي اعتنق اليهودية في يثرب لم يصطحب معه من اليهود الإسـرائيليين سـوى الحـبرين اللذيـن اعتـنق الـيهودية على أيديهما في يثرب، وعلى هذا فـيهود الـيمن لم يكونـوا يهوداً إسرائيليين على الإطلاق كما هو الحال في يثرب وإنما هم عـرب حميريون دانوا باليهودية، فهم يختلفون في الجنس عن يهود يثرب والمناطق الشمالية من الجزيرة.

ولا يستبعد أن هناك يهوداً إسرائيليين نزحوا من الشام إلى اليمن بعد أن تمركزت فيه الـيهودية عـلى أيـدي بعض تبابعتها الذين اعتنقوا هذا الدين فصار دين البلاد الرسمي، ولكـن أحـداً مـن المؤرخـين لم يشر إلى هذا، اللهم إلا ما أشار إليه الدكتور جواد على في كـتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) ج٦ ص ٢٤ حيث قال: «إني أرى أن دخول اليهودية

اليمن مردّه أيضاً إلى اتصال اليمن منذ عهد قديم بطرق القوافل التجارية والبحرية والبرية ببلاد الشام، وفي قصة سليمان وملكة سبأ إشارة إلى تلك الصلات وإلى هجرة جماعات من اليهود إلى هذا القطر عن طريق الحجاز بعوامل متعددة، منها التجارة، والهجرة إلى الخارج، ليس بسبب احتلال الرومان لفلسطين فقط، بل بسبب تنازع اليهود أنفسهم».

وليس هناك خلاف بين المؤرخين في أن اليهودية لم تقم لها أية قائمة في اليمن بعد مقتل تبع الخامس (ذو نواس) واستيلاء الأحباش على اليمن في أوائل القرن السادس لميلاد المسيح عليه السلام، ولهذا فإنه عند ظهور الإسلام لم يكن ليهود اليمن أي شأن يذكر كما هو الحال بالنسبة ليهود يثرب خصوصاً ويهود الشمال عموماً، وكل ما سجل التاريخ لهؤلاء اليهود في اليمن هو أنهم عندما أسلم حاكم اليمن الفارسي أعلنوا الطاعة ودفعوا الجزية للمسلمين كاعتراف بنظام الحكم الإسلامي الجديد.

اليهود في مكة: هذا هو موجز عن تاريخ الوجود اليهودي في جزيرة العرب قبل الإسلام، وهذه هي المواطن الرئيسية والثانوية التي كان اليهود يتمركزون فيها قبل الإسلام، ولم يصل إلى علمنا فيما رأينا من مصادر تاريخية أن هناك مواطن أُخرى في جزيرة العرب قد تمركز فيها اليهود كما تمركزوا في المواطن التي ذكرنا.

ويزعم بعض المستشرقين أن اليهود كانوا موجودين في مكة قبل الإسلام، ومن هؤلاء (ولفنسون)، غير أن هذا الزعم ليس له ما يسنده في أي مصدر من مصادر التاريخ، وخاصة التاريخ المتخصص كاتبوه في بحث التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده، فلو كان لليهود وجود في مكة قبل الإسلام وعند ظهوره لما أغفله الإخباريون الإسلاميون الذين تعتبر كتبهم أصح مصدر لتاريخ الوجود اليهودي في جزيرة العرب، لاسيما وأن اليهود كانوا أشد العناصر (غير الإسلامية) عداوة ومقاومة للإسلام، فلو كانوا موجودين في مكة قبل الإسلام لكان لهم دورهم البارز المشهور في مقاومة النبي ﷺ في مكة لاسيما وأن قريشاً كانت (عند ظهور الإسلام) صاحبة السلطة المطلقة، وكانت معارضتها للإسلام عند ظهوره في غاية الضراوة والعنف.

أثر اليهود في العرب: إن المتتبع لتاريخ الوجود اليهودي في جزيرة العرب يدرك بوضوح أنه بالرغم من مرور أكثر من سبعة عشر قرناً على وجود اليهودية (قبل الإسلام) في جزيرة العرب، لم يكن للديانة اليهودية أي أثر ذو بال بين الأعراب

الوثنيين الذين عايشوا اليهود طيلة تلك القرون الطويلة، وخاصة في منطقة يثرب وخيبر ومناطق الشمال الأُخرى التي كانت مركز الثقل ومناطق التجمع الرئيسية لليهود الإسرائيليين الدخلاء حتى ظهور الإسلام.

فلم يذكر التاريخ أن هناك (في خيبر ويثرب والشمال) قبيلة أو حتى عائلة عربية واحدة اتخذت من اليهودية ديناً لها[1].

ولو حدث شيء من هذا لأشار إليه الإخباريون الإسلاميون الذين عنوا بتاريخ أحداث الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده، كما أشاروا إلى تاريخ اليهود في جميع النواحي بهذه المناطق، بل إن التاريخ ليؤكد أن أعراب هذه المناطق (عموماً) ظلوا على وثنيتهم حتى جاءَ دين الإسلام فدخلوا فيه جميعاً.

وهذا لا يعني أن أحداً من الأعراب لم يدن باليهودية على الإطلاق في هذه المناطق، بل ذكر المؤرخون أن هناك أعراباً دانوا بذلك الدين إلا أنهم قليلون جداً بحيث لا يزيدون على اثنين في المائة من مجموع أعراب يثرب وخيبر والمناطق الشمالية التي كان اليهود مستقرين بها. ولهذا فإن اسم زعيم أية قبيلة عربية لم يبرز بين أسماء زعماءِ اليهود عند ذكر الأحداث المهمة التي تستوجب ذكرهم سواء قبل الإسلام أو بعده، اللهم إلا كعب بن الأشرف الطائي الذي برز ذكره كزعيم من زعماء اليهود، ومرد ذلك ليس إلى أن قبيلته العربية (قبيلة طيء) قد تهوّدت، وإنما لأن أمه يهودية تزوجها أبوه من بني النضير فنشأ يهودياً بحكم التربية فحسب.

ومما يدل على ضعف أثر اليهودية وعدم انتشارها بين أعراب تلك المناطق، هو أنه لم يكن من الأعراب الذين دانوا باليهودية أي أثر في تدعيم الكيان اليهودي ومناصرة اليهود، لا قبل الإسلام - عندما كان اليهود عرضة لحرب ضروس شنّها عليهم الأوس والخزرج بعد هجرتهم من مأرب - ولا بعد الإسلام عندما نشب الصراع المسلح وغير المسلح بين الإسلام واليهود.

ومردُّ ذلك على ما يظهر إلى أنانية اليهود حتى في مجال الدين، الأمر الذي أضعف الرغبة أو أعدمها بالمرة عند هؤلاء اليهود في نشر ديانتهم بين الوثنيين العرب.

---

(١) اللهم إلا ما حدث لبني حشنة بن عكارمة (وهم من بلى) الذين ألجأتهم الظروف إلى اعتناق اليهودية في تيماء، فقد ذكر البكري في معجمه ج١ ص ٢٩، أن نفراً منهم قتلوا عدداً من بني الربعة ثم فروا إلى تيماء وكانت معقل اليهود قبل الإسلام، فأبت يهود أن يدخلوهم حصونهم حتى يتهودوا ففعلوا اضطراراً.

والدليل على ذلك أن أيَّ مؤرخ من الذين أرّخو لجزيرة العرب لم يذكر أي نشاط دعائي قام به كهان اليهود وأحبارهم لنشر اليهودية بين الأعراب الوثنيين طيلة تلك القرون الطويلة كما يفعل القسيسين من النصارى، حيث كانوا (قبل الإسلام) يتنقلون بين الأعراب لنشر النصرانية كما حدث في منطقة نجران المكان الرئيسي للنصرانية في جزيرة العرب قبل الإسلام.

وعادةُ عدم التحمس لنشر اليهودية بين الآخرين لا تزال ملازمة لجميع الفئات اليهودية حتى هذه اللحظة كما هو مشاهد ملموس، وهذا يعضد ما ذهبنا إليه من أن اليهودية لم يكن لها أي أثر يذكر على العرب الذين عايشوا اليهود الدخلاء في بلادهم طيلة تلك القرون الطويلة، وخاصة في منطقة يثرب وخيبر والشمال.

أثر اليهودية في اليمن: وإذا كانت هناك أمة أو قبيلة عربية قد دانت باليهودية كالحميريين في اليمن، فإن ذلك ليس مرده إلى نشاط أحبار اليهود الواسع في مجال الدعاية لنشر اليهودية، وإنما مردُّه إلى أن تبّع اليمن الثالث (تبان أسعد) وهو وثني قد ألم بشيء من اليهودية في معرض النصح الذي تقدم به إليه الحبران من بني قريظة بأن لا يتعرض للمدينة بسوءٍ لأنها ستكون مقر نبي الإسلام المنتظر يوم ذلك محمد ﷺ فأعجبه ما سمع منهما فدان باليهودية ثم جعل من نفسه داعية لها، فذهب إلى اليمن ودعا الحميريين إلى اليهودية فدانوا بها[١].

ثم إنه يظهر من سياق المؤرخين لهذه الحادثة أن هذين الحبرين كانا على دين موسى الصحيح بدليل أنهما لم يخفيا ما أخفاه غيرهما من اليهود من أن نبياً عربياً سيظهر في مكة ويهاجر إلى المدينة التي لذلك حذرا (تبّع اليمن) التعرض لعقوبة الله إن هو خرّب المدينة كما كان قد قرر واعتزم، فحادثة انتشار اليهودية في اليمن حادثة فردية ليس لها مثيل في تاريخ انتشار اليهودية، وبدليل أن هذين الحبرين المؤمنين (كما يذكر ابن إسحاق) قد أيدهما الله بخوارق عندما ذهبا إلى اليمن مع الملك تبّع وناظرا الوثنيين فيها ودعياهم إلى دين التوحيد ونبذ الوثنية في قصة يطول شرحها[٢].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣.

فحادثة انتشار اليهودية في اليمن حادثة فردية (حدثت على أيدي حبرين لم يكونا منحرفين ولا محرفين كباقي أحبار اليهود الأنانيين)، حادثة فردية ليس لها مثيل في تاريخ انتشار اليهودية وخاصة بعد التحريف والتبديل الذي طرأ على التوراة على أيدي بعض الأحبار في عهود الانحراف.

يهود الجزيرة في نظر غيرهم من اليهود: أما نظرة اليهود الآخرين إلى يهود الجزيرة، فقد كانت نظرة عدم رضا بل كانوا ينظرون إلى يهود الجزيرة العربية كفئة منحرفة ضالة، فقد جاء في تاريخ العرب قبل الإسلام ج٦ ص ٨ (نقلاً عن ولفنسون في كتابه: تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٣): أن يهود جزيرة العرب كانوا في معزل عن بقية أبناء دينهم وانفصال، وأن اليهود الآخرين لم يكونوا يرون أن يهود العربية مثلهم في العقيدة، بل رأوا أنهم لم يكونوا يهوداً، لأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية، ولم يخضعوا لأحكام التلمود، ولهذا لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء في أخبار المؤلفين العبرانيين.

العرب والثقافة اليهودية: لم يرو التاريخ (مطلقاً) شيئاً عن تأثر العرب بالثقافة اليهودية في المناطق التي سيطر عليها اليهود من الجزيرة بالرغم من أنهم كانوا يسيطرون على بعض المناطق (كيثرب وخيبر والشمال) سيطرة تامة عدة قرون طويلة.

بل إن الذي حدث هو العكس وهو أن اليهود، هم الذين تأثروا بالثقافة العربية وتخلو (على مر العصور) عن كثير من خصائصهم الانفرادية التي كانوا يمتازون بها ويحملون أنفسهم على المحافظة عليها محافظةً شديدةً في أي زمن أو مكان كانوا.

فقد صهرتهم الثقافة العربية بدلاً من أن تصهر ثقافتهم العرب وخاصة في مجال اللغة والشعر والأدب، وحتى الأسماء ـ أسماء البطون والقبائل بل والأفراد، لم يقو اليهود على الاحتفاظ بطابعها العبراني الإسرائيلي كما هي طبيعتهم في أي بلد أجنبي يسكنونه حتى الآن.

فأكثر أسماء الأفراد والبطون والقبائل اليهودية في جزيرة العرب (وخاصة في يثرب وخيبر والشمال) هي أسماء عربية صرفة، إذ لم يبق بين الفخائذ اليهودية في جزيرة العرب فخيذة واحدة يحمل اسمها الطابع الإسرائيلي ما عدا اسم واحد وهو اسم (زاعوراء) في يثرب كما تقدم عند ذكر أسماء القبائل اليهودية في يثرب.

أما الأسماء، فيكفي للدلالة على صحة ما نقول هو أنه حتى أسماء أحبار اليهود وزعمائهم لم تستطع الاحتفاظ بملامحها العبرانية، فكل أسماء هؤلاء الأحبار والزعماء تحمل الطابع العربي الصرف مثل: كعب بن أسد، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع،

وسلاّم بن مشكم، وسلاّم بن أبي الحقَيق، وأبي عامر الراهب، وعبد الله بن صيفي، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، والزبير بن باطا. وكل هؤلاء يهود إسرائيليون، لم يقل أحد من المؤرخين أنهم عرب تهودوا، ولو كانوا كذلك لأوضحه المؤرخون كما فعلوا عندما أكدوا عروبة كعب بن الأشرف اليهودي وأنه من قبيلة طي العربية.

وهذا يعني بالتأكد، أن اليهود الإسرائيليين هم الذين تأثروا بالثقافة العربية، حيث طغت هذه الثقافة في جميع المجالات على الثقافة اليهودية، حتى اللغة صارت (بالنسبة لهؤلاء اليهود) هي اللغة الرئيسية، لغة التخاطب لا فيما بينهم وبين العرب، بل فيما بين اليهود أنفسهم، أمّا اللغة العبرانية فقد استحالت إلى لغة ثانوية حيث حصرت في نطاق ضيق وهو نطاق دينهم فحسب، لا يجيدها غير كهّانهم وأحبارهم، أما عامتهم فما كانوا يعرفون غير العربية، فلم يرد في شيء من كتب التاريخ أنهم كانوا يتحادثون باللغة العبرية ولو كانوا كذلك لذكره المؤرخون.

الشعراء اليهود: وبحكم صهر الثقافة العربية لهؤلاء اليهود وطغيانها على ثقافتهم طيلة قرون عديدة نسوا كيانهم الثقافي وأصبحوا (وهذا خاص برهبانهم فقط) لا يجيدون من الثقافة اليهودية غير لغة الدين، فأصبح طابعهم في مجال الفكر والشعر (مثلاً) لا يختلف عن الطابع العربي.

وبحكم البيئة العربية ابتلعهم خضم ثقافتها، نبغ بين هؤلاء اليهود شعراءُ مجيدون لا يختلفون في طابعهم العربي وجزالة إنتاجهم الشعري عن كبار فحول الشعراء العرب الأصليين.

السموأل بن عاديا: ومن أبرز هؤلاء الشعراء اليهود السّمَوْأَل بن عاديا الذي سارت بشعره الركبان، وهو من يهود تيماءَ في الشمال، وهو صاحب الحصن الأبلق والمشهور بالوفاء، ومن شعره تلك القصيدة اللامية المشهورة التي صار كثير من أبياتها أمثالاً تضرب:

إذا المرءُ لم يدنس من اللوم عرضه ... فكل رداءٍ يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمَها ... فليس إلى حُسْن الثناء سبيل

ومنها:

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلتُ لها إن الكرام قليل
وما ضرّنا أنا قليل وجارنا ... عزيزٌ وجار الأكثرين ذليل

ومن شعر السّمَوأل الجزل أيضاً قوله:

أعـــاذلتي ألا لا تعذلـــيني ... فكـم مـن أمـرِ عاذلـةٍ عصيت
دعـيني وارشُـدي إن كنـتُ أغـوى ... ولا تَغْـوِى زَعَمْـت كمـا غويـت
أعـاذل قـد أطلْـت اللـومَ حـتى ... لـو أنّـي منـته لقـد انتهيـتُ
وحـتى لـو يكـونُ فـتى أنـاسٍ ... بكـى مـن عَـدل عاذلـة بكيـتُ
وصـفراءُ المعاصـم قـد دعـتني ... إلى وَصْـل فقلـتُ لهـا أبيـت (١)

وللسموأل شعر جزل آخر ليس هذا محل تفصيله فليطلبه في مظانه من يريده.

أخو السموأل سعية: وللسموأل أيضاً أخ شاعر مُجيد وهو سعية بن عُريض بن عاديا، فمن شعره الجيد قوله:

يـا دارَ سُـعدَى بمفضـى تِلْعةً النَّعَم ... حبيـتِ داراً عـلى الإقـواءِ والقِـدَم
عُجـنَا فمـا كلمتـنا الدار إذ سُئلت ... ومـا بهـا عـن جـواب خلْتُ من صَمَم
ومـا بجـزْعِك إلا الوَحـش ساكنةٌ ... وهـامدٌ مـن رمـاد القـدر والحمَـم

ومن روائع شعر هذا اليهودي سعيةُ بنُ عُريض قوله:

إنـا إذا مالـت دواعـي الهَـوى ... وأنصـت السـامع للقـائل
واصـطرع القـومُ بألـبابهم ... نَقضـي بحكـيم عـادل فاصـل
لا نجعـلُ الـباطلَ حقًّـا ولا ... نَلـظ دونَ الحـق بالـباطل
نخـاف أن تُسْـفَهَ أحلامُـنا ... فَـنَخمَل الدهـرُ مـع الخـامل

وسعية بن عريض أخو السموأل هو القائل

أرى الخـلان لمّـا قـلَّ مـالي ... وأجحفـت النوائـبُ ودّعـوني
فـلما أن غَنيـتُ وعـادَ مـالي ... أراهـم لا أبـا لَـك راجعـوني (٢)

أوس بن دنن القرظي: ومن شعراء اليهود الجيدين في يثرب أوس بن دنن، وهو من بني قريظة، فمن شعره قوله:

عزيـزة صـعبُ وطـلاب وصـل ... أنـّى تـذكـر زينـب القـلب
مـا روضـةٌ جـاد الرَّبـيعُ لهـا ... مُوَشـيةٌ مـا حولهـا جَـدْبُ
بـألذَّ مـنها إذ تقـول لـنا ... سـيراً قلـيلاً يُلْحـقُ الرَّكْـبُ

---

(١) الأغاني ١٩ ص ٢٠١.

(٢) الأغاني ج ١٩ ص ٢٠٨.

ومن شعره الذي قاله عندما دعته زوجته التي أسلمت إلى الإسلام قوله:

دعتني إلى الإسلام يومَ لقيتُها ... فقلت لها: لا، بل تعالي هَوِّدي
فنحن على توراة موسى ودينه ... ونعمَ لَعَمْري الدينُ دينُ محمد
كلانا يرى أن الرسالة دينُه ... ومن يهْد أبوابَ المراشد يَرشَد [1]

أبو الزناد اليهودي: ومن شعراء اليهود اليثربيين أبو الزناد، الذي من شعره قوله:

هل تعرف الدار خفّ ساكنُها ... بالحجْر فالمستوى إلى ثمد
دار لبهانةٍ خَدَلجة ... تضحك عن مثل جامد البرَد
يا من لقلبٍ متيم سَدم ... عانٍ رهينٍ أُحيطَ بالفَقَد
أزجُره وهو غيرُ مزدجرٍ ... عنها وطرفي مَقارِنُ السُّهَدِ
تمشي الهوينا إذا كما مشت فضلاً ... مشيَ النزيفِ المبهورِ في صعَدِ

سارة القرظية: ومن نساء اليهود الشاعرات المُجيدات سارَّة القرظية لها شعر جزل منه قولها ترثي قومها بني قريظة بعد أن أوقع بهم الملك الغساني أبو جبيلة الذي سبق ذكره:

بنفسي أمّة لم تُغْنَ شيئاً ... بذي حُرَضٍ تُعفِّيها الرياحُ
كهولٌ من قُريظةَ أتلفتْها ... سيوفُ الخَزرجيةِ والرماحُ
رُزِئْنا والرزيّةُ ذاتُ ثُقْل ... يُمَرُّ لأهلها الماءُ القُراحُ
ولو أربوا بأمرِهمُ لحالت ... هنالك دونهم جأوَى رَداحُ

وفي اليهود شعراء مُجيدُون آخرون ذكرهم الجُمَحي في طبقات الشعراء، وأبو حيّان في الصَّداقة والصَّديق. والبحتري في الحماسة منهم الربيع بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وشُريح ابن عُمران، وأبو قيس بن رفاعة. وأبو الذيال، ودرهم بن زيد، وقد أضربنا عن إيراد نماذجَ من أشعارِهم هنا لضيق المجال إذ المقصود البرهنة (فحسب) على تأثر اليهودِ بالثقافة العربية إلى حد الانصهار ونسيان كيانهم الثقافي.

---

(١) الأغاني ج ١٩ ص ٢٠٠.

الفصل الثاني

- موجز تاريخ اليهود بعد الإسلام في جزيرة العرب.
- موقفهم من الإسلام عند ظهوره.
- مراحل الصراع الحربي السياسي بين المسلمين واليهود في الجزيرة.

اليهود بعد الإسلام: عندما جاء النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة، كان اليهود قد استعادوا جانباً كبيراً من سيطرتهم المادية ونفوذهم السياسي الذي كانوا يعتمدون لاستعادته على تفرّق قبائل الأوس والخزرج وكثرة الحروب الأهلية الطاحنة التي اشتهر بخوضها الأوس والخزرج (قروناً طويلة) دون سائر العرب.

فقد كان هؤلاء اليهود.. منذ انهدم سلطانهم السياسي وتحطمت قوتهم العسكرية على أيدي الأوس والخزرج أيام مالك بن العجلان في أوائل القرن الميلادي - يعملون، بما يجيدون من وسائل المكر والدس، لبسط نفوذهم من جديد على منطقة يثرب، ليصبحوا سادتها كما كانوا قبل وصول القبائل اليمنية (الأوس والخزرج) من مأرب إلى المدينة. إلا أنه مما حمى الله به يثرب من هذه السيطرة أن انقسم هؤلاء اليهود على أنفسهم وصاروا يقاتلون بعضهم بعضاً.

ولما ظهر النبي ﷺ ودعا إلى الإسلام شَرِقَ اليهود بهذا الدين فناصبوه العداء لأنهم يرون في انتشاره تحطيماً لآمالهم التوسعية وتقليصاً لظل سلطانهم السياسي والمالي الذي بدأ يلف بجناحيه المنطقة اليثربية من جديد.

لذلك صاروا (منذ اللحظة الأولى) يقاومون هذا الدين وينشرون ظلالاً من الشكوك حول صدق دعوة حامله محمد ﷺ بالرغم من أن ظهور النبي ﷺ لم يكن مفاجأة لهؤلاء اليهود (وخاصة أحبارهم وكبار مثقفيهم).

فقد كان هؤلاء اليهود يعلمون - مما عندهم في التوراة - أن الله تعالى سيبعث نبياً من العرب في ناحية مكة، وكانوا - قبل ظهور الإسلام - يلقنون صبيانهم في المدارس والمعابد خبر هذا النبي المنتظر الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة.

بل إن هؤلاء اليهود كانوا - إلى ما قبل ظهور النبي ﷺ - يجاهرون سكان المدينة، بل وينذرونهم - وخاصة إذا ما نالوهم بأذى - بأن نبياً سيبعث قريباً، وأنهم سيكونون معه، وسينتقمون منهم، وسيأخذون ثاراتهم عن طريق الإيمان به واتِّباعه.

ولكن هؤلاء اليهود - عندما ظهر النبي ﷺ - بدلاً من أن يؤمنوا به وقد عرفوا أنه النبي الذي كانوا يبشرون به - صاروا من أعدائه وأشد المقاومين لدعوته والمكذّبين بها بغياً وحسداً، فشقوا وسعد غيرهم من أهل المدينة ممن كانوا يسمعون تكرار تبشيرهم بقرب خروج هذا النبي الكريم.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى وهداه لنا، لّما كنا نسمع من رجال يهود، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور.

فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم.

فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه، حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾.

حديث اليهود عن نبوة محمد ﷺ: وذكر ابن إسحاق بسنده عن سلمة بن سلامة بن وقش (وكان من أصحاب بدر)، قال: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل - قال سلمة - وأنا يومئذ من أحدث من فيهم سنًّا، على بُرْدة لي مضطجع فيها بفناء أهلي - فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، قال: فقال: ذاك لقوم أهل شرك وأصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت.

فقالوا له: ويحك يا فلان، أو ترى هذا كائناً، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يحْلَفُ به، ولَوَدَّ أن له بحظّه من تلك النار أعظم تَنّور في الدار يحمونه ثم يدخلونه فيطينونه عليه، بأن ينجو من تلك النار غداً.

فقالوا له: ويحك يا فلان، فما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده إلى مكة واليمن، فقالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إليّ - وأنا من أحدثهم سناً - فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: فوالله، ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً رسول ﷺ وهو (أي الحَبْر اليهودي) حيٌّ بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً، قال: فقلنا له: ويحك يا فلان ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، ولكنه ليس به - أي ليس هو.

ولكن هؤلاء اليهود إذا كان الحسد والجحود والبغي قد قاد أكثرهم إلى أن ينكروا الحق الذي كانوا يعرفونه - وقد كانت أمانة العلم تقضي عليهم بأن يعلنوا هذا الحق ويكونوا من أنصاره - فإن رجالاً منهم قد أنار الله بصائرهم فسارعوا إلى إتباع الحق الذي جاء به محمد ﷺ وكانت هذه المسارعة من هؤلاء النفر حصيلة ما كانوا يسمعون من علمائهم عن قرب هذا النبي الكريم، وما كانوا يحفظون من الصفات التي كان يصفه بها أولئك العلماء والتي وجدوها تنطبق عليه كما وصفوه تماماً عندما بعثه الله تعالى.

ولنستمع إلى أحد هؤلاء اليهود الذين منّ الله عليهم فأسلموا «نتيجة ما كانوا يسمعون من أحبارهم من دعوة إلى إتباع النبي محمد ﷺ، قبل أن يبعثه الله».

وهذا اليهودي (سابقاً) هو أحد شيوخ بني قريظة فقد حدَّث عاصم بن عمر بن قتادة قائلاً له (كما رواه ابن إسحاق): أتدري عمّ كان إسلام ثعلبة بن سعية وأُسيد بن سعْية وأسد بن عبيد [(١)] - نفر من بني بهدل إخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليتهم ثم كانوا سادتهم في الإسلام - قال: قلت: لا والله، قال: فإن رجلاً من يهود أهل الشام، يقال له: ابن الهيبان، قَدِم علينا قبيل الإسلام بسنين، فحلَّ بين أظهرنا، لا والله ما رأينا قط رجلاً لا يُصلي الخمس أفضل منه.

فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنّا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا، فيقول: لا والله، حتى تقدموا بين يدي مَخْرجكم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر، أو مُدَّين من شعير قال: فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرَّتنا فيستسقى الله لنا، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونُسْقَى، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث.

قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميّت قال: يا معشر يهود! ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: إنك أعلم.

---

(١) سيأتي تفصيل قصة إسلام هؤلاء الفتيان من اليهود عند ذكر محاصرة النبي صلى الله عليه وسلم ليهود بني قريظة في هذا الكتاب.

قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكَّفُ (أي انتظر) خروج نبي قد أظل (أي أشرف وقرب) زمانه، وهذه البلدة (أي المدينة) مُهَاجَره فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه، وقد أظلّكم زمانه، فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه.

فلما بُعِثَ رسول الله ﷺ وحاصر بني قريظة، قال هؤلاء الفتية وكانوا شباباً أحداثًا: يا بني قريظة، والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان، قالوا: ليس به، وقالوا (أي الشباب): بلى والله، إنه هو بصفته، فنزلوا وأسلموا وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

وهكذا فإن اليهود بالرغم من استيقانهم أن محمداً ﷺ نبي مرسل، قد شَرِقُوا بالإسلام وصمموا - منذ اللحظة الأُولى - على مقاومته والعمل على شَلّ حركته حسداً وبغياً.

وأنا أُخالف أُولئك الرجال من كتَّابنا الذين يقولون في بعض مؤلفاتهم إن اليهود رحبوا بالنبي ﷺ وأحسنوا استقباله وألقوا إليه بالمودة وتقربوا منه باعتباره عدواً للوثنية وحاملاً لدينٍ هو ودين موسى من معين واحد.

فهذا الزعم ليس له في مصادر التاريخ أي شيء يُسندُه، فلم يثبت أن هؤلاء اليهود قاموا نحو النبي ﷺ منذ وصوله المدينة، بأي شيء يمكن تسميته حفاوة أو مودة أو تكريماً.

بل الثابت في أسفار التاريخ (بالسند الصحيح) أن هؤلاء اليهود قد نزل بهم من الغم - لوصول النبي محمد ﷺ إلى يثرب - أمر عظيم كادت له أن تذهب نفوسهم فقد قابلوا نزول النبي أرض المدينة بالامتعاض الشديد وأعلنوا كرههم له وانطووا على بغضه وأضمروا الكيد له ولدينه منذ اللحظة الأولى التي حلَّ فيها بين الأنصار في المدينة.

كيف جحد اليهود الحق بعد معرفته: فهذان حبران من أكبر أحبار اليهود في المدينة، ومن الذين كان المفروض فيهم أن يستبشروا بقدوم النبي ﷺ ويقابلوه بالترحاب ويعلنوا الإيمان بدعوته لتأكدهم من أنه هو النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، هذان الحَبْران وهما حُيَيّ بن أخطب - الذي حشّد الأحزاب فيما بعد، وقاد أكثر من عشرة آلاف مقاتل من مختلف قبائل العرب لإبادة المسلمين في المدينة - وأخوه ياسر قد عصفت بقلبيهما رياح الحسد وحملا للنبي ﷺ - فور وصوله المدينة - من الحقد والبغض ما لا يستطيع حمله إلا قلب مثل قلبيهما الخبيثين. لاسيما بعد أن تأكدا لدى مقابلتهما محمداً أن أوصاف النبي الموعود التي يجدونها عندهم في كتبهم تنطبق عليه تماماً.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: حُدِّثْتُ عن صفية بنت حُيَيّ بن أخطب أنها قالت: كنت أحبُّ ولد أبي إليه وإلى عمي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباءَ في بني عمرو بن عوف. غدا عليه أبي حييّ بن أخطب وعمي ياسر بن أخطب مُغلسَين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد مِنهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي ياسر يقول لأبي حيي بن أخطب:

أهو، هو؟ (يعني النبي - ﷺ)

قال: نعم والله.

قال: أتعرفه وتثبته؟

قال: نعم.

قال: فما في نفسك منه؟

قال: عداوته ما بقيت أهـ.

وفعلاً فإن هذا اليهودي الخبيث ظل (وهو سيد بني النضير في عصره) العدو اللدود رقم واحد للنبي ﷺ ودينه، ظل طيلة حياته يحيك المؤامرات والدسائس ضد النبي ﷺ، ويعمل جاهداً للقضاء عليه.

فعندما كان يقيم في المدينة دبر (بالاتفاق مع قومه) مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ فكان اكتشاف هذه المؤامرة قبل وقوعها من أكبر أسباب إجلاء يهودي بني النضير عن المدينة.

وما غزوة الأحزاب التي كاد كيان الإسلام أن يُهْدَمَ بسببها إلا نتيجة لمساعي هذا اليهودي الشريرة، ومن على شاكلته من زعماء اليهود الذين تفرقوا وفوداً يطوفون بمضارب البدو، وخيامهم في مختلف القبائل يحشدون الجيوش لسحق المسلمين في عاصمة دولتهم المدينة، هذه المساعي التي نتجت عنها غزوة الأحزاب المفزعة المرعبة التي انتهت (ولله الحمد) باندحار الأحزاب، ودفع حيي بن أخطب هذا رأسه ثمناً لخيانته، حيث نفذ فيه حكم الإعدام في المدينة مع تسعمائة مقاتل من خونة بني قريظة كما سنفصله فيما يلي من هذا الكتاب إن شاء الله.

بدء المقاومة اليهودية للإسلام: لقد بدأ اليهود ـ منذ اللحظة الأولى التي حل فيها النبي بالمدينة ـ يقاومون الإسلام ويرجفون ضده ويحاولون نشر ظلال من الشكوك حوله لينفر الناس منه ويبتعدوا عن حامل رسالته.

وكانت هذه المقاومة (بادئ الأمر) على شكل أسئلة محرجة يتقدمون بها إلى النبي ﷺ يتعنتونه بها ليوجدوا عن طريقها نوعاً من اللبس والغموض حول صدق النبي ﷺ في ما يدعو إليه، بغية تشكيك الناس فيه فلا يستجيبون له: بل ولا يستمعون إليه.

بل إن هؤلاء اليهود بلغ بهم الكيد للإسلام والحرص على وقف تيار دعوته أن رسموا مخططاً محكماً لمقاومته وفضّ الناس من حوله، وبموجب هذا المخطط اليهودي دخل البعض منهم في الإسلام (ظاهراً) وهو على كفره في الباطن وذلك ليتسنى لهم أن يعملوا (بحرية) على إخراج من يقدرون على إخراجه من الإسلام، ثم تطورت هذه المقاومة آخر الأمر إلى محاولة اغتيال رأس الدعوة الإسلامية محمد ﷺ، ومقاومتها بحد السلاح كما حدث من بني قينقاع بعد معركة بدر، وبني النضير بعد معركة أُحُد.

نموذج من تشكيك اليهود وتلبيسهم: لقد كان اليهود (أول الأمر) يستغلون (كجزء من مقاومتهم) حوادث معيّنة لتشكيك الناس في نبوة محمد ﷺ.

ضلّت (مرة) ناقة رسول الله ﷺ فذهب بعض الصحابة للبحث عنها فقال زيد بن اللّصيت (وهو يهودي تظاهر بالإسلام) ساخراً من النبي ﷺ ومن نبوته: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، يريد بذلك تصديع مراكز اليقين في نفوس الذين آمنوا بالله ورسوله.

ولما بلغ النبي ﷺ ما قال هذا اليهودي، قال: إن قائلاً قال: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، ولا يدري أين ناقته؟ إني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها [1]، فهي في هذا الشّعب، قد حبستها شجرة بزمامها فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال الرسول ﷺ وكما وصف، فجاءت نتيجة سخرية هذا اليهودي (المتظاهر بالإسلام) عكس ما يريد إذ ازداد الناس إيماناً بصدق نبيهم ﷺ.

---

(١) انظر إلى أي مدى بلغ الأدب النبوي الرفيع في مناظرة هؤلاء المرجفين الضالين أنه صلى الله عليه وسلم لم يزمجر ولم يخرج عن حدود الوقار والاعتدال عند سماع هذا الطعن الصريح في صدق نبوته من هذا اليهودي الخبيث المتستر بالإسلام ولم يأمر باعتقاله أو سجنه بل لم يذكر اسمه حيث قال صلى الله عليه وسلم لدفع ذلك الطعن إن قائلاً قال: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء.. الخ، ألا ما أعظم هذا الخلق النبوي الرفيع والأدب الذي دونه كل أدب وصدق الله العظيم إذ يقول في حق هذا النبي الكريم: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ فإلى الشباب المسلم نسوق أمثال هذه الروائع من الأدب النبوي لتكون لهم نبراساً في هذه الحياة يسيرون على هديه.

اليهود وصرف القبلة عن الشام: وعندما صُرِفَت القبلة عن الشام إلى مكة، استغلّ اليهود هذا الحادث وقاموا بمناورات خبيثة هدفها زعزعة إيمان الناس بالدين الجديد، بل ومحاولة فتنة النبي ﷺ نفسه ليعصى أمر ربه.

فقد جاءه نفر من زعمائهم «رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو بن الأشرف، وكنانة بن الربيع وغيرهم» وقالوا: يا محمد، ما ولاّك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على مِلّة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك، وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه، فلم يستجب لهم النبي ﷺ ففسدت مناورتهم الخبيثة ثم أنزل الله تعالى في هذه الحادثة.

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ الآيات إلى آخر قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

ولقد كان هؤلاء اليهود (في إرهاقهم النبي ﷺ وإعناته بالأسئلة وإثارة الشُّبه) على غايةٍ من المكر واغتنام الفرص التي يظنون أنها تشدّ من باطلهم.

حاولوا (مرة) أن ينتزعوا من النبي ﷺ ـ على حين غفلة ـ شهادة بأنهم على الحق بنص القرآن، فتقدموا إليه ﷺ بهذا السؤال فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟.

قال: بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تبيِّنوه للناس، فبرئت من إحداثكم، فقالوا (والمغالطة تقودهم): فإنّا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولا نتبعك، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1]

وكانت تبلغ بهؤلاء اليهود القحة (أحياناً) إلى أن يكْذبوا على النبي ﷺ صراحة لينفروا الناس عنه وعن دينه.

---

(١) المائدة: ٦٨.

فقد عقد ﷺ مجلساً حضره أحبار من يهود المدينة ونصارى نجران، ولما دعاهم إلى الإسلام قال أحد زعماء اليهود (مفترياً): أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ وهنا تحرك أحد رهبان نجران واتجه بالسؤال إلى النبي ﷺ قائلاً: أو ذاك تريد منّا يا محمد وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال النبي ﷺ: معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره، فما بذلك بعثني الله، ولا أمرني، أو كما قال.

وفي تعنتهم بالأسئلة سألوه ﷺ حتى عن الساعة التي لا يعلمها إلا الله بغية تشكيك الناس في صدق دعوته، فقد سأله جبل بن أبي قشير وشمويل بن زيد قائلين: يا محمد أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبياً كما تقول؟ فأجاب القرآن على هذا السؤال المحرج حيث أنزل الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾[1].

وكثرت مناظرات هؤلاء اليهود للنبي ﷺ التي يقصدون (عبثاً) إفحامه لينفض الناس من حوله، فبلغ بهم السفه إلى أن يطلبوا من النبي ﷺ ما ليس في مقدوره ليوهموا الناس أنه ليس بنبي.

فقد حضرت (مرة) مجموعة من أحبارهم لمناظرة النبي ﷺ فقالوا: أحق يا محمد أن هذا الذي جئت به لحق من عند الله، فإنا لا نراه متسقاً كما تتسق التوراة؟.

فقال لهم: أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فغيّروا مجرى الحديث وسألوه (في سخرية): أما يعلمك هذا إنسٌ ولا جنّ؟ فقال لهم: أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله، وإني لرسول الله تجدون ذلك مكتوباً عندكم في التوراة، فغيروا مجرى الحديث مرة أخرى (للإعنات فحسب) فقالوا: يا محمد، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه على ما أراد، فأنزل علينا كتاباً من السماء نقرؤه ونعرفه وإلاّ جئناك بمثل ما تأتي به، فأخرسهم الله حيث أنزل على نبيه ﷺ قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2]. واجتمع بهم الرسول ﷺ في معهد من معاهد علمهم (يقال له بيت المدراس) فدعاهم إلى الله، فقال له حبران من أحبارهم: على أي دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم ودينه، فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً فقال لهم ﷺ: فهلمّ إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه.

---

(١) الأعراف: ١٨٦.

(٢) الإسراء: ٨٨.

فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾(١).

تعنت اليهود وحلم النبي ﷺ عليهم: وقد اشتط اليهود في حربهم الجدلية مع الرسول ﷺ وتمادوا في تعنتهم، وبالغوا في إيذاء الرسول ﷺ نفسياً، إلى درجة أثاروا معها غضبه، فثاورهم وباطشهم من شدة الغضب لله تعالى، لشدة وقاحتهم واستفزازاتهم بالأسئلة الوقحة المحرجة التي لا تعني شيئاً سوى الإعنات والتنكيد والتأثير على نفوس البسطاء وتشكيكهم ليبتعدوا عن النبي ﷺ ويزهدوا في دعوته.

أتاه مرةً رهط من هؤلاء اليهود، فقالوا له: يا محمد! هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله ﷺ حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربه، قال ابن إسحاق: فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، فقال: خفض عليك يا محمد، ثم نزل الجواب على هذا السؤال الخطير المحرج من السماء ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾(٢).

فلما تلا عليهم هذا الجواب المسكت الذي نزل به القرآن، سدروا في تعنهم وأوغلوا في عبثهم واستهتارهم، صف لنا يا محمد، كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب الرسول ﷺ أشد من غضبه الأول وساورهم (أي باطشهم من شدة الغضب) فأتاه جبريل فقال له مثل ما قال له أول مرة ثم تلا عليه الجواب المسكت على السؤال المعنت فتلاه ﷺ وهو قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٣).

اليهود يسبون الله: وقد بلغ باليهود الحقد المقود بالكفر إلى أن يسبّوا الله تعالى ويسخروا من القرآن الكريم، فقد جاء مرة أبو بكر الصديق إلى بيت المدْراس (أحد معاهد اليهود الدينية في المدينة، فوجد فيه عدة من علمائهم يلقون الدروس على أبناء ملتهم، وكان بينهم حبر كبير يعرفه أبو بكر الصديق اسمه (فنحاص) فقال له أبو بكر (يدعوه إلى الله في رفق ولين): ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله، إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله، قد جاءكم من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل.

---

(١) آل عمران: ٢٣.

(٢) الإخلاص.

(٣) الزمر: ٦٧.

فقال فنحاص (في جرأة ووقاحة ما بعدها وقاحة): والله يا أبا بكر! ما بنا إلى الله من فقر، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر لهذا القول الفاحش، ثم ضرب وجه ذلك الحبر اللعين ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده! لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك أي عدو الله.

ولما كان العهد قائماً بين المسلمين واليهود جاء الحبر فنحاص إلى لنبي ﷺ وشكا أبا بكر فحقق الرسول ﷺ في الأمر، فلم ينكر الصديق ما صنع، وأبلغ الرسول ﷺ بمقالة اليهودي تلك والتي من أجلها ضربه، فأنكر اليهودي أنه قال: «إن الله فقير» فأنزل الله تعالى رداً على فنحاص وتصديقاً لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾، الآية [(١)].

وكجزء من الحرب الباردة الواسعة العنيفة التي يشنها اليهود على الإسلام ونبي الإسلام في المجتمع اليثربي، كان هؤلاء اليهود يندّدون ويشهرون (علناً) بمن هداه الله منهم للإسلام وينالون منه لئلا يتأثر أحد به فيسلم، فعندما أسلم عبد الله بن سلام (وهو من أحبارهم) وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد وغيرهم من يهود، قام اليهود في المدينة بحملة تشهير ضدهم، وهبَّ الأحبار الكفرة في الأوساط اليهودية والمنافقة يقولون: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[(٢)].

مساومة الرسول لفتنته: بل لقد بلغت بهم الجرأة إلى مساومة الرسول ﷺ في رسالته، فحاولوا إغراءه ليكذب على الله فيكونوا له أتباعاً، فقد تباحث أربعة من أحبارهم في أمره وهم (كعب بن أسد وابن صلوبا، وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس) فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه، فإنما هو بشر، فأتوه، فقالوا له: يا محمد! إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم وأنا إن تبعناك اتبعتك يهود، ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك، ولكن الرسول ﷺ رفض هذه المساومة السخيفة وردهم خاسئين.

---

(١) آل عمران : ١٨١.

(٢) آل عمران: ١١٣.

وقد أنزل الله في هذه المحاولة اليهودية الرخيصة: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾[١].

محاولة اليهود بعث الروح الجاهلية بين القبائل: وبالإضافة إلى إعنات الرسول ﷺ والافتراء عليه ومحاولة تشكيك الناس في صدقه كان هؤلاء اليهود يحاولون (ما وسعهم) بث الفتنة بين أتباعه من الأوس والخزرج، والعودة بهم إلى فوضى الجاهلية بإثارة النعرات القبلية القديمة التي كانت ملتهبة بين هاتين القبيلتين، والتي قام عليها الوجود اليهودي واستقر في يثرب، وهدفهم من هذا أن تفشل الدعوة الإسلامية في جمع كلمة العرب فيتهاوى بنيان النظام الوليد الجديد.

فقد مرَّ أحد أحبار اليهود وهو شماس بن قيس، وكان عظيم الكفر شديد الحقد والضغن على المسلمين، مرَّ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، فغاظه ما رآهم عليه من ألفة ومحبة ـ وهم الذين كانوا إلى عهد قريب ـ لا يلتقون إلا في معركة تسيل فيها الدماء وتزهق فيها الأرواح، فيكون عليهم (سوياً) الغرم ولليهود الغنم، غاظ هذا اليهودي المجرم اجتماع هذين الحيين على الإسلام فأفصح عن تخوفه على الوجود اليهودي من هذا الاجتماع، لأن بقاء هذا العنصر الغريب الدخيل على الأرض العربية إنما هو مرتهن ببقاء الأوس والخزرج (كما كانوا في الجاهلية) متقاطعين متحاربين.

ولهذا قال هذا اليهودي ـ لمّا رأى الملأ من الأوس والخزرج مجتمعين متحابين في رحاب الإسلام ـ: قد اجتمع بنو قيلَة[٢] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم ـ إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار.

وهنا أمر أحد الشباب اليهود بأن يندس بين أولئك النفر وكلفه بأن يبذر بذور الفتنة بينهم ما وجد إلى ذلك سبيلا، لعلهم يختلفون وتثور الحرب الجاهلية بينهم من جديد فتصاب الدعوة الإسلامية بانتكاسة ويتقوى جانب اليهود.

فقد قال ذلك الحبر اليهودي لذلك الشاب: أعمِد إلى هؤلاء فاجلس معهم، ثم أمره بأن يضرب على أدق وتر حساس في تاريخ هاتين القبيلتين الجاهليتين، له ذكرى مثيرة أليمة في نفوسهم (وخاصة الخزرج) أمره أن يحدثهم عن يوم بُعاث الشهير، وهو يوم

---

(١) المائدة: ٤٩.

(٢) يعبر دائماً عن الأوس والخزرج ببني قيلة.

دارت فيه رحى معركة طاحنة بين الأوس والخزرج، كاد فيه الأوس يبيدون إخوانهم من الخزرج حيث كان النصر لهم عليهم فيه، وذلك قبيل الإسلام، وهي آخر مآسي الحرب الأهلية التي كانت تدور في الجاهلية باستمرار بين هاتين القبيلتين.

نجاح اليهود في إثارة الحرب الأهلية: وفعلاً نفذ هذا الشاب اليهودي رغبة الحبر المجرم، وانضم إلى مجلس الأوس والخزرج (إياه) وشارك معهم في الحديث ثم جرهم (بأسلوب يهودي ماكر خبيث) إلى ذكر يوم (بُعَاث)، فأخذ كل منهم في الحديث عن بطولة قومه في ذلك اليوم، فأخذت بوادر التحزب والفتنة تظهر في المجلس، فسارع اليهودي (إياه) إلى إذكاء نيرانها حيث أنشدهم بعض ما قيل من أشعار حماسية مثيرة في يوم بُعاث، فظهرت الفتنة جلية واضحة في المجلس وتلاحى الحيّان، وأخذ رجال كل منهما يساور الآخر ويفاخره وينازعه، وتحول الجدال إلى ما هو أخطر منه، حيث وقف أحد زعماء الخزرج (متحدياً) وقال للأوس: إن شئتم رددناها جذعة يعني (الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية بين القبيلتين) فاشتط الغضب بالفريقين واتّعدوا للحرب وقالوا: موعدكم الظاهرة (والظاهرة الحرة) ثم أعلن النفير في القبيلتين فأخذ كل سلاحه وتوجه للحرب إلى المكان المحدد.

الرسول ينقذ الموقف: وكاد اليهود ينجحون في بلوغ أهدافهم الخبيثة لولا عناية الله تعالى، إذ بلغ النبي ﷺ نبأ هذا الحدث الخطير فسارع - مع المهاجرين - بالخروج إلى المكان الذي اتّعدوا فيه للحرب، فوجدهم يحتشدون كل قبيلة في ناحية، فعمل بما آتاه الله من حكمة على إخماد هذه الفتنة الخطيرة.

حيث وقف بين القبيلتين خطيباً قائلاً: يا معشر المسلمين! الله، الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم؟ وهنا عاد إلى الفريقين رشدهم وأدركوا أنها مكيدة يهودية فأغمدوا سيوفهم ونكسوا رماحهم، ثم استرجعوا وبكوا وأخذ الرجال من القبيلتين يعانق بعضهم بعضاً.

إحباط فتنة اليهود: وبهذا أحبط النبي ﷺ مساعي اليهود الخبيثة وردهم على أعقابهم خائبين بعد أن كادت تنجح دسائسهم ومؤامراتهم التي تستهدف تمزيق وحدة المسلمين الوليدة.

ولم يترك اليهود وسيلة يظنونها تنال من دين محمد ﷺ وتجعل الناس ينفضون من حوله ويتركوه وحيداً إلا اتبعوها مهما كان فيها من السخف والتناقض، اجتمع (مرة) بعض أحبارهم - وقد أعيتهم الحيل وأقضَّ مضاجعهم تزايد دخول العرب في الإسلام - فقال عبد الله بن صيف وعدي بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع ويرجعون عن دينه، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[1].

ولقد أغرى اليهود موقف الحلم والصبر الذي يقفه النبي ﷺ، إزاء تعنتاتهم واستفزازاتهم ومحاولاتهم الصد عن دين الإسلام وتفريق كلمة المسلمين والإطاحة بالعهد الجديد، فازدادوا في أذاهم وتوسعوا في ميدان الكيد إلى درجة صاروا معها يسخرون من النبي ﷺ فيدعون عليه وعلى أصحابه بالموت (في صيغة التحية التقليدية) فكانوا إذا مروا بمجلس فيه رسول الله ﷺ يقولون (بدل السلام عليكم): السام عليكم، وهي كلمة تعني الموت لكم، فيحتمل ﷺ كل هذا، ثم يأمر أصحابه بأن إذا قال اليهود (السام عليكم) أن لا يزيدوا في الرد عليهم على قوله: (وعليكم).

وقد اشتطّ اليهود في جحودهم وصاروا ينكرون في كل مجلس أن يكون ذكر النبي محمد ﷺ قد جاء في شيء من كتبهم وأن جميع أحبارهم لا يعرفون شيئاً من هذا القبيل.

حبر من اليهود يفضحهم: غير أن أحد أحبارهم الكبار المعظمين بينهم فضحهم في مجلس عام في المدينة، وأثبت للناس تناقضهم وأنهم ليسوا إلا مشاغبين يريدون أن ينكروا الحق الذي عرفوه، بغياً وحسداً، فأسقط هذا الحبر بما صنع آخر ما تبقى لهؤلاء الأحبار في نفوس الناس من احترام.

وهذا الحبر هو عبد الله بن سلام (كان من أحبار يهود بني قينقاع) هداه الله للإسلام، ولما كان عالماً بطبيعة الدّس والكذب والخديعة والافتراء المتأصلة في نفوس أحبار اليهود الذين هم مصدر الإعنات والإيذاء وإقامة العراقيل في سبيل الدعوة الجديدة داخل المجتمع اليثربي، أحب أن يسدي للدعوة الإسلامية خدمة عظيمة يقلل بها من أهمية إرجافات هؤلاء الأحبار ضد نبي الإسلام، وتخرصاتهم على دين الإسلام، وذلك بإدانة هؤلاء اليهود (أمام الملأ) بالكذب والنفاق والتناقض.

---

(١) آل عمران: ٧٢.

ولكي يحقق هذا الغرض - وبعد أن أسلم على يد النبي ﷺ - طلب تأخير إعلان إسلامه حتى يجتمع بهؤلاء الأحبار في مجلس عام.

فبعد أن أسلم قال للنبي ﷺ: لقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني أسلمت قالوا في ما ليس في.

فأرسل إليهم النبي ﷺ فلما دخلوا عليه قال لهم: يا معشر اليهود! ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً وأني جئتكم بحق فأسلموا ، قالها لهم (ثلاثاً)، فأنكروا (كعادتهم) وقالوا: « ما نعلمه » أي ليس لدينا علم بأنك رسول الله.

وهنا سألهم عن الحبر (عبد الله بن سلام) قائلاً: فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام.

قالوا (بصوت واحد): ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرأيتم إن أسلم؟.

قالوا: حاش لله ما كان ليسلم.

وهنا جبههم النبي ﷺ بالحقيقة المذهلة، حيث نادى: يا ابن سلام، أخرج عليهم.

وهكذا، وبعد أن انتزع عبد الله بن سلام من هؤلاء الأحبار اعترافهم بأنه سيدهم وأعلمهم وجعلهم يشهدون بذلك مختارين أمام الناس، خرج عليهم وخاطبهم قائلاً:

يا معشر يهود! اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق.

فصعقوا لقوله هذا، ثم وقعوا فيه سبًّا وشتماً، وقالوا له: كذبت، ثم قالوا: هذا شرنا ابن شرنا، فقال عبد الله بن سلام للنبي ﷺ: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله.

تبديل اليهود حكم الرجم في التوراة: ومرة اجتمع أحبار اليهود في بيت المدراس (وهو أشبه بجامعة عبرية لليهود في المدينة)، وتدارسوا موضوع مقاومة النبي ﷺ، والصد عن دعوته، وبينما هم يتباحثون عرضت عليهم قضية رجل وامرأة منهم ارتكبا جريمة الزنا، ومع تأكدهم من صدق نبوة محمد ﷺ فإنهم صاروا يغالطون أنفسهم.

فاتفقوا على أن يمتحنوا النبي ﷺ عن طريق عرض هذه القضية عليه ليحكم فيها، فقالوا: ابعثوا بهذا الرجل وهذه المرأة إلى محمد، فسلوه كيف الحكم فيهما، وولوه الحكم عليهما (وكانا قد أحصنا) فإن عمل فيهما بعملكم من التجبيه [١] فاتبعوه فإنما هو ملك، وصدقوه، وإن حكم فيهما بالرجم فإنه نبي، فاحذروه على ما في أيديكم أن يسلبكموه[٢].

ونفذ الأحبار ما اتفقوا عليه وذهبوا إلى النبي ﷺ وعرضوا عليه قضية الزانيين منهما وجعلوا إليه أمرهما ليحكم فيهما، وتعهدوا له بتنفيذ الحكم الذي يصدره. وكان الإسلام قد ترك لليهود الفصل في أحوالهم الشخصية كما هي عادته في التسامح مع أصحاب الأديان الأخرى.

ولم يتردد الرسول ﷺ في قبول التحكيم سيما وأنه (بموجب المعاهدة المبرمة بينه وبين اليهود) يعتبر الحاكم الأعلى لهؤلاء اليهود بصفتهم مواطنين في ظل دولة يثرب التي يرأسها.

وقد حكم الرسول ﷺ في الزانيين بالرجم، وهو حكم جاءت به التوراة والقرآن، ونفذ الحكم فاعدم الزانيان اليهوديان - رجمًا - عند باب المسجد في المدينة.

افتضاح اليهود في تلاعبهم: وفي هذه المناورة التي قام بها اليهود سجلت الدعوة الإسلامية في معركتها مع هؤلاء اليهود نصراً معنوياً عظيماً عليهم، فكأنهم بعملهم هذا سعوا إلى حتفهم بظلفهم.

وذلك أن النبي ﷺ لما امتحنه اليهود بعرض هذه القضية عليه ليحكم فيها، عقد مجلساً ودعا إليه أحبار اليهود، ثم طلب منهم إحضار التوراة وكلّف أحد أحبارهم بتلاوتها (بحضور المترجم عبد الله بن سلام)، وكان يهودياً من أكبر زعمائهم هداه الله للإسلام.

---

(١) التجبيه - عند اليهود - الجلد بحبل من ليف مطلي بقار ثم تسود وجها الزانيين المحصنين، ثم يحملان على حمارين، وتجعل وجوههما من قبل دبري الحمارين.

(٢) روى هذا الخبر ابن إسحاق بسنده الصحيح عن ابن شهاب، وهذا القول من اليهود يدل على أنهم ما كانوا ليرضوا (في معركتهم مع النبي ودينه) بأقل من إسقاطه وتقليص ظل دينه من الوجود، يزدادون تصميماً على ذلك كلما ازداد يقينهم بنبوة محمد ورسالته، وهذا من أشنع أنواع البغي وأحقر وأحط ضروب الحسد، وإنه لمن أنكر المنكر أن يكون التأكد من صدق قضية سبباً رئيسياً في تكذيب هذه القضية ومحاولة إخراس صوتها الحق والإطاحة بصاحب هذا الصوت.. ولكنهم اليهود وكفى.

ولقد كان فخاً أوقع أحبار اليهود فيه أنفسهم بإثارة هذه القضية على هذا النطاق، فقد كانت التوراة تنص على أن الرجم هو حكم الزاني المحصن، وكان اليهود يحرصون على أن لا يعلم النبي ﷺ، هذه الحقيقة التي كان (فعلاً) لا يعلمها، لأنه لا يقرأ ولا يكتب بالعربية لغة قومه فضلاً عن اللغة العبرانية.

وقد استمر الحَبْر في تلاوة التوراة، ولكنه عندما وصل إلى الآية التي تنص على وجوب رجم الزاني المحصن وضع يده عليها وأراد أن يتخطاها، ولكن عبد الله بن سلام - الذي يجيد اللغة العبرانية كأكبر أستاذ فيها - فضحه إذ دفع يده بعنف وخاطب النبي ﷺ، قائلاً: هذه يا نبي الله، آية الرجم يأبى (أي الحبر اليهودي) أن يتلوها عليك.

اعتراف الأحبار بالتلاعب في التوراة: وأمام إدانة هؤلاء الأحبار الصريحة بالغش والكتمان وخيانة العلم، توجه إليهم النبي ﷺ بالكلام موبخاً قائلاً: ويحكم يا معشر يهود، ما دعاكم إلى ترك حكم الله وهو بأيديكم؟..

فتخاذل هؤلاء الأحبار ولم يسعهم إلا أن يعترفوا بالتحريف والتبديل والتلاعب في أحكام الله، حيث لم يعد لهم مفرّ من الاعتراف بعد أن فضحهم عبد الله بن سلام وسد كل السبل في وجوههم، فقالوا:

أما والله! إنه قد كان فينا يعمل به (أي بحكم التوراة في الرجم) حتى زنى رجل منا بعد إحصانه، من بيوت الملوك وأهل الشرف، فمنعه الملك من الرَّجم، ثم زنى رجل بعده، فأراد أن يرجمه فقالوا: لا والله، حتى ترجم فلاناً، فلما قالوا له ذلك اجتمعوا فأصلحوا أمرهم على التجبيه، وأماتوا ذكر الرجم والعمل به، فقال رسول الله ﷺ: فأنا أول من أحيا أمر الله وكتابه وعمل به، ثم أمر بالزانيين فرجما، قال عبد الله بن عمر: فكنت فيمن رجمهما. وهكذا سدَرَ اليهود في غيهم ولم يزدهم تجدد الأدلة لديهم على صدق نبوة محمد ﷺ إلا بغياً وحسداً، فقد ضاعفوا من نشاطهم ضد النبي ﷺ ولكن دونما جدوى.

المد الإسلامي يجرف اليهود: فقد كان المدّ الإسلامي - داخل المجتمع اليثربي - أقوى من كل ما يقوم به اليهود من مناورات ودسائس، وبالتالي أقدر على الذهاب بكل الحواجز والعراقيل التي أرهقوا أنفسهم في إقامتها لصد تيار دعوة القرآن.

حيث لم تزد هؤلاء اليهود الأيام، إلاّ تكشفاً (للرأي العام) على حقيقتهم الخبيثة، وصار كل يوم يمر على حربهم الجدلية المتعنتة مع الإسلام يكشف عن نقيصة من نقائص تناقضاتهم، أو يرفع الستار عن خبيئةٍ من خبايا نواياهم الشريرة التي يبيتون لأهل يثرب خاصة.

وبدلاً من أن ينصاع أهل يثرب إلى مغالطات اليهود ويتأثروا بتلبيساتهم وبسحب الشكوك التي يرسلونها حول الدعوة الجديدة الحقة فيندفعوا في تيار أراجيف هؤلاء اليهود المغرضة، تركوهم وحدهم في الميدان، ولم يمض أكثر من خمسة أشهر على وصول النبي ﷺ إلى المدينة حتى أصبح كل الناس في المدينة وما حواليها من منطقة يثرب (ما عدا اليهود) يدينون بالإسلام ويخضعون لنظامه، وحتى أصدقاء اليهود من العرب المنافقين الذين تعلّموا النفاق على أيدي هؤلاء اليهود في المدينة، لم يسعهم - أمام المدّ الإسلامي الزاخر - إلا أن يُعلِنُوا (ظاهراً) إيمانهم بالدين الجديد وخضوعهم لنظامه، وبقى العنصر الوحيد (في يثرب) الذين لم يدخل في الدين الجديد هو العنصر اليهودي من إسرائيليين وعرب.

وقد عزَّ على اليهود أن تكون نهاية حربهم الجدلية العقيمة الباردة ضد الإسلام ذلك الفشل الذريع، وساءهم جداً، أن تكون حصيلة صراعهم العقائدي المضني مع دعوة الإسلام تلك الهزيمة المحطمة لآمالهم والتي انتهت بانضواء كل المجتمع اليثربي (عدا اليهود) تحت لواء الإسلام، وخاصة بعد الانتصار الساحق الذي حققه المسلمون في بدرٍ على المشركين.

اغتباط اليهود بزحف قريش إلى بدر: لقد كاد اليهود يطيرون فرحاً عند سماعهم تحركات الجيش المكي في السنة الثانية للهجرة نحو بدر لضرب المسلمين، وكانوا يعلقون أكبر الآمال على نشوب المعركة بين الفريقين في بدر.

فقد كانوا يظنون أن جيش مكة الكبير سيكفيهم مئونة القضاء على النبي ﷺ وأتباعه، وبالتالي سيجتث جذور الدعوة الإسلامية من الأساس، لذلك كانوا حريصين كل الحرص على التقاء الجيشين في بدر، وكانوا يتمنون - بل يتوقعون جازمين - أن النصر والغلبة ستكون للمشركين على المسلمين، لأن كل شيء مادي يوجب الاعتقاد الجازم (من الناحية المجردة) بأن النصر في معركة بدر سيكون - إذا ما نشبت - حليف جيش مكة الذي بلغ تعداده ألف مقاتل مسلحين أحسن تسليح ومجهّزين أحسن تجهيز، يقابله في الجانب الآخر ثلاثمائة مقاتل من المسلمين أكثرهم حفاة لا دروع لهم ولا مغافر.

وكجزءٍ من الحرب النفسية العنيفة التي كان اليهود قد بدءوها ضد الإسلام والمسلمين، وفي الظروف التي نشبت فيها معركة بدر الكبرى، وقبل أن تتلقى المدينة أخبار نتائجها النهائية، كان اليهود - يؤازرهم المنافقون - قد نظموا حملة دعائية واسعة من الإرجاف والتشويش لتحطيم معنويات المسلمين وإشاعة روح التخاذل والتفكك والفزع بينهم.

حتى إنهم أشاعوا أن النبي ﷺ قد قتل وأن جيشه قد تحطم في معركة بدر، وأن جيش مكة زاحف بقيادة أبي جهل لاحتلال المدينة ومحو آثار الدعوة الإسلامية من الوجود.

وقد فعلت هذه الأراجيف فعلها السيئ في نفوس المسلمين في المدينة، وهذا هو الذي هدف إليه اليهود من وراء إشاعاتهم الكاذبة.

وبينما كان المسلمون نهباً للقلق والخوف نتيجة هذه الإشاعات اليهودية التي زحمت أرجاء المدينة والتي كادت تذهب لها عقول المسلمين، إذا بالبشير بانتصار المسلمين في معركة بدر يسبق الجيش النبوي المنتصر ويدخل المدينة مبشراً أهلها ومؤكداً لهم انتصار المسلمين الساحق في معركة بدر على قوى الشر والعدوان.

فتهتز مدينة الرسول ﷺ بالتكبير والتهليل من أقصاها إلى أقصاها فرحاً واستبشاراً بهذا النصر المؤزر الذي عن طريقه دخل المسلمون التاريخ من أوسع أبوابه.

أما اليهود فقد صعقوا لنبأ الانتصار الساحق الذي ما كانوا يتصورون حدوثه مطلقاً، وكادوا يتهمون أسماعهم عندما سمعوا صوتي (البشير) عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة يدويان، وهما يركضان راحلتيهما في أحياء المدينة يبشران المسلمين بانتصار الجيش النبوي على قريش في بدر.

ولقد سُقِطَ في أيد اليهود وكادوا يتّهمون أبصارهم، وعلاهم الذهول عندما رأوا زعماء قريش وقادة جيشها في معركتهم الخاسرة يساقون أسرى تحت حراسة رماح قوات الجيش النبوي المنتصر، قد شُدّت أيديهم إلى الوراء، يعلوهم ذل الهزيمة ومهانة الانكسار، يتعثرون في خطاهم وكأنهم لا يبصرون.

فتحطمت آمال اليهود وانهارت أحلامهم وانقلبت أفراحهم أتراحاً حيث كانوا يتمنون بل يتوقعون سحق المسلمين في هذه المعركة التي كان انتصارهم فيها على قريش، ليس بداية تسلمهم مقاليد الأمور في يثرب فحسب، بل في جزيرة العرب بأكملها بل في العالم كله، الأمر الذي أطار صواب اليهود وجعلهم يتوقعون نهاية أمرهم ويلجأون لذلك إلى أسلوب جديد في محاربة الإسلام.

اليهود ينقلون المعركة إلى صعيد أوسع: فبدلاً من أن يعود اليهود إلى صوابهم أمام ذلك النصر الساحق الذي حققته الدعوة الإسلامية في المجالين الحربي والعقائدي، تلك الدعوة التي تمكن حامل لوائها بصدق لهجته وصفاء نفسه ودماثة خلقه وشرف مقصده وحلمه الواسع أن يضم تحت جناحي هذه الدعوة الحَانِيَيْن كل سكان يثرب دون أن

يضطر إلى إراقة قطرة دم واحدة.. نعم بدلاً من أن يعود اليهود إلى صوابهم ويستجيبوا لداعي الحق الذي يهتف بهم في أعماق نفوسهم، فإنهم ازدادوا عناداً ومكابرة وارتفعت درجة اشتعال الحقد والحسد والبغض في نفوسهم للإسلام وحامل لواء دعوته.

وتمشيًّا مع هذا الارتفاع الذي أعمى اليهود، فكروا في نقل المعركة ضد النبي ودينه وأتباعه إلى صعيد أكثر فعالية، وأكثر شمولاً.

فلم يكتف اليهود بالصدّ عن الإسلام ومحاولة تشكيك الناس في صدق النبي ﷺ أو سلخهم عن الدين الجديد، عن طريق الجدل والتزوير ونشر أعمدة من دخان اللبس والتشويه والتشكيك حول جوهر الدعوة الجديدة الحقة داخل يثرب.

بل ذهب بهم الحقد الأعمى والحرص القاتل على تقويض معالم الدعوة الإسلامية والقضاء على حامل لوائها في عقر دارها إلى أن يذهب منهم أحبار دينيون ووجهاء ماليون وزعماء سياسيون يطوفون في أنحاء الجزيرة العربية بين مضارب البدو في الصحراء وأندية الحضر في المدن والحواضر، لا ليقوموا بحملات دعائية سلاحها التنفير والتشكيك والتكذيب ضد دعوة محمد فحسب (كما يفعلون في يثرب) وإنما ليقوموا بتحذير القبائل العربية ويشرحوا لها خطر الدعوة الإسلامية ويدعونهم إلى مقاومتها بحدّ السلاح، بل وتجنيد الجيوش للقضاء على هذه الدعوة ودعاتها في مقرها الرئيسي قبل أن يستفحل أمرها فتقضي عليهم. وكان هذا من اليهود بداية خطيرة في تطور الصراع بينهم وبين المسلمين جعلت هذه البداية - التي لا تعني سوى تصميم اليهود على القضاء على الإسلام والمسلمين ولو بالاستعانة بتجريد الجيوش من القبائل الوثنية - جعلت هذه البداية الخطيرة القيادة الإسلامية في المدينة تغيّر من نظرتها التقليدية المتسامحة إلى المقاومة اليهودية للدعوة الإسلامية، التي لم تعد - كما كانت - مجرد حرب دعائية، سلاحها التنفير والتشكيك والإرجاف والتكذيب، وإنما السعي لدى القبائل العربية الوثنية القوية الضاربة وبث روح الكراهية بينها للإسلام والمسلمين، وتحريضها على حربهم وإغرائها عن طريق المال بغزو المسلمين وضربهم في مقر دعوتهم الرئيسي، مما حمل القيادة الإسلامية في المدينة على تغيير أساليب حماية الدعوة مما يهددها من اليهود في مخطط مقاومتهم الجديدة.

اليهود بعد انتصار المسلمين في بدر: لقد كان اليهود (قبل معركة بدر) يكتفون في مقاومة دعوة الإسلام بشن حرب دعائية، سلاحها إعنات النبي ﷺ بالأسئلة المحرجة وإثارة عناصر اللبس والتشكيك حول الدعوة الإسلامية طمعاً في أن ينفض الناس من حولها ويفقدوا الثقة بحاملها فلا يبقى لها من خطر على سلطان اليهود في يثرب.

وكان النبي ﷺ إزاء كل هذا (كما رأينا) قد ترك لليهود مطلق الحرية ليجهروا برأيهم في الدعوة الإسلامية بل وليبدوا طعونهم في جوهرها ويجاهروا بتكذيب حاملها وكان يكتفي بإيضاح بطلان هذه الآراء.

إذ كان ﷺ - وهو الحاكم الأعلى والسيّد المطلق لمنطقة يثرب - يصغى لاستجواباتهم المتعنتة في صلب العقيدة والدين التي يتقدمون بها في مناظراتهم المعلنة التي لا يقصدون بها سوى الإحراج وإشاعة اللبس لتشكيك البسطاء في صدق ما جاء به هذا النبي العظيم ﷺ، فيجيبهم على هذه الاستجوابات المثيرة بكل هدوء دون أن يبدو عليه الانزعاج أو الانفعال.

ولم يثبت أنه اتخذ أي إجراء تأديبي ضد هؤلاء اليهود مع علمه بأنهم في كل استجواباتهم ومناظراتهم لا يبحثون عن الحق لإتباعه، وإنما يبحثون عن المتاعب لإثارتها في وجه هذا الحق الذي جاء به محمد ﷺ، والذي يعرفونه قبل غيرهم أنه الحق، فصاروا يقاومونه بكل وسيلة ممكنة، بغياً وحسداً.

النبي وحرية القول: ويمكننا الإعلان (بكل فخر واعتزاز) أن النبي ﷺ - بذلك الموقف المتسامح الذي وقفه من اليهود الذين شنّوا عليه وعلى دعوته حرباً إعلامية واسعة متواصلة عنيفة - كان أول من وضع ونفّذ حرباً إعلامية واسعة متواصلة عنيفة - كان أول من وضع ونفذ قانون حرية القول والفكر، للمخالفين في العقيدة والدين.

فليس مشرعو القوانين الحديثة في البلاد الديمقراطية من العالم الحر الذين يفخرون بأن حكوماتهم تمنح الفرد مطلق الحرية ليفكر ويعلن عما يريد أن يقول، ولو كان هذا القول يتنافى مع رغبات الحاكم الأعلى ولا يتفق مع اتجاهاته، إلا عيالاً على ذلك القانون الذي وضع أسسه النبي الأعظم ﷺ وطبقه إزاء خصومه (من مواطنيه) في العقيدة والدين والاتجاه، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً.

بل إن مشرّعي القوانين الحديثة (في البلاد الديمقراطية الغربية) لم يستطيعوا (حتى في القرن العشرين) أن يقتربوا - في مجال منح الحريات العامة - مما أعطاه النبي ﷺ - في هذا المجال - من حريات مطلقة لمواطنيه، ممن يخالفونه في الرأي والعقيدة والدين، كما رأينا في مواقفه المتعددة من اليهود الذين لم يتركوا وسيلة من وسائل الإعلام إلا واستخدموها ضد النبي ودعوته، وسخروها لتنفير الناس عنه وتشكيكهم فيما يدعو إليه بل والطعن (صراحة) فيه وفي رسالته.

ومع هذا لم يقم ضدّهم بأي أعمال تأديبية من سجن أو فرض غرامة أو نفي أو ما شابه ذلك، مع العلم أنه كان قادراً على ذلك لأن الدولة له والأمة كلها (ما عدا اليهود) طوع إشارته.

وهذه المعاملة مع الخصوم - في مجال العقيدة والسياسة لم يستطع أرقى تشريع في العالم المتحضر اليوم الوصول إليها.

فالقوانين العصرية في البلاد (المسماة بالديمقراطية في الغرب) تنصّ على إطلاق الحريات العامة للمواطنين على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم وتحمي هذه الحريات، ولكن بشرط أن لا تستخدم هذه الحرية للتخريب وإشاعة الفتنة والفرقة بين الناس.

أما إذا استخدمت الحريات لهذا الغرض، فإن هذه القوانين تمنع هذه الحرية وتضرب على أيدي مستغليها لذلك الغرض التخريبي الذي يؤدي في النهاية إلى هدم النظام القائم.

وإذا رجعنا إلى محاضر معاملة النبي ﷺ لليهود وجدنا أنه قد وقف منهم تلك المواقف المتسامحة ومنحهم مطلق الحرية ليقولوا فيه وفي دينه ونظامه ما شاءوا، مع العلم أنهم لا يقصدون بكل ما يقولونه من انتقادات ويتقدمون به من استجوابات حول الدين الجديد والنظام الذي جاء به، إلا هدم هذا الدين وإشاعة الفتنة بين المواطنين وإسقاط النظام القائم لتبقى لهم السيطرة على المجتمع.

وهذا هو الذي يجعلنا نجزم أن النظم في البلاد الغربية المتحضرة (وفي القرن العشرين) لا تزال في قوانينها حول منح الحريات العامة للفرد بعيدة كل البعد عن المنزلة التي وصل إليها القانون النبوي في هذه الناحية، وخاصة مع المخالفين له في العقيدة والدين والاتجاه.

الطريق الخطر: ولقد ظل النبي ﷺ على موقفه المرن مع اليهود، حيث ذهب في التسامح معهم - إزاء انتقاداتهم واستفزازاتهم ودعاياتهم المغرضة - إلى أبعد الحدود، حيث كانت مقاومتهم ومعارضتهم لدعوته لا تتعدى نطاق التسلح بالكلام والدعاية واللبس والتشويش والتكذيب.

ولكن اليهود لمّا سلكوا في مقاومة الإسلام الطريق الآخر وهو طريق القوة، حيث بدءوا يتدرجون في هذا الطريق الخطر، مبتدئين بالتهديد بالحرب والطواف على القبائل العربية الوثنية لإثارتها وتحشيدها لحرب النبي ومحاولة اغتيال الرسول ﷺ شخصياً سلك النبي ﷺ في مواجهة هذا التخطيط اليهودي الجديد طريقاً آخر أكثر حزماً وانتباهاً.

وكانت فعالية هذا الحزم والانتباه لحماية الدعوة تتطور من جانب النبي ﷺ وتتسع بتطور إيغال اليهود وتوسعهم في ميادين المؤامرات والتكتلات التي غايتها هدم الدين الجديد والإطاحة بالنظام الذي جاء به عن طريق اللجوء ولو إلى سفك الدم، كما كشفت ذلك الأحداث فيما بعد.

ويحدثنا التاريخ أن أول اليهود المتحرشين بالمسلمين (عسكرياً) هم بنو قينقاع الذين كانوا أشجع الطوائف اليهودية في الجزيرة العربية، وكانوا - مع ذلك - من أغنياء المدينة[١].

فقد كان هؤلاء اليهود (دون الطوائف اليهودية الأخرى) يسكنون داخل المدينة، وقد أخذوا يتحرشون بالمسلمين ويهدّدونهم بالحرب، وقد بلغ بهم التحدي والاستهتار بالمسلمين والاستخفاف بسلطانهم إلى الاعتداء على نساء المسلمين مما أدى إلى نشوب القتال بين الطرفين، وقد استعد بنو قينقاع للحرب فاعتصموا بحصونهم المنيعة فضرب المسلمون عليهم الحصار حتى أجبروهم على التسليم، ثم تم إجلاؤهم عن المدينة[٢].

ثم تتابعت أعمال اليهود الاستفزازية التي خرجت عن نطاق الكلام إلى العمل، فتلا إجلاء يهود بني قينقاع قتل اليهودي الشهير كعب بن الأشرف، بعد أن أصبح مصدر خطر يقلق أمن المدينة بواسطة نفوذه المالي حيث كان أكبر غني في تلك المنطقة، وكان يذهب إلى القبائل العربية (ومنها قريش) يحرّضها على قتال المسلمين ويدعوها إلى غزو المدينة[٣].

ثم تلا قتل كعب بن الأشرف إجلاء يهود بني النضير عن المدينة، فقد ذهب بهؤلاء اليهود الغدر والتآمر إلى محاولة اغتيال النبي ﷺ داخل منطقتهم.

وقد كان انتصار المسلمين على المشركين في معركة بدر الشهيرة، هو الذي أفقد اليهود صوابهم وجعلهم ينقلون الحرب والمقاومة ضد النبي ودعوته من الكلام إلى ميدان العمل الدامي، حيث لم تأت هذه التطورات من جانب اليهود، التي نتجت عنها تلك الأحداث الدامية التي ابتدأت بفتنة يهود بني قينقاع وانتهت بإبادة بني قريظة إلا بعد أن انتصر المسلمون على المشركين في معركة بدر الكبرى.

---

(١) ذكر الأستاذ (أوليري) في كتابه (اليهود) ص ١٢٨ أنه يحتمل أن يكون يهود بني قينقاع من أصل عربي دانوا باليهودية قبل الإسلام.. نقل ذلك عنه الأستاذ جواد علي في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) ج٦ ص ١٦.

(٢) انظر تفاصيل حادثة إجلاء يهودي بني قينقاع في كتابنا (غزوة أحد) ص ٣٨ وما بعدها.

(٣) انظر تفاصيل قتل كعب بن الأشرف في كتابنا (غزوة أحد) ص ٤٣ وما بعدها.

وهكذا فإن المطّلع بدقّة على سير الحوادث طيلة الخمس سنوات (وهي المدة التي استغرقت مراحل الصراع المختلفة بين النبي ﷺ واليهود في منطقة يثرب) يتضح له أن اليهود (منذ اللحظة الأولى) ما كانوا ليرضون - لو كتبت لهم الغلبة والبقاء في المدينة - إلا بهدم الكيان الإسلامي ومحو المسلمين من الوجود، بأية وسيلة تتوفر لهم، وفي مقدمة ذلك حدّ السلاح.

وهذا أمر كان مجمعاً عليه بين جميع طوائفهم الرئيسية الثلاث بني قينقاع.. وبني النضير .. وبني قريظة، إلا أن الظروف لم تسمح لهم بأن يكونوا في نزاعهم مع النبي كتلة واحدة.

أما ما كان يقوم به اليهود من اعتراف بالنظام الجديد، والانضواء تحت لواء الدولة الإسلامية، وما يقومون به من الدخول في ارتباط وأحلاف عسكرية مع المسلمين، توحي بأنهم قد رضوا الارتباطات بالنظام الجديد والانضواء في ظله كمواطنين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم - مع بقاء كل على دينه حراً - فإن ذلك ليس إلا بمثابة ستار أراد اليهود أن يضمنوا خلفه العمل بحرية ضد الإسلام والمسلمين، وهذا ما أثبتته الأحداث بكل وضوح.

وباستقصاء تصرفات اليهود - طيلة الخمس سنوات - يتضح أنه ما كان يحول بينهم وبين محو المسلمين من الوجود إلا عدم مواتاة الفرص لهم، والتي لو واتتهم (في أية لحظة) لما ترددوا في اغتنامها للقضاء على المسلمين بحد السلاح حتى ولو كان بينهم وبين المسلمين ألف عهد وألف حلف.

ولا أدلّ على ذلك من فعلة يهود بني قريظة الشنيعة حيث حاولوا تسديد ضربة ساحقة للمسلمين من الخلف وهم في أحرج موقف حربي يواجهون عدواً جباراً قد غمرهم وأحاطهم بقواته التي تفوقهم عدة أضعاف كما يحيط البحر الهائج بالجزيرة الصغيرة.

وقد قام يهود بني قريظة بهذه الخيانة العظمى، وهم في حالة ارتباط مع المسلمين بموجب معاهدة عسكرية وسياسية عقدت بين الفريقين تنص بنودها على أن يكوِّن اليهود - مع المسلمين - جزءًا من الجيش الذي يجب عليه الدفاع عن المدينة فيما إذا تعرضت لمثل الغزو الذي تعرضت له على يد الأحزاب، ولكن الذي حدث هو العكس حيث حاول يهود بني قريظة ضرب المسلمين من الخلف بدلاً من الوقوف إلى جانبهم في ذلك الظرف الخطير.

فهذا التصرف مع ما سبقه من تصرفات اليهود طيلة لخمس سنوات، يعطي الدليل القاطع على أن اليهود كانوا - منذ اللحظة الأولى - قد بيتوا العزم على إبادة المسلمين وهدم كيان الإسلام بأية وسيلة كانت وفي أي ظرف كان، تواتيهم فيه الفرصة.

بينما كان المسلمون على العكس من ذلك، ليس لديهم أية نية مبيتة لإبادة هؤلاء اليهود، حتى بعد أن اتضحت نواياهم السيئة ضدهم.

ولو كان لدى المسلمين شيء من هذا لأبادوا اليهود في الشهور الأولى التي دانت لهم فيها يثرب بأكملها، وصاروا قادرين (بكل معاني هذه الكلمة) على استئصال شأفة هؤلاء اليهود دون أن تستطيع قوة في الأرض الحيلولة بينهم وبين ذلك.

ونحن نستمد تأكيدنا لهذه الحقائق من تصرفات المسلمين إزاء هؤلاء اليهود، فقد استسلمت قوات بني قينقاع وبني النضير للمسلمين في حوادث النزاع المسلح بعد حصار لم يدم في كلتا الحالتين أكثر من شهر واحد.

فكان باستطاعة المسلمين أن يبيدوا هؤلاء اليهود المستسلمين - بكل سهولة - لو أنهم كانوا يبيتون لهم هذه الإبادة، ولكنهم لم يفعلوا لأن هذه النية لم تكن مبيتة لديهم، حيث اكتفوا بنفي هؤلاء اليهود من منطقة يثرب فحسب.

أما اليهود (كما قلنا) فقد كانوا يبيتون العزم على قتل النبي ﷺ واستئصال شأفة المسلمين، لو أنهم وجدوا إلى ذلك سبيلاً، إلا أن الحظ لم يكن حليفهم في كل محاولاتهم الخبيثة.

واعتقد (جازماً) لو أن اليهود ظفروا بالمسلمين كما ظفر المسلمون بهم في حادثتي حصار بني قينقاع وبني النضير لما ترددوا لحظة في إبادتهم عن بكرة أبيهم.

لقد كان انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى (كما قلنا)، هو العامل الأول في إلهاب نفوس اليهود بالحقد العارم الذي جعلهم يفكرون في نقل المعركة ضد النبي ﷺ والدين الذي جاء به من ميدان الكلام والدسّ والإشاعة والتكذيب إلى ميدان العنف وإيقاف تيار الدعوة ومقاومتها بالقوة وسفك الدم.

اليهود يهددون بالحرب: فقد أخذوا كخطوة أولى في هذا الطريق الخطر، يتحرشون بالمسلمين ويتفوّهون بكلمات يشم منها رائحة تهديد النبي ﷺ بالحرب.

ولم يكن النبي القائد ﷺ غافلاً عما يدبره اليهود، بل كان يرقب حركاتهم المريبة منذ بدءوا يسلكون هذا الطريق الخطر.

وكـان بـنو قيـنقاع أول مـن سـلك هـذا الطـريق وهدد بالحرب وإثارة الشغب على المسـلمين، وكـان يهـود هـذه القبـيلة الذين (يقال: إنهم من أصل عربي)[1] يمتازون على غيرهم من اليهود بالشجاعة والقوة الحربية والثراء الكبير.

وكانت لهم حصون حربية منيعة يعتزون بها، وكانت ديارهم أقرب ديار اليهود جميعاً إلى المسـلمين، إذ تقـع مـنازلهم داخـل المديـنة نفسها، بينما تقع ديار بقية القبائل اليهودية (وخاصة بني قريظة والنضير) خارج المدينة.

النبي ينصح بني قينقاع: وعندما ظهر تحرش بني قينقاع بالمسلمين، واتضح عزمهم على الوقـوف في وجـه الدعـوة الإسـلامية، ولـو عن طريق الحرب وسفك الدم.. ولِمَا بينهم وبـين الـنبي ﷺ مـن عهد وتحالف.. وبالتالي لكره النبي ﷺ وبغضه الحرب وسفك الدم، لجـأ (أولاً) ـ لإعـادة هؤلاء اليهود إلى جادة الصواب ـ إلى النصح والمفاوضة، فطلب الاجـتماع بـيهود بني قينقاع هؤلاء فاجتمعوا إليه في مؤتمر عقده معهم في سوقهم، محاولاً إصـلاحهم وإرجـاعهم عـن غـيهم وثنـيهم عن الاندفاع في الطريق الخطر، طريق الحرب الذي لم يعد خافياً على أحد أنهم يهددون بسلوكه.

ولا شـك أن الـنبي الأعظـم ﷺ ـ وهو الحريص على الأمن والاستقرار والحريص عـلى حقن الدماء أياً كان نوعها ـ لم يدعُ بني قينقاع إلى ذلك الاجتماع والتحدث إليهم مـن بـين جمـيع القـبائل الـيهودية في يـثرب إلا بعد أن تأكد لديه أنهم يقومون بنشاط فيه إخلال بالأمن ونقض للمعاهدة المعقودة بينهم وبين المسلمين وتهديد بالحرب.

ولقـد حـاول الـنبي ﷺ في هـذا المؤتمـر إرجـاع بني قينقاع إلى جادة الصواب والتزام نصـوص المعـاهدة المـبرمة بـين المسـلمين وبين كافة اليهود، فنصحهم وذكرهم وحذرهم نـتائج الـبغي والتحرش والعدوان إن هم سلكوا طريقه، ولم يفتهُ أن يُذكّرهم بالثمار المرة الـتي جنتها قريش يوم بدر، نتيجة اندفاعها في طريق الغرور والبغي والعدوان، حيث قال لهـم ـ فـيما قـال ـ : « يـا معشـر يهود! احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة» وهـذا بالتأكيد يدل على أن يهود بني قينقاع قد بدر منهم ما يدل على أنهم عازمون على سلوك درب البغي والعدوان الذي سلكته قريش، ولولا ذلك ما ذكرهم (دون اليهود) بما أصاب قريشاً في معركة بدر.

---

(١) هذا القول لم يقله أحد من الإخباريين المسلمين وإنما قاله المستشرقون فحسب.

بنو قينقاع يغلظون القول للنبي: ولكن هؤلاء اليهود كان جوابهم في ذلك المؤتمر على النصح النبوي الصادق غاية في الغطرسة المشوبة بالوقاحة والتحدي، مما أعطى الدليل على تصميم هؤلاء اليهود على سلوك طريق العنف والتهديد بالحرب، وذلك أن جوابهم على نصح النبي القائد وتحذيره لهم بأن يلتزموا نصوص المعاهدة ويعيشوا آمنين مطمئنين بعيدين عن إثارة الشغب وتعكير الأمن، كان التهديد بالحرب بل وإعلانهم الاستعداد لهذه الحرب، فقد قالوا للنبي ﷺ في ذلك المؤتمر بسوقهم: «أترى أنا قومك (يعني قريشاً) لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، أمّا نحن، أما والله! لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس»[1].

وأمام هذا الاستفزاز والتحدي الذي فهم منه النبي ﷺ أشياء، لابد من أن يفهمها كقائد أعلى مسئول، كظم غيظه ولم يتخذ ضدهم أي إجراء كرد على هذا التحدي والتهديد، إلا أن المسلمين بعد هذا المؤتمر ظلوا متيقظين يرقبون الأحداث في انتظار ما ستتمخض عنه الليالي.

بنو قينقاع ينقضون العهد: وتمشياً مع النية المبيتة والمخطط المرسوم لدى هؤلاء اليهود استمروا في تحرّشهم بالمسلمين واستفزازهم ومحاولة إثارتهم وجرهم إلى حرب يرغب اليهود (سلفاً) في إثارتها، وما زالوا كذلك حتى نشبت الحرب بين الفريقين بعد أن تزايد طغيان اليهود إلى درجة نقضوا معها العهد الذي بينهم وبين المسلمين.

وقد ذكر ابن إسحاق أن سبب هذه الحرب هو أن امرأة مسلمة جاءت بحليّ لها لتبيعه في سوق بني قينقاع في المدينة، ولما جلست اجتمع عليها نفر من اليهود يستفزّونها ويتحرشون بها فأرادوها على كشف وجهها فأبت ذلك، فعمد أحد اليهود إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهي غافلة، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحك اليهود منها وسخروا، فصرخت مستغيثة بالمسلمين الذين كان أحدهم حاضراً فوثب المسلم على اليهودي المعتدي فقتله، فشدَّ اليهود على المسلم فقتلوه فوقع الشر بينهم، ويقول ابن إسحاق إن النبي ﷺ بعد هذا الحادث ضرب الحصار على اليهود ولم يذكر تفصيلاً آخر.

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٧.

مناقشة ابن إسحاق: غير أن الباحث المتعمق المتجرّد يجد من الصعب عليه التسليم بأن هذا الحادث الفردي هو المبرر الوحيد لضرب النبي ﷺ الحصار على بني قينقاع، فلابد أن يكون من الأسباب ما هو أكبر من هذا الحادث قد أدت إلى محاصرة بني قينقاع وضرورة محاربتهم.

فالذي يعرف أناة النبي ﷺ وصبره وحلمه يجزم أنه لم يضرب الحصار على هؤلاء اليهود إلا بعد أن تأكد لديه نقضهم العهد ومنابذته، يدلنا على ذلك سعيه للاجتماع بهم في سوقهم وتحذيرهم ونصحهم (دون سواهم من اليهود) وأن اليهود إنما اتخذوا من حادثة المرأة المسلمة وما نتج من الاعتداء عليها وسيلةً وفرصةً لإعلان الحرب على المسلمين. يدلنا على ذلك أنهم سارعوا إلى الاعتصام بحصونهم ورفضوا أية مفاوضة أو تفاهم، وأن ذلك قد حدث منهم نتيجة تخطيط سابق ونية مبيتة لسلوك طريق العدوان الذي سلكته قريش في بدر فنقضوا بذلك العهد.

وقد أشار ابن إسحاق نفسه إلى ذلك بقوله: «إن بني قينقاع بين بدر وأحد». إلا أنه لم يفصل كيف كان نقضهم العهد.

بل إن القرآن (وهو أصدق من كل حديث) قد أشار إشارة واضحة إلى أن سبب الحرب بين بني قينقاع والمسلمين هو أكبر من سبب حادث المرأة الذي ذكر ابن إسحاق، وهو أن اعتداء اليهود وتحرشهم بالمسلمين في المدينة كان على مستوى عدوان وطغيان قريش عندما سعوا لإشعال نار الحرب في بطاح بدر بغياً وعدواناً واحتقاراً لشأن المسلمين.

فقد جاء في القرآن الكريم بشأن بني قينقاع هؤلاء قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[1].

فالذي نراه (والأمر مجرد اجتهاد واستنتاج) أن حادث سوق بني قينقاع (مجرداً) يستبعد أن يكون الحافز الوحيد لضرب الحصار على هؤلاء اليهود بل لابد من أن يكون هناك ملابسات ومضاعفات أخرى أتت من قبل اليهود، اضطر النبي ﷺ معها إلى ضرب الحصار على هؤلاء اليهود لتفادي شرهم ووضع حد لعبثهم واستهتارهم الذي يعرّض الأمة اليثربية كلها لأخطار قد يصعب تلافيها.

---

(١) آل عمران: ١٢.

ولعله من عجيب الاتفاق أنني بعد أن حررت هذه الملاحظة حول سبب إجلاء بني قينقاع، اطلعت على رأي للمؤلف الإنكليزي المعروف الدكتور (مونتجمري وات) فقد قال هذا المؤلف في كتابه (محمد نبي ورجل دولة) ص ١٣٠ وما بعدها: «لقد كان طرد قبيلة بني قينقاع أحد العوامل الهامة التي عملت على تثبيت مركز محمد ودعمه، وسبب هذا الطرد كما ترويه بعض الروايات - نزاع طفيف طرأ بين يهود القينقاع وبعض التجار المسلمين في السوق في المدينة، فبينما كانت إحدى النساء العربيات جالسة عند صائغ ذهب ربط أحد اليهود مجموعة من الشوك بثوبها حتى إذا نهضت انكشف معظم جسمها فضحك المشاهدون.

وقد اغتاظ أحد المسلمين الحاضرين فقتل مدبر هذه الحيلة ثم لقي هو حتفه، ثم انسحب اليهود بعد هذه الحادثة إلى معاقلهم وتوجه محمد ﷺ مع بعض أتباعه فحاصرهم هناك»، ثم علق مونتجمري على هذه الرواية بقوله:

« غير أنه لا يمكن الاعتماد على هذه القصة، فهي أسطورة كثيراً ما نقرأ عنها في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، إلا أنه قد يكون هناك نزاع بين المسلمين واليهود».

ثم يبدي الدكتور مونتجمري رأيه الخاص فيقول: «أما الأسباب التي أدت بمحمد إلى اتخاذ قرار طرد اليهود فيظهر أنها أكثر عمقاً من هذه الحادثة العابرة، فاليهود لم يُظهروا استعدادهم التام للاندماج في المجتمع الإسلامي، ولذا فقد رأى محمد أن يقاطعهم، ورغم أنهم كانوا لا يزالون يحتفظون ببعض الصلات معه، إلاّ أنه كان دائماً يترقبهم بحذر ليغتنم أية فرصة يهيئونها له بسبب مخالفتهم لروح المعاهدة المبرمة بينهم وبينه» (تأمل). ثم يضيف الدكتور مونتجمري مبرراً آخر لما اتخذه النبي ﷺ، ضد يهود بني قينقاع فيقول:

«وقد يكون محمد ﷺ أيضاً على علم بالعلاقات الودية بين اليهود ومناوئيه من قريش في مكة - وهذا بالتأكيد يعدّ مخالفة لروح الاتفاقية المبرمة بين المسلمين واليهود بل وناقضاً لها»[1].

انتهى من كتاب (محمد نبي ورجل دولة) ترجم لنا هذا الفصل الأستاذ أحمد سالم بالعمش.

---

(١) انظر بنود هذه المعاهدة مفصلة في كتاب - الوثائق السياسية ص ١ للدكتور محمد حميد الله.

وعلى أي كان السبب، فإننا على يقين أن النبي الأعظم الذي لا ينطق عن الهوى لا يمكن أن يُقدم على أي عمل إلاَّ وفق قواعد الحق والعدل الذي جاء به من عند الله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾.

حصار بني قينقاع: وإذ رأى النبي القائد ﷺ أن لا مناص من الاحتكام وهؤلاء اليهود المتمردين إلى السيف، إذ لم يجد النصح والمفاوضة فرض الحصار عليهم بعد أن استعدوا لحرب المسلمين فاعتصموا بحصونهم، وكان ذلك في منتصف شهر شوال من السنة الثانية للهجرة، وكان الحصار بقيادة حمزة بن عبد المطلب[1].

وقد دام حصار اليهود خمس عشرة ليلة، قذف الله الرعب بعدها في قلوبهم، إذ انهارت معنوياتهم فطلبوا المفاوضة للتسليم، ففاوضهم النبي ﷺ وانتهت المفاوضة باستسلام هؤلاء اليهود، دونما قيد أو شرط ليحكم فيهم النبي ﷺ بما يريد الله، ومما تجدر الإشارة إليه أن قبيلتي بني قريظة والنضير من اليهود لم يحركوا ساكناً لنصرة إخوتهم في الدين، ويظهر أن مرجع ذلك العداء القبلي المستحكم بين بني قينقاع (حلفاء الخزرج) وبين بني قريظة والنضير (حلفاء الأوس).

المنافقون وبنو قينقاع: لقد كان المنافقون بقيادة زعيمهم (عبد الله بن أبي) يرقبون (باهتمام بالغ) ما كان يجري بين المسلمين وبين يهود بني قينقاع وكانوا يمنون النفس بأن ينجح هؤلاء اليهود في انتفاضهم وتمردهم على المسلمين.

وبما أن قصة التماس رأس النفاق العفو عن يهود بني قينقاع وإلحاحه إلى درجة مضايقة النبي ﷺ والإمساك بدرعه تلفت نظر العاقل إلى أي مدى يبلغ الحلم والأناة والتسامح بالنبي الأعظم إزاء من لا يهمهم إلا القضاء عليه وتحطيم دعوته، فإنه يحسن بنا ذكر هذه القصة التي فيها خير درس لكل من يتولى أمراً من أمور الأمة.

نجاح رأس النفاق في الشفاعة: فقد روى ابن إسحاق أن يهود بني قينقاع لما استسلموا دونما قيد أو شرط، وصار مصيرهم بيد النبي ﷺ يحكم فيهم بما شاء، قام إليه رأس النفاق عبد الله بن أبي فقال: « يا محمد! أحسن في موالي (يعني حلفاءه) فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فكرر ابن أبي طلبه، فأعرض عنه النبي ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فتغيّر لون النبي ﷺ وقال لابن أبي: أرسلني (أي اسحب يدك من درعي)، وغضب ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللا، ثم أعاد ﷺ القول (مغضباً): «أرسلني ويحك».

فلم يستجب رأس النفاق بل ظل ماسكاً درع النبي ﷺ، وألح في طلب العفو عن اليهود قائلاً: (لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة إني والله امرؤ أخشى الدوائر).

ولم يسع النبي الحليم العظيم أمام هذا الإلحاح والمضايقة إلا أن يستجيب لالتماس رأس النفاق فيعفو عن حلفائه اليهود، حيث قال ﷺ: «هم لك».

وبهذا تمكّن رأس النفاق من الحصول على حقن دماء حلفائه بني قينقاع المتمردين الناكثين، فغادروا يثرب سالمين بعد أن كانوا يتوقعون الموت جزاء نكثهم وتمردهم.

طاغية اليهود الأكبر: ولم يتعظ باقي اليهود بما نزل بيهود بني قينقاع (وهم أشجع وأقوى يهود يثرب)، بل ازدادوا توغلاً في سبل الكيد للإسلام والعمل للقضاء عليه بقوة السلاح، إذ رأوا أن غير هذا الطريق الخطر لا يمكن أن يصل بهم إلى أهدافهم الشريرة المبيتة المدروسة.

وكان الطاغية الأكبر والمرابي الشهير وملك المال بين يهود يثرب (كعب بن الأشرف) اليهودي من أشد اليهود استخفافاً بالمسلمين وتحدياً لهم وأكثرهم إيذاءً لرسول الله ﷺ وتحريضاً عليه، وكان شاعراً مُجيداً، فصار بالإضافة إلى كل ذلك يجرح شعور المسلمين فيشبب بنسائهم ويتغزل فيهن بأسمائهن الصريحة.

وكان هذا اليهودي يرجع نسبه إلى قبيلة طيء العربية، وأمه من يهود بني النضير، وكان له حصن منيع في طرف المدينة جنوب وادي مهزور، يحتوي هذا الحصن على المياه وفيه كل ما يحتاجه وأتباعه من سلاح وذخيرة وميرة.

الطاغية ينقض العهد: وكان أول حافز له على نقض العهد ومحاولة تحطيم المسلمين هو انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى.

وذلك أن هذا اليهودي الكبير لما بلغه انتصار المسلمين في (بدر) ورأى زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة [١] اللذين أرسلهما النبي ﷺ يبشران المسلمين بالنصر، وسمع كعب هذا أسماء زعماء قريش وقادتها الذين صرعوا يوم بدر قال في حنق وغيظ:

أحق هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يسمّى هذان الرجلان - يعني زيداً وابن رواحة - فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها[٢].

التحريض على المسلمين: وبالرغم من المعاهدة المعقودة بين المسلمين والتزام اليهود بموجب هذه المعاهدة: عدم تأييد أو مدّ يد العون لقريش عدو المسلمين رقم واحد.. وبالرغم من أن اليهود لم يروا من المسلمين قبل بدر أو بعدها إلا الوفاء بالعهد وعدم إيصال أي أذى إلى اليهود، فإن هذا الطاغية (كعب بن الأشرف) قد اغتلم الحقد والغدر في نفسه فضرب بكل العهود والمواثيق عرض الحائط، وصمم على الانتقام من المسلمين بغياً وحسداً ليس إلا.

الطاغية في مكة: ولعجزه عن القيام (منفرداً) بأي عمل عسكري حاسم ضد المسلمين، فقد خرج من المدينة بقصد تحريض قبائل العرب على النبي ﷺ وحشدهم ودعوتهم إلى شن الحرب على المسلمين، وقد وصل في جولاته التحريضية إلى مكة معقل قريش، فقابل زعماءها (وكانوا له أصدقاء) وفي اجتماعاته بهم صار يثير حفائظهم ويذكّرهم بمصارع ساداتهم في معركة بدر، مثيراً بذلك حقدهم على النبي ﷺ، ومهيجاً في نفوسهم نوازع الانتقام من المسلمين ويشجعهم على شنّ الحرب على النبي ﷺ وأتباعه.

---

(١) انظر ترجمتهما في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٥١.

وقد سلك كل سبيل لإثارة قريش وتحريضها على النبي ﷺ، حتى الشعر جعله من وسائل تحريضه، وكان (شاعراً مُجيداً)، فصار يتنقل بين أندية قريش يلهب كوامن الحقد في نفوسهم بشعره المهيج المثير ويذكرهم بمن قتل من ساداتهم في معركة بدر، ومن شعره الذي قاله في مكة ورثى به قتلى قريش في بدر قوله:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تَستَهِلّ وتدمع
قتلتْ سُراةُ الناس حولَ حياضهم ... لاتبعدوا إن الملوك تُصرّعُ
كَم قد أُصيب به من أبيض ماجد ... ذي بهجة يأْوي إليه الضُّيَعُ
طلْقِ اليدين إذا الكواكبُ أخلَفت ... حمّال أثقال يسودُ ويُربع
ويقول أقوام أُسَرُّ بسخْطهم ... إن ابن الأشرف [(١)] ظل كعباً يجزع
صقوا فليت الأرض ساعة قُتّلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتَصدَّعُ

ثم قال يرثي أبا جهل خاصة:

نبئت أن بني المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدَّعُوا

إلى غير ذلك مما قاله شعراً ونثراً.

ولا شك أن الشعر الجزل من أكبر المؤثرات التي تتأثر به نفوس العرب، فيكون لها اليد الطولى في تحريك النفس وإلهاب العاطفة نحو أية جهة يقصد الشاعر المجيد توجيهها نحوها، وخاصة في ذلك العصر حيث كان العرب (بدون استثناء) على غاية من الفصاحة وفهم الشعر وتذوقه، الأمر الذي كانوا معه على غاية من دقة الحساسية والتأثر في مجال البلاغة.

ولا شك أن شعر كعب بن الأشرف قد كان له أثره المهيج في نفوس قريش بالإضافة إلى محادثاته وتحريضاته في جولاته بين القبائل.

ومما لا جدال فيه أن عمل كعب بن الأشرف التحريضي هذا كان بمثابة العمل التمهيدي لمعركة أحد أو هو من العوامل الفعالة التي ساهمت في التهيئة لهذه المعركة الحاسمة التي نقلتها قريش إلى عُقر دار المسلمين في يثرب بعد سنة واحدة تقريباً من معركة بدر.

---

(١) يعني نفسه.

إذ لم يرجع هذا اليهودي الخبيث من مكة حتى تقرر في مكة غزو المسلمين في عقر دارهم، ولا شك أن كعب بن الأشرف وقد أوعد قريشاً بتأييدهم ومدّ يد العون لهم عندما يقومون بغزو المسلمين، إلا أن الله تعالى عجل بروحه إلى النار قبل أن تنشب معركة أحد.

مقتل طاغية اليهود: وذلك أن كعباً هذا لّما عاد إلى المدينة تعاظم شره وازداد خطره على كيان المسلمين، إذ أصبح مصدر تهديد لسلامة يثرب أجمعها لما يقوم به من تحديات وتحريضات ضد المسلمين سافرة، يضاف إلى هذا سلطانه المالي الذي أخذ يستخدمه للإخلال بالأمن والتحريض على الحرب ضد النبي ﷺ [1] الذي صبر طويلاً على تحديات وتهديدات وإساءات هذا اليهودي الطاغية المتجبر الذي لم ير من النبي ﷺ وصحبه إلا الوفاء بالعهد.

وعندما وصل كعب بن الأشرف إلى هذه المنزلة ـ منزلة العدو الناكث المجاهر بعداواته المتهيئ للحرب والمحرّض عليها، والذي لم يبق له (مع ذلك) عهد ولا ذمة ـ رأى النبي ﷺ أنه لابدّ من وضع حد لطغيان هذا اليهودي ليتخلص المجتمع اليثربي من شروره وآثامه، لأن بقاءه هكذا حُراً يحرّض على الحرب ويعمل على الإخلال بالأمن يعني بقاء يثرب في حالة قلق واضطراب مستمر.

لذلك قرَّر الرسول ﷺ القضاء على هذا اليهودي الغادر الناكث المتمرد، فانتدب لقتله الصحابي الشهير محمد بن مسلمة الأنصاري، فقام بالاشتراك مع عدد من رجال الأنصار بقتله خارج حصنه، فتمكن من ذلك في قصة يطول شرحها [2].

---

(١) جاء في كتاب (معجزة محمد رسول الله) الجزء الثاني ص ٢٤٦ للسيد عبد العزيز الثعالبي ما يلي: فلما قدم الرسول المدينة جاء أحبار اليهود من بني قينقاع وبني قريظة إلى كعب بن الأشرف لأخذ الجوائز منه على عادتهم، فقال لهم: ما عندكم من أمر محمد، فقالوا: هو الذي كنا ننتظره، ما أنكرنا من نعوته شيئاً، فردهم رداً عنيفاً، قال لهم: لقد حرمتم كثيراً من الخير، ارجعوا إلى أهليكم، فإن حقوق الناس في مالي كثير! فانقلبوا خائبين، ثم رجعوا إليه بعد مدة، وقالوا: أنا أخطأنا فيما كنا أخبرناك به أولاً، فإنا لم استأنا علماءنا أرشدونا إلى غلطنا، وقالوا: ليس هو النبي المنتظر، فرضي عنهم ووصلهم وجعل لكل من تبعهم من الأحبار نصيباً من ماله، وكان مكلفاً بهجاء رسول الله في أشعاره، وتحريض الكفار واليهود عليه، وكان يدفعهم إلى قتاله والتأليب عليه.

(٢) انظر التفاصيل في سيرة ابن هشام ج٢ ص ٥٤.

هــدوء اليهود بعد مصرع الطاغية: وقد لزم باقي اليهود الهدوء وعادوا إلى جحورهم يـرتجفون فزعاً، فانطووا على أنفسهم فعمهم الذعر بعد أن وقف النبي ﷺ من تحرشاتهم ومحـاولاتهم العبـث بـالأمن والاسـتقرار تلك المواقف الحازمة التي تقضي مصلحة الأمة ويفـرض الـنص القـرآني الصريح أن يقفها النبي القائد المسئول من كل مخرّب خائن، هذا النص الذي يقضي بالمبادرة إلى ضرب قواعد الغدر والخيانة وشل حركتها قبل أن يتعاظم شرها ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[1].

فقـد كانـت محاصـرة يهود بني قينقاع الناكثين ثم إجلاؤهم عن المدينة، والتمكن من قـتل الطاغية الناكث المتمرد كعب بن الأشرف درساً قاسياً وعاه اليهود جيّداً، فاستكانوا، لأنه تأكد لديهم أن الرسول ﷺ ـ وهو المسئول الأول عن الأمن والنظام والاستقرار في المـنطقة والمكلّـف بحماية دعوة التوحيد من عبث العابثين وتآمر المخربين ـ لن يتوانى في اللجوء إلى القوة والضرب بعنف حين لا يجدي اللين والنصح والصبر والتسامح، مع من يـريد العبـث بـالأمن والاسـتهتار بـالعهود والمواثـيق وعدم احترامها إلاَّ عندما تكون في حاجة إليها.

اســتقرار الأحــوال في المدينة: ولهـذا ـ وبعد تلك الضربات السريعة الحاسمة التي وجههـا النبي القائد إلى أوكار الغدر والخيانة والتآمر ـ فقد استكان اليهود إذ لم يبد منهم (لفـترة محـدودة) أي تحـرش أو اسـتفزاز، فاستقرت الأحوال في الداخل طيلة تلك الفترة بعد أن لزم اليهود والمنافقون الهدوء وتظاهروا بأنهم عند عهدهم وميثاقهم المبرم.

وقـد سـاعد هـذا الهـدوء الداخلـي الـنبي القائد ﷺ على التفرغ لمواجهة التهديدات الخطـيرة الـتي يـتوقع حدوثهـا مـن خـارج المديـنة، وخاصة من جانب الأعراب المحيطين بيـثرب، ومـن جانـب قـريش الـتي لم يغـب عن بال المسلمين أنها لن تسكت عن الإهانة الكـبرى التي نزلت بجيشها ومرّغت كبرياءه في معركة بدر الكبرى والتي زعزعت سلطانها السياسـي والـروحي في كل جزيرة العرب، وأنها لذلك لا بد قائمة بحرب انتقامية واسعة النطاق ضد المسلمين.

---

(١) الأنفال آية ٥٨.

النبي والخطر الخارجي: وفعلاً فقد واجه النبي ﷺ الأخطار الخارجية بمنتهى الحكمة والسرعة والحزم والثبات، فبعد أن فرض الهدوء والاستقرار في داخل يثرب بالقضاء على المخربين والمشاغبين من اليهود وجّه خمس حملات عسكرية ضد الأعداء في الخارج، قاد أربعاً منها بنفسه.. ثلاثاً ضد أعراب نجد الواقعين شرقي المدينة، وواحدة طارد بها غزاة قرشيين جاءوا بقيادة أبي سفيان الذي استعان بأحد سادات يهود بني النضير ليدله على عورات المسلمين وهو سلام بن مشكم.

أما الحملة الخارجية الخامسة فقد قادها مولى النبي ﷺ زيد بن حارثة، فاستولت على قافلة لقريش جاءت من الشام في طريقها إلى مكة عبر طريق جديد يمر شرقي المدينة.

وقد نجح الرسول القائد ﷺ في كل هذه الحملات العسكرية الخمس نجاحاً كاملاً كان له أثره الكبير في شحن نفوس اليهود والمنافقين في الداخل بهيبته، فقد ضرب الأعراب في نجد ضربات سريعة صاعقة شتت بها شملهم في منازلهم، كما أوقع بقريش وأنزل بها خسائر مادية كبيرة زادت قريشاً وهناً على وهن.

الموقف بعد نكسة أحد: سجّل النبي ﷺ كل هذه الانتصارات في الداخل والخارج في الفترة الواقعة ما بين معركة (بدر) ومعركة (أُحُد) التي لم يعد اليهود إلى عبثهم وتحرشهم بالمسلمين وتآمرهم ضدهم إلا بعد أن أصيب الجيش الإسلامي في هذه المعركة بتلك النكسة الموجعة التي فقد المسلمون بسببها سبعين شهيداً من خيرة محاربهم، هم في أمسّ الحاجة إليهم.

فبعد هذه النكسة تحركت كوامن الغدر والخيانة في نفوس اليهود من جديد، فقد شجعتهم هذه النكسة وبعثت الأمل في نفوسهم وزاد الطين بَلَّة أن المعسكر الإسلامي في يثرب أصيب بنكبتين عقب نكستهم في أحد بأشهر قلائل، فَقَدَ المسلمون في هاتين النكبتين أكثر من ثمانين قتيلاً غدراً على أيدي الأعراب في نجد والحجاز كما هو مفصل في حادثتي الرجيع وبئر معونة في الفصل الأول من كتابنا (غزوة الأحزاب)، وهذا يعني أن المسلمين فقدوا في هذه الكوارث الثلاث (وفي سنة واحدة) أكثر من اثنين وعشرين في المائة من قواتهم المسلحة، وهي خسارة مفزعة مخيفة إذا ما علمنا أن مجموع القوات المسلحة الإسلامية الوليدة كلها لم يتجاوز في تلك الفترة الحاسمة أكثر من ثمانمائة مقاتل.

نشـــاط الـــيهود مـــن جديد: وهذا دونما جدال هو الذي شجّع اليهود على استعادة نشاطهم المشبوه ضد العهد الجديد، فأخذوا يتحركون من جديد، فاتصلوا بالمنافقين وصاروا مجتمعين يحبكون المؤامرات ويحيكون الدسائس ضد المسلمين، وعلى الخصوص ضد النبي ﷺ، فأثبتوا مرة أخرى أن العهود والمواثيق التي يبرمونها مع غيرهم إنما هي (في نظرهم) حبْر على ورق يتمسكون عندما يكون في صالحهم وعندما يكونون في حاجة إلى التمسك به.

بنو النضير ينقضون العهد: وقد كان يهود بني النضير هذه المرة هم السابقين إلى نقض العهد والغدر بالمسلمين ومحاولة القضاء عليهم ولو عن طريق القوة وسفك الدم والاغتيال أو حتى إعلان الحرب، شجّعهم على ذلك - بالإضافة إلى ما أصيبت به القوات الإسلامية المسلحة من خسائر فادحة في أحد والرَّجيع وبئر معونة - أن النبي القائد ﷺ كان بعد معركة أُحُد يواجه أخطاراً خارجية كبيرة شرع في معالجتها فوراً.

أتت هذه الأخطار من قبَل أعراب نجد والحجاز الذين عادوا (كاليهود تماماً) إلى نشاطهم ضد المسلمين، طمعوا فيهم بعد أن ظنّوا بهم الضعف والانهيار بعد النكسة العسكرية التي أُصيبوا بها في موقعة أُحُد.

فقد أخذ هؤلاء الأعراب من بني أسد في نجد وهذيل في الحجاز يحشدون قواهم للإغارة على المدينة بقصد القضاء على المسلمين والاستيلاء على كل خيرات المدينة وزروعها وثمارها، مما اضطر النبي القائد ﷺ إلى أن يبادر فيوجه جلّ اهتمامه لدفع هذا الخطر والقضاء عليه في مكان تجمّعه قبل أن يتحرك نحو يثرب.

فجرَّد حملة عسكرية بقيادة أحد أصحابه لتأديب بني أسد وضربهم في ديارهم، كما أرسل أحد الفدائيين من أصحابه إلى الحجاز ليفتك بقائد الحشد الهذلي قبل أن يتحرك بحشوده، وقد نجح النبي ﷺ في تفادي خطر الغزو الخارجي هذا، إذ تمكن قائد جيشه إلى بني أسد من الوصول إلى ديار هذه القبيلة وتشتيت حشودها قبل أن تتحرك، كما تمكن الفدائي من أصحابه من قتل قائد الحشد الهذلي في الحجاز قبل أن يتحرك نحو المدينة، مما فتَّ في عضُد هذيل وحلفائها فعدلوا عن غزو المدينة [1] إلا أن هذه الحركات السريعة

(١) انظر تفاصيل هذه الحوادث في كتابنا (غزوة الأحزاب) الفصل الأول.

الناجحة التي دفع بها النبي ﷺ الخطر الخارجي لم يكن له كبير أثر على تحركات اليهود المشبوهة، فقد استمروا في رسم مخططاتهم العدوانية وتنظيماتهم التخريبية ضد المسلمين، شجّعهم على ذلك ما تعرض له المسلمون من كوارث متلاحقة خلال الأشهر القلائل التي تلت نكبة أُحُد.

فاجعة بئر معونة: ففي شهر صفر من السنة الثالثة للهجرة، وبعد أربعة أشهر فقط من موقعة أُحُد نزلت بالأُمة الإسلامية الوليدة نكبة مروعة، لا تقل في آثارها العميقة الموجعة عن نكبة أُحُد، فقد جاء أحد سادات بني عامر في نجد وهو جعفر بن مالك الملّقب (بملاعب الأسنَّة)، جاء إلى النبي ﷺ وبعد أن سمع منه أعجبه ما سمع فلم يسلم ولكنه لم يبعد من الإسلام، ثم أشار على النبي ﷺ أن يرسل إلى نجد بعثة من أصحابه تدعو إلى الإسلام وتشرح للناس حقائقه وأهدافه لعلهم يستجيبون له.

ولَّما أبدى النبي ﷺ تخوّفه غدر أهل نجد على أصحابه، أعلن الزعيم العامري بأنهم في جواره ما داموا هناك.. والجوار له منزلته العظمى عند العرب، فهو بمثابة صك الحماية والأمان، يبذل معْطِيه روحه للدفاع عمّن أعطاه له.

ولما كان (ملاعب الأسنّة) زعيماً من كبار زعماء بني عامر، وكان صادقاً في حديثه اطمأن النبي ﷺ ووافق على اقتراحه، فأرسل (في جواره) إلى نجد سبعين من خيرة أصحابه وشجعانهم وكبار فقهائهم وقرائهم برسم الدعوة إلى الإسلام ونشره في تلك الربوع بالطرق السلمية التعليمية الصرفة، ولكن عدوّ الله عامر بن الطفيل العامري وهو شاب وثني طائش أرعن استخف بعضاً من قومه الأشرار وبعض القبائل الأخرى المجاورة الذين بلغ عددهم الألف، فغدر بالمسلمين وهم في جوار عمّه، إذ هجم عليهم على حين غرّة فأبادهم عن بكرة أبيهم بعد أن قاوموا مقاومة باسلة [١].

من آثار النكبة: وقد اهتز المجتمع الإسلامي في يثرب لهذه الفاجعة وتأثر النبي ﷺ لها تأثراً عظيماً، بينما سُرَّ المنافقون واليهود سروراً بالغاً، وكان من أثر هذا السرور أن نفخ الشيطان في مناخر يهود بني النضير فنشطت في نفوسهم نوازع الشر والغدر والخيانة، فتحركوا من جديد وعادوا إلى مؤامراتهم الخبيثة، وفي هذه المرة توسعّوا في مخططاتهم الإجرامية مستغلين أثر النكبة الجديدة التي نزلت بالمسلمين في بئر معونة بنجد، وكذلك التي نزلت بهم بعدها في ذات الرجيع.

---

(١) انظر تفصيل هذه الفاجعة في كتابنا (غزوة الأحزاب) الفصل الأول.

فقد بلغت الجرأة بهؤلاء اليهود إلى أن يخطّطوا لارتكاب أشنع جريمة عرفها التاريخ، وهي اغتيال النبي ﷺ، فبعد عدة أيام من الكارثة التي أُصيب بها المسلمون في ديار بني عامر بنجد سنحت الفرصة ليهود بني النضير فعقدوا العزم على تنفيذ مخططهم الإجرامي باغتيال الرسول الأعظم ﷺ في ديارهم. فقد صادف أن رجلاً من المسلمين (عمرو بن أمية الضمري) كان خارج المدينة، فقتل رجلين من بني عامر الذين غدروا بالسبعين من الصحابة وهو يظن أنه قد ثأر للمسلمين، ولم يعلم أن النبي ﷺ، قد أعطاهما عهداً بالأمان بالرغم من أنهما مشركان ومن القبيلة التي غدر رجالها بالسبعين من الصحابة.

النبي في ديار بني النضير: وكما هي عادة النبي ﷺ وسجيته في الوفاء وتنفيذ العهود والمواثيق نصاً وروحاً لم يترك دم هذين العامريين اللذين قُتِلا خطأ يذهب هدراً، فقد قرَّر حسب أصول المعاهدات في مثل هذه الحالة أن يبعث بديتيهما إلى أهليهما في ديار بني عامر الذين اشتركوا في الغدر بالسبعين من الصحابة وهم في جوار سيدّهم ملاعب الأسنّة.

وقد شاء الله (لهذه المناسبة) أن يحضر النبي ﷺ في قلّة من أصحابه إلى ديار يهود بني النضير التي تبعد عن المدينة عدة أميال.. جاء إليهم غير مسلّح لا مستعدّ لحرب، لأن بينه وبينهم معاهدة عدم اعتداء، بل معاهدة دفاع مشترك عن المدينة، لذلك جاء إليهم وهو مطمئن لا يفكر في أنهم سيجرءون على إيصال أي شر إليه.

وسبب مجيئه إلى ديار بني النضير هو التحدث إلى هؤلاء اليهود (بحكم المعاهدة التي بينه وبينهم وبحكمهم حلفاء بني عامر) ليساهموا مع المسلمين في دفع دية ذينك الرجلين العامريين المشركين اللذين قتلهما عمرو بن أُمَية الضَمْري دون علمه بعهدهما.

فرصة كبيرة!! وكان هؤلاء اليهود (كما قلنا) يتحيّنون الفرص ويتصيدون الأوقات المناسبة التي تمكنّهم من اغتيال النبي ﷺ والتخلص منه شخصياً دونما اللجوء إلى شن حرب شاملة سافرة؛ لأنهم أجبن وأحقر من أن يخوضوا مثل هذه الحرب ضد المسلمين في يثرب، ولهذا فقد كان وصول النبي القائد ﷺ إلى ديار هؤلاء اليهود منفرداً في قلة من أصحابه أكبر فرصة تسنح لهؤلاء اليهود المجرمين وتواتيهم لقتل النبي الأعظم ﷺ .

وقد شرعوا فوراً في اغتنام هذه الفرصة في الحال، فعندما فاتحهم النبي ﷺ بشأن ديّة العامريين لم يترددوا في إعلان الاستجابة إلى طلبه حيث قالوا: «نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه»[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩٠.

ولم يكـن إعـلان هـذه الاستجابة من هؤلاء اليهود إلاّ خدعة أرادوا بها تطمين النبي الأعظـم ﷺ ليبقى في ديارهم حتى يتمكنوا من اغتياله بعيداً عن المدينة، وفعلاً شرعوا لا في جمـع المـال الـذي وعدوا بتقدمه مساهمة في دفع ديتي العامريين، وإنما في تنفيذ المخطط الجهـنمي الـذي رسمـوه لاغتـيال الـنبي، ﷺ غـير أن الله سـبحانه وتعالى فضحهم حيث انكشـف أمرهم بعد أن عرف النبي ﷺ حقيقة ما يدبرون له من مؤامرة الاغتيال الفظيعة، فـنجّاه الله مـن شـرّ هذه المؤامرة، إذ تمكّن (بمهارة) من مغادرة ديار هؤلاء اليهود قبل أن يتمكنوا من تنفيذ ما أرادوا تنفيذه من مخطط الغدر والخيانة.

فقـد ذكـر ابن إسحاق أن يهود بني النضير عقدوا اجتماعاً فيما بينهم بمجرد وصول الـنبي ﷺ وبحثوا في هـذا الاجـتماع موضـوع اغتـيال الـنبي ﷺ والتخلّص منه، مغتنمين فرصـة انفـراده بعـيداً عن المدينة، وقد قال قائلهم ومقدّم اقتراح القيام بالاغتيال في الحال «ولا أظنه إلا حييَّ بن أخطب»: إنكم والله لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه [١].

وذكـر بعض المؤرخين (وأظنه ابن سعد) أن أحد سادات بني النضير وأحبارهم وهو (سـلاّم بن مشكم) عارض اقتراح اغتيال النبي ﷺ معارضة شديدة قائلاً: لا تفعلوا والله ليُخبرن بما هممتم به وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه.

غير أن معارضة ابن مشكم هذه رفضت حيث قرر المجتمعون السير في طريق المؤامرة والقيام بتنفيذها بأسرع ما يمكن، وشرعوا (فعلاً) في التنفيذ.

فقـد أسـندوا مهمـة الاغتـيال إلى أحد مجرميهم، فكلفوه بأن يصعد إلى أعلى الحصن الـذي كـان الرسـول الأعظـم ﷺ جالسـاً في ظله آمناً فيلقى عليه صخرة تقضي عليه في الحال.

إلا أن الله تعـالى نجّـى نبـيه إذ بلّغـه نبأ هذه المؤامرة الدنيئة قبل تنفيذها بقليل، فغادر مكانـه قبل الشروع في تنفيذ المرحلة الأخيرة من هذه المؤامرة، ويقول ابن إسحاق إن خبر المؤامرة قد تلقّاه النبي الأعظم ﷺ من السماء [٢].

وهكـذا افتضـح أمـر الـيهود المجـرمين فأُسـقط في أيديهـم وتمنوا لو أنهم أصغوا إلى معارضـة سـلاّم بـن مشـكم الـذي نصـحهم وحذّرهـم وأنذرهـم بـأن الوحي سيكشف للنبي ﷺ خبر هذه المؤامرة إنْ هم استمروا في السير في طريقها الخطر.

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩٠.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص ١٩٠.

المحاصـرة ثم الجـلاء: وبعد أن اكتشف النبي ﷺ هذه المؤامرة عاد لتوه إلى المدينة، ثم وجّه إنذاراً إلى يهود بني النضير بأن يجلوا عن يثرب، وأعطاهم مهلة مدتها عشرة أيام، إذ استدعى الصحابي الشهير محمد بن مسلمة الأنصاري وقال له: «اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم مما هممتم به من الغدر، لقد أجّلتكم عشراً، فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه»[١].

وقد رفض اليهود الإنذار النبوي، وأعلنوا أنهم سيقاومون حتى النهاية، فضرب النبي ﷺ عليهم الحصار فلم يصمدوا فبعد مرور حوالي عشرين يوماً فقط على محاصرتهم شرعوا في مفاوضة النبي للتسليم، وقد انتهت المفاوضة بالاتفاق على أن يجلوا يهود بني النضير عن يثرب جلاءً تاماً، ولهم أن يحملوا من أموالهم ما يقدرون على حمله ما عدا السلاح، وقد ضمن النبي القائد لهؤلاء اليهود عند الجلاء سلامة أرواحهم وأموالهم حتى يجتازوا المنطقة الخاضعة لسلطان المسلمين.

وفعلاً تمّ إجلاءُ هؤلاء اليهود، اللهم إلا من أسلم منهم، وهم رجلان فقط، وبعد أن تمّت عملية الجلاء نزل أكثر هؤلاء اليهود منطقة خيبر، والقليل منهم ذهب إلى الشام، وبجلاء يهود بني النضير لم يبق في منطقة يثرب من اليهود سوى قبيلة واحدة وهي قبيلة بني قريظة الذين يبلغ عددهم رجالاً ونساءً حوالي الألفين، ويقول البخاري أن يهود بني قريظة حاربوا المسلمين إلى جانب بني النضير، إلا أن النبي ﷺ عفا عنهم في الوقت الذي أجلى فيه يهود بني النضير عن المدينة.

وقد أنزل الله تعالى في حادثة بني النضير سورة الحشر بأكملها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾[٢].

مركـز الـتآمر في خيـبر: كانت خيبر (وهي تقع في الشمال الشرقي للمدينة) هي (بعد يثرب) المركز الثاني للتجمع اليهودي في جزيرة العرب، وإذا كان اليهود في يثرب قد بدأوا الصدام بينهم وبين العرب (الأوس والخزرج) ونشبت بينهم الحروب للسيطرة على يثرب قبل ظهور الإسلام بعدّة قرون، فإن اليهود الدخلاء في خيبر منذ تمّت لهم السيطرة على هذه الأرض العربية الزراعية الخصبة لم يستطع أحد من العرب أن ينازعهم السلطة عليها كما حدث لليهود في يثرب.

---

(١) طبقات ابن سعد الكبرى ج٢ ص ٥٧.

(٢) انظر تفاصيل إجلاء يهود بني النضير في كتابنا (غزوة الأحزاب) الفصل الأول.

ولهذا فقد كانت خيبر(حتى سقوطها في أيدي المسلمين) أشبه بمستعمرة يهودية صرفة داخل قلب الجزيرة العربية، فكان اليهود يسيطرون عليها سيطرة تامةً، وكانت لهم فيها قوّات مسلحة كبيرة فكانت لذلك وجهة أكثرية يهود بني النضير الذين أجلاهم النبي ﷺ عن يثرب، فقد نزل هؤلاء اليهود خيبر فرحّب بهم إخوانهم من أهلها، وكان من زعماء بني النضير الذين نزلوا مع قومهم في خيبر، حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحُقَيق، وكنانة بن الربيع.

سيطرة بني النضير على خيبر: لقد كان يهود بني النضير من أغنى أغنياء اليهود في جزيرة العرب، وكانوا يتحكّمون في اقتصاديات منطقة يثرب وما جاورها تحكماً كاملاً، وكان زعماؤهم - بالإضافة إلى هذا - يمتازون بالدهاء والمكر والحقد العارم على النبي ﷺ خاصة.

ومع هذا لم يكن النبي ﷺ شديداً في معاملتهم عندما نفاهم من المدينة بعد ضرب الحصار عليهم، فقد سمح لهم بأن ينقلوا معهم كل ما يقدرون على حمله من الأموال، ومن المعروف عن اليهود منذ القدم أن أكثر ما يكنزونه هو الذهب والفضة.

ولهذا فقد أوقر هؤلاء اليهود عشرات الجمال وحملوا معهم كل ما يملكون من ذهب وفضة وهو شيء عظيم، حتى إن أحد زعمائهم (وهو سلاَّم بن أبي الحُقيق) حمل معه إلى خيبر خزينة كبيرة (جلد ثور) مملوءة ذهباً وفضة، وكان يضرب على هذه الخزينة في حنق وغيظ، وهو يقول: (وكأنه يهدد المسلمين بالحرب): هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها[1].

وبنزول يهود بني النضير في خيبر، شعر هؤلاء اليهود بالنشاط والقوة من جديد، لاسيما أن يهود خيبر دانوا لبني النضير بسبب قوتهم المالية، فصار سادات بني النضير أمثال (حيي بن أخطب وكنانة بن الربيع، وسلام بن أبي الحُقَيق)، هم سادة خيبر الحقيقيين.

لم يتّعظ اليهود بما أصابهم في المدينة وما حلَّ بهم من نفي نتيجة غدرهم وخيانتهم وتآمرهم، ولم يثمر اللين والتسامح الذي انتهجه النبي الأعظم ﷺ معهم حين اكتفى بنفيهم من المدينة وسمح لهم بنقل كلّ ما يقدرون على نقله من أموالهم، بل أبت طبيعة الغدر والخيانة والتآمر السابحة في دمائهم إلاَّ أن تسير بهم في طريقهم المألوف، طريق الدس والفتنة والتآمر وإثارة الحروب ضد المسلمين.

---

(١) من مقدمة كتابنا (غزوة الأحزاب).

اليهود وغزوة الأحزاب: فقد ظلّت أحلام العودة إلى يثرب والسيطرة عليها من جديد تراود زعماء خيبر الجدد من سادات بني النضير المنفيين من يثرب، وزادهم تشبثاً بأحلامهم وسدوراً في غيهم أن رأوا خيبر قد دانت لهم، فرأوا حولهم من القوة فيها ووحدة الكلمة ما لم يروه بين بني دينهم في يثرب، لذلك شرعوا في التآمر من جديد على المسلمين وأخذوا يعدون العدة لتهيئة ضربة إلى المسلمين قرروا أن تكون قاتلة لا حياة بعدها هذه المرة.

فلم تمض على نزولهم خيبر أيام معدودات حتى شرعوا بالاتفاق مع زعماء خيبر في إعداد خطط التآمر الجديدة الموجهة ضد النبي وصحبه في يثرب، وكانت نتيجة هذا السعي والإعداد أنه لم تمض على إقامتهم في منفاهم الجديد (خيبر) أربعة أشهر حتى خرجوا وبمخطط حربي شامل رهيب علّقوا أملهم في العودة إلى يثرب ومحو الوجود الإسلامي على نجاحه.

فقد أعدّوا للتخلص من الإسلام والمسلمين (نهائياً) مشروع غزو شامل كبير يتلخص فيما يلي:

١- السعي لدى القبائل العربية المعادية للإسلام في نجد والحجاز لإثارة كوامن الحقد والبغض في نفوسها ضد المسلمين، وإغرائها بغزو المدينة للسلب والنهب والتخلص من المسلمين.

٢- الاتصال بزعماء وقادة هذه القبائل القويّة ودعوتهم وإغرائهم بالرشوة والوعود لإنشاء قوة عربية وثنية ضاربة من جميع هذه القبائل المختلفة تتّحد في جيش واحد كبير تحت قيادة واحدة.

٣- على أن يكون الهدف الرئيسي لهذه القوة الضاربة هو غزو المدينة واجتثاث جذور الإسلام ومحو كيان المسلمين فيها محواً تاماً.

٤- الاتصال بزعماء يهود بني قريظة الباقين في يثرب (وعدد المقاتلين فيهم حوالي الألف) لإقناعهم بالموافقة على مشروع غزو المسلمين والانضمام إلى الجيوش الغازية إبّان وصولها ضواحي المدينة، والتأكيد لزعماء القبائل العربية المعادية الغازية بأن بني قريظة سيكونون لهم عوناً على المسلمين ساعة شروعهم في غزوهم.

وعلى أساس هذا المخطّط خرج من خيبر وفدٌ يضم زعماء اليهود وعلى رأسهم قادة بني النضير المنفيين من يثرب، يقدمهم رأس الفتنة والشر (حيي بن أخطب)، خرج هذا الوفد اليهودي من خيبر في شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة، بقصد الدعاية لهذا المشروع وتحقيقه بين العرب الوثنيين في نجد والحجاز.

وكانت الوجهة الأولى لهذا الوفد مكة المكرمة، حيث وصل إليها وأجرى محادثات مع زعمائها المشركين حول مشروع الغزو المخطط له في خيبر، وقد لقي هذا المشروع كل الترحيب والتأييد من زعماء قريش، ولم يخرج الوفد اليهودي من مكة حتى ضمن تأييد قريش لذلك المشروع العدواني بعد أن اتفق معهم على الميعاد المحدّد لهذا الغزو.

وبعد أن نال المشروع اليهودي الموافقة التامة من قِبَل زعماء مكة، اتجه الوفد اليهودي ناحية قبائل نجد من غطفان وفزارة وأشجع ومُرّة ولدَى وصول الوفد إلى ديار هذه القبائل عرض على زعمائها مشروع الغزو الخطير، وبعد محادثات غير قصيرة وافقت هذه القبائل على الاشتراك في تنفيذ مشروع الغزو العدواني الخطير، ولم يعد الوفد اليهودي من رحلته إلى مكة ونجد إلا بعد أن حشّد عشرة آلاف مقاتل من قريش وقبائل نجد تحركت كل هذه الآلاف نحو المدينة لغزوها وسحق المسلمين [1] فكانت غزوة الأحزاب الشهيرة التي كانت موضوع كتابنا الثالث من سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) والسابق لهذا الكتاب، الذي هو الكتاب الرابع من هذه السلسلة التاريخية.

وهكذا فغزوة الأحزاب الرهيبة المخيفة تلك، ليست في حدّ ذاتها إلاّ غزوة يهودية صرفة خطط لها التفكير الإسرائيلي في خيبر، وقام بتموينها المال اليهودي الذي لا يُنْفق (إن أُنفِقَ) إلاّ على إثارة الحروب وشراءِ الذمم لبسط النفوذ اليهودي.

ولقد كاد اليهود ينجحون في تنفيذ مشروعهم العدواني الخبيث، إلا أن الله سبحانه وتعالى حال دون تنفيذ هذا المشروع في اللحظات الأخير، إذ ردّ كيد المعتدين إلى نحورهم وحفظ الله نبيه وصحبه فعاد الغزاة يجرون أذيال الخيبة والاندحار لم ينالوا خيراً، ونجت المدينة من خطر الاحتلال، حيث انسحبت جيوش الأحزاب الغازية بعد حصار دام حوالي شهرين من الزمن دون أن تحقق أي هدف من أهدافها العدوانية، كما هو مفصل في كتابنا (غزوة الأحزاب)، كما نال الخونة الغادرون من يهود المدينة جزاءهم العادل

---

(١) انظر التفاصيل الكاملة لهذا المخطط اليهودي الخطير وتفاصيل تنقلات هذا الوفد ومحادثاته مع القبائل النجدية والقرشية في كتابنا (غزوة الأحزاب) الفصل الثاني.

الصارم، كما سيأتي تفصيله في هذا الكتاب، كما مكن الله المسلمين من القضاء على قواعد العدوان اليهودي في خيبر باستيلاء المسلمين على هذه المنطقة وإبادة رءوس الغدر والتآمر فيها الذين وضعوا مخطط مشروع غزوة الأحزاب الرهيبة كما سيأتي تفصيله إن شاء الله في كتابنا (غزوة خيبر) (١) وهو الكتاب الخامس من سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) الذي سيتلو هذا الكتاب مباشرة إن شاء الله.

(١) لم نتوسع في تاريخ يهود خيبر لأننا ستتعرض لذلك بالتفصيل في كتابنا (غزوة خيبر) كما سنفرد كتاباً خاصاً عن تاريخ اليهود في جزيرة العرب إن شاء الله.

الفصل الثالث

- محاسبة يهود بني قريظة على خيانتهم.
- فرض الحصار عليهم.
- استسلامهم دون قيد ولا شرط.
- تحكيم حليفهم سعد بن معاذ.
- الحكم بالإعدام على جميع رجالهم.
- تنفيذ حكم الموت في ثمانمائة رجل منهم.

ذكرنا في كتابنا (غزوة الأحزاب) الفصل الأول: أن هناك معاهدة تحالف قد عقدت بين المسلمين واليهود جميعاً، تتكوّن هذه المعاهدة من عدة بنود، من بينها بند، نصَّ صراحة على التزام المسلمين واليهود بواجب الدفاع المشترك عن يثرب ضد أي اعتداء خارجي، عبء المسلمين في مسؤولية هذا الدفاع كعبء اليهود تماماً.

كما نصّت هذه المعاهدة (أيضاً) على وجوب التزام الفريقين بالتعايش السلمي والتعهّد بعدم اعتداء أحدهما على الآخر في الداخل.

وكان المفروض (طبْقاً لهذه المعاهدة) أن ينضم يهود بني قريظة إلى جانب المسلمين للدفاع عن المدينة عندما أحاطت بها جيوش الأحزاب، وأن يكونوا ضمن جيش المسلمين في مواجهة تلك الجيوش الغازية المعتدية.

ولكن الذي حدث من بني قريظة (كما فصلناه في كتابنا - غزوة الأحزاب - في مكانه) هو العكس، فقد غدر هؤلاء اليهود بالمسلمين وحاولوا ضرب جيشهم من الخلف في أحرج الظروف وأدق ساعات المصير.

حيث أعلن هؤلاء اليهود (بدلاً من قيامهم بالتزامات المعاهدة) أعلنوا انضمامهم إلى الغزاة المعتدين في تلك الساعات الرهيبة الحاسمة التي كان فيها مصير كل الكيان الإسلامي في مهبّ العاصفة حيث كان جيش المسلمين الصغير الذي لا يزيد عدده على ألف مقاتل يواجه عشرة آلاف مقاتل يفوقونه في كل شيء مادي، قد أحاطوا به كما يحيط البحر الهادر بالجزيرة الصغيرة ويهددها بالابتلاع من جميع جهاتها في كل لحظة.

لقد غدر بنو قريظة بالمسلمين تلك الغدرة الشنعاء، غير مبالين بشرف الكلمة التي أعطوها لهم بتوقيعهم على معاهدة التحالف تلك، ولا مقدرين لما يترتب على ذلك الغدر الشنيع من نتائج خطيرة.. غدروا بالمسلمين وخانوهم في تلك الظروف الحربية الخانقة، بالرغم من أن هؤلاء اليهود - باعتراف زعيمهم كعب بن أسد - لم يروا من النبي ﷺ وأصحابه إلا الصدق والوفاء بالعهد والوقوف بشرف عند الكلمة التي أعطوها في عهد التحالف المبرم بين الفريقين[1]. فضرب بنو قريظة بذلك أعلى رقم قياسي في دنيا الغدر والخيانة، فأعطوا الدليل (مرة أُخرى) علي خبث معدنهم، وعلى اللؤم والنذالة والخسة المتأصلة في نفوسهم والسابحة في كيانهم، سبح الدم في شرايينهم، وعلى أن العهود والمواثيق (عندهم) لا قيمة لها ولا احترام، إلا عندما يكون في الالتزام بها وتنفيذها مصلحة لهم.

وذكرنا في كتابنا (غزوة الأحزاب) الفصل الثالث وما بعدها - أن النبي ﷺ - إقامة للحجة ومحاولة لإصلاح ما أفسده اليهود - أرسل وفداً إليهم ليذكّرهم بالعهد ويطالبهم بالوفاء به والقيام بتنفيذ التزاماته، وذكرنا أن هذا الوفد وصل (فعلاً) إلى ديار بني قريظة برئاسة حليفهم سيد الأوس سعد بن معاذ، فذكرهم ونصحهم وحذَّرهم مغبة الإصرار على السير في طريق الغدر والخيانة ونبههم (بصدق) إلى ما قد يترتب على ذلك من نتائج وخيمة قد يكون فيها إبادتهم جميعاً.

وذكرنا أنَّ هؤلاء اليهود قد ردّوا هذا الوفد ردّاً قبيحاً وأعلنوا في (صفاقة ووقاحة) بأنهم لن يتراجعوا عن موقف الخيانة والغدر الذي أعلنوه، وأنهم قد أصبحوا حرباً على المسلمين، وأنهم لا يعرفون محمداً ولم يعد بينهم وبينه أي عهد أو حلْف.

وذكرنا أنهم بدأوا بالفعل في الاستعداد للهجوم على المسلمين من الخلف حسب الخطة المتفق عليها مع الغزاة، وأنهم بدءوا، يمدون الغزاة بالمؤن [2] كدليل عملي على انضمامهم إليهم. ضد مواطنيهم وحلفائهم المسلمين.

---

(١) انظر اعترافات سيد بني قريظة هذا بوفاء النبي صلى الله عليه وسلم بالعهد وصدقه في تنفيذه في كتابنا (غزوة الأحزاب) الفصل الثالث ص ١٨٣.

(٢) انظر تفصيل مصادرة المسلمين لعشرين جملاً محملة بالمؤن أرسلها بنو قريظة للأحزاب في كتابنا (غزوة الأحزاب) الفصل الثالث ص ٢٢٣ الطبعة الفائتة.

بنو قريظة وإبادة المسلمين: لقد اعتبر بنو قريظة وجود جيوش الأحزاب الضاربة حول المدينة فرصة ثمينة للتعجيل بسحق المسلمين وإبادتهم إبادة كاملة.

وما كانوا يشكون لحظة (إذ ارتكبوا ما ارتكبوا) في أن جيوش الأحزاب قادرة كل المقدرة على إبادة المسلمين واستئصال شأفتهم استئصالاً كاملاً، ولذلك لم يتورعوا عن الانضمام إلى الغزاة، إذ فعلوا ذلك غير مبالين بما أعطوا من عهود وأبرموا من مواثيق.

وقد ذكرنا عبر كتابنا (غزوة الأحزاب) كيف انتهى ذلك الغزو المخيف بانسحاب الأحزاب دون أن تتمكن قواتهم من اقتحام المدينة، ودون أن تحقق أي شيء من الأهداف التي جاءت لتحقيقها وكيف ترك بنو قريظة وحدهم في الميدان ليواجهوا المصير الذي يستحقه كل خائن وغادر وناكث.

غزوة بني قريظة امتداد للأحزاب: وعلى هذا فإن غزوة بني قريظة في حدّ ذاتها هي امتداد لمعركة الأحزاب، فقد كان يهود بني قريظة يمثّلون الجناح الثالث للاتحاد العسكري الوثني اليهودي الذي قام لسحق المسلمين وإبادتهم إبادة كاملة.

فبنو قريظة بالإضافة إلى إرتكابهم جريمة الخيانة العظمى، يعتبرون غزاة محاربين بانضمامهم إلى جيوش الأحزاب الغازية وإعلانهم بأنهم جزء لا يتجزأ منهم ضد المسلمين، ومباشرتهم، بالفعل التحرك لضربهم من الخلف مساندة للغزاة وقيامهم بمد هؤلاء الغزاة بالتموينات.

وعلى هذا فإن معركة الأحزاب عندما انتهت بذلك النصر المؤزّر للمسلمين على المشركين باندحارهم وانسحابهم خائبين لم يحققوا شيئاً من أهداف غزوهم.. هذه المعركة عندما انتهت باندحار المشركين، إنما انتهت (فقط) بالنسبة لجناحين من أجنحة ذلك الاتحاد الوثني اليهودي، وهما جناحا قريش وغطفان اللذين انشمرت حشودهم الضخمة من حول المدينة وعادت إلى ديارها مجللة بعار أشنع هزيمة في تاريخها العسكري الطويل، بعد حصار رهيب مزعج مخيف دام شهراً كاملاً.

تصفية الحساب مع اليهود: أما الجناح الثالث من أجنحة هذا الاتحاد المخيف الذي يمثّله يهود بني قريظة الذين سجلوا بصنيعهم ذاك أخس وأشنع جريمة في تاريخ الخيانة والغدر، فلم ينته الحساب معه بعد.

لقد كان بنو قريظة يتوقعون من الجيش الإسلامي هذا الحساب الذي ما كانوا يشكّون لحظة في أنه سيكون حساباً عسيراً يتناسب وفظاعة الجريمة التي ارتكبها هؤلاء اليهود ضد هذا الجيش الذي لم يروا من قائده الأعلى وكافة زعمائه وأفراده إلاَّ الصدق والبّر والوفاء بالعهد.

ولذلك فقد اعتصم هؤلاء اليهود الغادرون بحصونهم، يرتجفون فزعاً من المصير المرعب الذي ينتظرهم على أيدي المسلمين جزاء غدرهم وخيانتهم التي قاموا بها ضد المسلمين في ذلك الظرف الحرج الذي بلغت فيه حالة المسلمين أقصى درجات الخطورة، والذي فيه - بدلاً من أن يفي هؤلاء اليهود بالتزاماتهم العسكرية نحو المسلمين فينضموا بأسلحتهم ضد جيوش الأحزاب الغازية الباغية، كما تفرض عليهم اتفاقية الدفاع المشترك المعقودة بينهم وبين المسلمين[١] - استداروا بأسلحتهم وحاولوا طعن المسلمين من الخلف بغية التعجيل بالقضاء عليهم.

مع أن هؤلاء اليهود لم يروا من النبي ﷺ وصحبه - منذ تم التحالف بين الفريقين - إلا الصدق والبر والوفاء، ولكنه الغدر السابح في دماء هؤلاء اليهود الذين هم أئمته وأساتذته في كل عصر وزمان.

غير أن تصفية الحساب مع هؤلاء اليهود الغادرين، كانت على قدر الرصيد، فقد كان مستوى العقوبة في مستوى الجريمة.

ذلك أن جريمة غدر اليهود وخيانتهم إذا كانت قد بلغت غايتها في الفظاعة والبشاعة، فإن نتيجة محاكمتهم على هذه الخيانة كانت غاية في الشدة والصرامة.. جزاءً وفاقاً.

ويظهر من سير الحوادث أن النبي القائد ﷺ كان يفضّل إعطاء جيشه قسطاً من الراحة قبل الزحف على معاقل الغدر والخيانة في بني قريظة لمحاسبتهم.

ولكن الأوامر الصريحة المشدّدة جاءته من السماء بأن لا يفعل، وأن يسارع - قبل أن يضع جنده السلاح - بالزحف على حصون اليهود لإنزال العقاب العادل بأُولئك الخونة المجرمين الذين كادوا - بغدرهم وخيانتهم - يتسببون في إبادة الجيش الإسلامي الناشئ الصغير ومحو الكيان الإسلامي من الوجود.

---

(١) انظر أهم بنود هذه المعاهدة في كتابنا (غزوة أحد) ص ٣٤ وما بعدها، انظر بنود هذه المعاهدة مفصلة في كتاب (الوثائق السياسية) للدكتور محمد حميد الله ص١ وما بعدها، وسيرة ابن هشام ج١ ص ٥٠١.

فقد روى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان عندها، قالت: فسلم علينا رجل ونحن في البيت فقام رسول الله ﷺ وقمت في أثره، فإذا رجل على فرس والنبي ﷺ متكأ على معرفة الفرس يكلمه، قالت: فرجعت، فلما دخل ﷺ، قلت: من ذلك الرجل الذي تكلمه؟.

قال: بمن تشبهينه؟.

قلت: بدحية الكلبي.

قال ذاكِ (بكسر الكاف) جبريل (عليه السلام)، أمرني أن أمضي إلى بني قريظة.

وروى ابن إسحاق، قال: ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف من الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون قد وضعوا السلاح.

فلما كانت الظهيرة أتى جبريل رسول الله ﷺ معتجراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحاله. عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟.

قال: نعم.

فقال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلاّ من طلب القوم، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزلهم.

وفي بعض الروايات، أن النبي ﷺ طلب التأجيل أياماً، ليأخذ فيها جنده المتعب قسطاً من الراحة، قائلاً لجبريل: إن في أصحابي جهداً فلو نظرتهم أياماً.

فقال جبريل عليه السلام: انهض إليهم فوالله! لأدقنَّهم كدق البيض على الصفا، ولأدخلن فرسي هذا عليهم في حصونهم ثم لأضعضعنها.

وأمام هذا الأمر العاجل بالزحف على حصون بني قريظة لم يسع النبي ﷺ إلاّ أن يسارع بتنفيذ أمر ربه الذي تلقاه من جبريل.

فقد أصدر القائد ـ الأعلى النبي ﷺ ـ أوامره الحازمة العاجلة إلى جند الإسلام بالتحرك (فوراً) نحو منازل يهود بني قريظة لتصفية الحساب معهم.

مرسوم الزحف على اليهود: وقد جاء هذا الأمر الكريم في مرسوم نبوي تلاه على الجند مؤذّن رسول الله ﷺ بلال بن رباح [1] حيث نادى في الجيش (حسب أمر الرسول ﷺ) قائلاً: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى)، طبعة ثانية.

وكـان صدور الأمر النبوي بالتحرك نحو منازل بني قريظة بعد دخول وقت الظهر في اليوم التالي لمعركة الأحزاب.

وقـد أطـاع المسـلمون أوامر قائدهم الأعلى ﷺ فابتدروا سلاحهم، وأخذت كتائب الإسلام تتدفق في اتجاه معاقل اليهود.

وسـارع الرسـول ﷺ إلى سـلاحه فـتدجج بـه، فلـبس الدرع والمغفر والبيضة وأخذ الرمح في يده، ثم امتطى صهوة جواده المسمى (باللّحيف).

أمير المدينة: ولما كانت منازل بني قريظة الواقعة جنوب شرقي المدينة، تبعد عن المدينة عدة أميال، فقد أصدر النبي ﷺ مرسوماً عيّن بموجبه ابن أم مكتوم أميراً على المدينة حتى يفرغ من أمر بني قريظة.

وعندما اعتزم الرسول التحرك بجيشه نحو بني قريظة أعطى اللواء لعلي بن أبي طالب رضـي الله عنه، وكان هذا اللواء هو نفس اللواء الذي قاتل المسلمون تحته أيام الخندق، لم يحل من ساريته.

وقد أصدر النبي ﷺ أمره إلى علي بن أبي طالب بأن يكون في مقدمة الجيش، ويسبق باللواء إلى ديار بني قريظة حتى يصل إليها قبل وصول عامة الجيش.

فسارع عليّ (في مفرزة من جند الإسلام) حتى إذا ما وصل بين حصون اليهود، غرز اللواء هناك، فعلمت قريظة أنها الحرب ولا شيء سواها.

فـرض الحصـار عـلى اليهود: وتتابعـت كتائب الإسلام (بقيادة الرسول ﷺ) حتى أحاطت بمعاقل بني قريظة وطوَّقتها من كل مكان.

ويظهـر أن زحف المسلمين على بني قريظة كان على غير تعبئة حيث ثبت أنهم كانوا يـتجهون نحو اليهود جماعات جماعات، فلم يكونوا في هذه الحركة جيشاً واحداً يمشي على تعبئة (بساقة ومجنبة ومقدمة)، كما هو الحال في كل الحملات التي كان النبي ﷺ يقودها.

فقـد روى موسـى بـن عقـبة في مغازيـه عـن الزهـري قال: فبينما رسول الله ﷺ في مغتسله قد رجل أحد شِقّيه أتاه جبريل على فرس عليه لأمته (أي عدة حربه) حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال له جبريل: غفر الله لك أوقد وضعت السلاح؟.

قـال: نعـم. فقال جبريل: لكنا لم نضعه منذ نزل بك العدوّ، ومازلت في طلبهم حتى هزمهم الله.

ثم قال له جبريل: إن الله يأمرك بقتال بني قريظة، فخرج رسول الله في أثر جبريل، فمرَّ ﷺ على مجلس بني غنم، وهم ينتظرون رسول الله ﷺ فسألهم فقال: مرَّ عليكم فارس آنفاً؟.

قالوا: مرَّ علينا دِحيْة الكلْبي على فرس أبيض تحته نمط وقطيفة ديباج عليه اللأْمة، فذكروا أن رسول الله ﷺ قال لهم: ذاك جبريل« وكان رسول الله ﷺ يشبه دحية الكلبي بجبريل» فقال رسول الله ﷺ: الحقوني ببني قريظة فصلّوا فيهم العصر. وهذا يدل (دونما شك) على أن المسلمين زحفوا إلى بني قريظة على غير تعبئة وإنما ذهبوا إليهم في دفعات على غير نظام.

ويظهر أن السبب في ذلك هو قصر المسافة التي لا يخشى فيها المسلمون أية مباغتة من عدو أو كمين يُنصب لهم، لأن كل المنطقة التي قطعوها إلى بني قريظة أراضٍ إسلامية صرفة.

وقفة فقهية هامة: قبل الدخول في تفاصيل غزوة بني قريظة وأحداثها ونتائجها يجدر بنا أن نقف وقفة فقهية، قد يستفيد القارئ منها.

لقد كان الأمر النبوي القاضي - عند الزحف على بني قريظة - بأن لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة نصاً تشريعياً اختلف حوله الباحثون من فقهاء الإسلام وأئمة الحديث.

وذلك أن الصحابة الذين صدر إليهم الأمر بأن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، قد انقسموا في فهم هذا الأمر النبوي إلى قسمين.

وذلك أن صلاة العصر حانت وهم لّما يزالوا في الطريق إلى بني قريظة، فناقشوا الموضوع على ضوء الأمر النبوي، فرأت طائفة من الصحابة أنه لا يمكن تأخير الصلاة عن وقتها وأن (لذلك) لابدَّ من أدائها قبل الوصول إلى بني قريظة، وقد فسّرت هذه الطائفة الأمر النبوي (بأن لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة) بأنه إنما يعني الحضَّ بتعجيل السير إلى بني قريظة لا تأخير الصلاة عن وقتها.

وقد قامت هذه الطائفة بأداء صلاة العصر في وقتها أثناء الطريق وقبل الوصول إلى بني قريظة، استناداً إلى تفسيرهم الذي ذكرنا.

أما الطائفة الأخرى من الصحابة فقد رأت أنه لابد من تنفيذ الأمر النبوي (حرفياً) وأنه لذلك لابد من أداء صلاة العصر في بني قريظة حتى وإن كان ذلك بعد غروب الشمس الذي لم يبق معه وقت أساسي لصلاة العصر. وفعلاً، فإن هذه الطائفة من الصحابة لم تصلّ العصر (ذلك اليوم) إلاَّ في بني قريظة، وكان ذلك بعد غروب الشمس، وهي إذ فعلت ذلك إنما تعتقد أنها قد امتثلت الأمر النبوي الذي ينص (صراحة) على ما فعلت.

النبي يقر الجميع: وقد بلغ النبي ﷺ ما صنعت الطائفتان فلم يعنّف أحداً منهما ولم يلمه على ما فعل، بل أقرَّ الجميع، الذين صلّوا العصر في الطريق (في وقتها)، والذين أخّروها وصلوها في بني قريظة بعد غروب الشمس.

فقد روى أصحاب الحديث والمغازي (كما في البداية والنهاية) من حديث موسى بن عقبة قوله: وانطلقوا (أي المسلمون) إلى بني قريظة فحانت صلاة العصر وهم بالطريق فذكروا الصلاة فقال بعضهم لبعض: ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ أمركم أن تُصلّوا العصر في بني قريظة؟.

وقال آخرون: هي الصلاة، فصلىّ منهم قوم وأخرت طائفة الصلاة، حتى صلوها في بني قريظة، بعد أن غربت الشمس فذكروا لرسول الله ﷺ من عجل منهم الصلاة ومن أخّرها، فذكروا، أن رسول الله ﷺ لم يعنف واحداً من الفريقين.

وجوب احترام وجهات النظر المختلفة: وقد وضع النبي ﷺ بتصرفه الحكيم هذا، الذي لم يعنّف فيه أحداً من الفريقين على ما صنع.. وضع قاعدة تشريعية هامة يتحتم بموجبها احترام وجهات النظر المختلفة في فهم النصوص بشرط أن يكون هذا الاختلاف عن اجتهاد نزيه سليم صادق.

كما هو الحال عندما اختلف الصحابة رضوان الله عليهم حول مفهوم الأمر النبوي بشأن صلاة العصر، فقد كان هدف كل من الفريقين هو (فقط) أداء الصلاة على النحو الذي يرضي الله عنه ورسوله.

ومن الجدير بالذكر أن النبي ﷺ قد اعتبر صلاة كل من الطائفتين صلاة صحيحة، حيث لم يأمر أحداً منهما بإعادة صلاته سواء الذين أدّوها في الطريق في وقتها، أو الذين أدّوها في بني قريظة بعد خروج وقتها.

هكذا قالت قريظة الغدر والخيانة عندما أحاطت بها خطيئتها وحاق بها مكرها السيئ، فوجدت حصونها الشامخة غارقة في بحر متلاطم من جند الإسلام الحانقين الذين بلغت في نفوسهم مشاعر الغيظ حدَّ الغليان على هؤلاء اليهود الذين ما كانوا ليترددوا لحظة في سحق المسلمين سحقاً كاملاً لو تمكنوا من ذلك، فقد كان هذا غاية مرادهم عندما نقضوا الحلف وخانوا العهد، ولكن الله غالبٌ على أمره، فقد أبى الله سبحانه وتعالى إلا أن ينصر عبده ويعزَّ جنده ويهزم الأحزاب وحده.

فهاهم اليهود من قريظة الخائنة يتعثرون في دروب الحسرة والندامة، ويسيرون نحو المصير المرعب الذي أرادوه للمسلمين وسعوا جهدهم للدفع بهم إليه.. ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

محاولة عقلاء اليهود إنقاذ الموقف: ذكرنا في كتابنا - غزوة الأحزاب - أن أربعة من عقلاء اليهود حذَّروا قومهم من مَغبّة نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين وطلبوا منهم عدم الاستجابة لوساوس شيطان بني النضير: حيي بن أخطب الذي حمل بني قريظة على نقض العهد وخيانة الميثاق.

وذكرنا أن هؤلاء العقلاء الأربعة (وعلى رأسهم عمرو بن سعدي أخو بني قريظة أنفسهم) قد أبوا الاشتراك في جريمة خيانة المسلمين والغدر بهم، وأعلنوا للملأ أنهم باقون على عهدهم، وذكرنا أن ثلاثة منهم قد أسلموا، وأن الرابع (هو عمرو بن سعدي، سيِّد من ساداتهم) بقي على يهوديته ولكنه بقي على عهده وأعلن تمسكه بالميثاق الذي بين المسلمين واليهود، وأبى الغدر بالمسلمين.

وقد حاول هذا اليهودي الزعيم الوفي أن ينقذ قومه من المصير المرعب الذي كان ينتظرهم جزاء غدرهم وخيانتهم وذلك بأن اقترح عليهم إتباع النبي ﷺ والدخول في الإسلام..

لاسيما وأنهم يعلمون أنَّ محمدا ﷺ نبياً مرسلاً، كما هو مكتوب عندهم في التوراة.

زعيم يهودي يدعو قومه للدخول في الإسلام: فعندما بلغ عمرو بن سعدي هذا انسحاب الأحزاب، جاء إلى قومه بني قريظة ودعاهم إلى اجتماع عاجل، وذلك قبل وصول جيش النبي ﷺ لضرب الحصار عليهم.

وفي هـذا الاجـتماع الـذي حضره كل زعماء بني قريظة، وقف هذا اليهودي العاقل، وقـال لقومـه (بعـد أن أنّـبهم ووبخهـم عـلى نقضـهم العهـد الذي بينهم وبين المسلمين، وذكـرهم بمـا نصـحهم به قبل إقدامهم على جريمة الخيانة): يا بني قريظة لقد رأيت عِبراً، رأيـت دار إخوانـنا ـ يعني بني النضير ـ خالية بعد ذلك العزّ والخلب والشرف والرأي الفاضل والعقل.. تركوا أموالهم قد تملكها غيرهم وخرجوا خروج ذُلّ.

ثـم أكّـد لهـم (كعـالم مـن عـلماء الـتوراة) أنـه لا يعادي أحدٌ محمداً إلا كان مصيره الخسـران، فقال: لا والتوراة! ما سُلط هذا (يعني النبي ﷺ) على قوم قط ولله بهم حاجة، وقد أوقع ببني قينقاع وكانوا أهل عُدَّة وسلاح ونخوة.

فـلم يخـرج أحـد مـنهم رأسـه حـتى سـباهم، فكُلِّم فيهم فتركهم على إجلائهم من يـثرب، ثم دعا عمرو بن سعدي قومه بني قريظة إلى الدخول في الإسلام ليحقنوا دماءهم ويتبعوا الحق قائلاً:

يـا قـوم! قد رأيتم ما رأيتم، فأطيعوني وتعالوا نتبع محمداً، فوالله! إنكم لتعلمون أنه نـبي، وقـد بشـرنا بـه علماؤنا، ثم لا زال ابن سعدى يخوفهم بالحرب والسبي وأقبل على سيدهم كعب بن أسد وقال له:

والـتوراة الـتي أنزلت على موسى عليه السلام يوم طور سيناء! إنّه للعز والشرف في الدنيا (يعني الدخول في الإسلام).

وبيـنما عمـرو بـن سـعدى يـتحدث إلى قومـه في ذلـك الاجتماع إذ بطلائع الجيش النـبوي تظهـر عليهم زاحفة نحو حصونهم، وهنا قطع الزعيم اليهودي ابن سُعْدى حديثه قائلاً: هذا الذي قلت لكم، أي وحذرتكم من وقوعه.

ومـع كـل هـذا فقد رفض بنو قريظة نصيحة عمرو بن سعدى الذي دعاهم فيها إلى الدخول في الإسلام.

فـتقدم إلـيهم (كمحاولـة أخـيرة) بـاقتراح آخر ـ محاولاً إنقاذهم ـ فقال لهم: لقد خالفـتم محمـداً، ولم أشـرككم في غدركـم، فـإن أبيتم أن تدخلوا معه في دينه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية، فوالله! ما أدري، أيقبلها منكم أم لا..

ولكـنَّ بني قريظة رفضوا (أيضاً) حتى هذا الاقتراح، حيث كان جوابهم (والغرور لما يزل يشحن رؤوسهم): نحن لا نقرّ للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه، القتل خير من ذلك.

أمّا فقهاء الإسلام فقد اختلفوا كذلك في فهم الأمر الصادر بهذا الصدد، عند البحث في باب تأخير الصلاة وتقديمها في السفر وغيره.. اختلفوا في أيّ من الفريقين من الصحابة هو المصيب يومئذ.

إلا أنهم مع هذا الاختلاف قد أجمعوا على أنَّ كُلاًّ من الفريقين مأجور.

ففريق من العلماء (وعلى رأسهم أبو محمد بن حزم) يرى أن الذين أدّوا الصلاة في الطريق في وقتها أخطأوا في اجتهادهم، وأن الذين أدوها في بني قريظة بعد غروب الشمس في غير وقتها هم المصيبون لأنهم صلّوا كما أمر النبي ﷺ.

تأخير الصلاة أقرب إلى الصواب: فقد قال أبو محمد في كتابه (جوامع السيرة): وعلم الله أنا لو كنا هناك لم نصلِّ العصر إلاَّ في بني قريظة، ولو بعد أيام.

وهذا القول من ابن حزم قد جاء على قاعدته الأساسية في الأخذ بالظاهر، فهو ظاهري المذهب، لا يرى أيّ مبرر لصرف النص عن ظاهره ما لم يأت ما يوجب ذلك عن الشارع نفسه، وهو قول (في الحقيقة) أقرب إلى الحق والصواب من جميع الأقوال والآراء التي تخالفه.

ومما تجدر الإشارة إليه (هنا) هو أن النبي ﷺ وبعضاً من أصحابه قد أخروا صلاة الظهر والعصر ولم يصلوهما إلاَّ بعد غروب الشمس، وذلك في أحد أيام الخندق العصيبة عندما اشتد زَخَم المشركين في هجومهم فشغلوا المسلمين طيلة نهارهم ولم يتركوا لهم فرصة يؤدّون فيها الصلاة في وقتها، مما أجبر المسلمين على ملازمة مواقعهم الدفاعية، الأمر الذي أدَّى إلى فوات صلاة الظهر والعصر عليهم.

تأخير الصلوات لعذر القتال: وقد ذهب الإمام محمد بن إسماعيل البخاري إلى القول بتأخير الصلاة عن وقتها سواء كانت ظهراً، أو عصراً، أو مغرباً أو صبحاً، أو عشاءً (لعذر القتال) وذلك إذا ما اضطرت المعركة الجنودَ ملازمة مواقعهم، كما حدث في معركة الخندق، وسند البخاري في هذا القول هو فعل النبي ﷺ وصحابته في ذلك اليوم الذي اضطرتهم فيه ظروف القتال إلى تأخير صلاة الظهر والعصر والمغرب إلى وقت العشاء.

وأعتقد (وهذا رأي شخصي فحسب) أن قول الإمام البخاري هذا هو أقرب إلى روح الشريعة الإسلامية، وأجدر أن يتّبع وخاصة في هذا العصر، والله وحده أعلم بالصواب.

نـيل اليهود من الذات النبوية الكريمة: وعـندما نظر يهود بني قريظة إلى طلائع الجيش النـبوي تتقدم نحو معاقلهم بقيادة عليّ بن أبي طالب، فاضت نفوسهم الشريرة ببعض ما تختزنه من خبث ودناءة ووضاعة.

فقد أسمعوا ابن عم رسول الله ﷺ (عليّ بن أبي طالب) في نبي الله (عليه السلام) ونسائه الطيبات الطاهرات من السبّ والشتم والقذف ما لم يسمح أحد من المؤرخين لنفسه بأن يورد نصه لفظاعته وبشاعته.

ومع هذا فلم يرد المسلمون على هؤلاء اليهود السفهاء، بل التزموا الصمت، وكلّ الجواب الذي سمعه اليهود على شتمهم للنبي ﷺ ونسائه الطيبات، هو قول عليّ بن أبي طالب. السيف بيننا وبينكم.

ولم يردّ المسلمون على الشتم بمثله، لأنهم يسيرون في معاملتهم للناس (أيًا كانوا) حسب توجيه القرآن وتأديبه، وليس من آداب القرآن أن يقابل المسلم فاحش القول بمثله.

غير أن عليّ بن أبي طالب - وهو أول من سبق باللواء إلى بني قريظة - أشفق على الرسول ﷺ من أن يسمع في نفسه وفي نسائه ذلك السب القبيح.

النبي القائد في ديار قريظة: ولذلك فإن علياً لما رأى رسول الله ﷺ مقبلاً من بعيد، ترك مقر كتيبة اللواء المرابطة حول حصون اليهود وانطلق - بعد أن أناب عنه في حمل اللواء وقيادة الكتيبة أبا قتادة الأنصاري [١] - انطلق مسرعاً نحو رسول الله ﷺ واستوقفه على بُعْد من حصون اليهود وطلب منه أن يقف بعيداً عن هذه الحصون لئلا يتأذى بسماع ما فاه به اليهود من سب مقذع فيه وفي نسائه.

فقال عليّ: لا عليك يا رسول الله أن تدنو من هؤلاء الأخابث.

فقال النبي ﷺ: لعلك سمعت منهم لي أذىً؟.

قال: نعم يا رسول الله.

فقال ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً [٢].

ثم واصل الرسول القائد ﷺ تقدمه نحو حصون اليهود تحيط به هيئة أركان حربه من صفوة أصحابه، حتى دنا من حصون قريظة الغادرة.

---

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد).

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٤.

حديث النبي مع اليهود وقت الحصار: وهناك وحيث يسمع النبي ﷺ كلام اليهود ويسمعون كلامه نادى نفراً من قادتهم، فلما ظهروا في أبراج حصونهم قال لهم ﷺ، يا إخوة القردة وعبدة الطاغوت، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته [1]؟ وهنا أدركت اليهود طبيعتهم (سفاهة واعتداءً وغدراً وتطاولاً إذا قدروا، واستكانة وتلطفاً ووداعة إذا عجزوا) فعندما رأوا الرسول القائد ﷺ تحيطه هيئة أركان حربه وقد اتخذت كتائبه مواقعها حول الحصون، تأكد لديهم تصميم المسلمين على الإيقاع بهم ومحاسبتهم على ما ارتكبوا من فظيع الغدر وشنيع الخيانة، فأسقط في أيديهم فصاروا يتوددون إلى الرسول القائد.

فقد أنكروا أن يكونوا شتموه ونساءه، وانطلقوا يحلفون (كذباً) أنهم ما فاهوا بشيء مما بلغه بهذا الشأن، ثم اندفعوا (في ليونة الأفاعي) يسمعون رسول الله ﷺ من لين القول وطيب الكلام وجميل الإطراء، ما ظنوا، أنه سيساهم في تخفيف عقوبة خيانتهم العظمى التي صممت قيادة المدينة على إنزالها بهم.

فقد قال هؤلاء اليهود لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم! ما كنت جهولاً، وغير ذلك من الكلام المغلف بالطيبة والوداعة.

طبيعة اليهود التي لا تتغير: وهذه هي جبلة اليهود وخلتهم المتغلغلة في نفوسهم أبد الدهر.

لا يتورَّعون عن ارتكاب أية جريمة (مهما كانت بشاعتها) إذا ما قدروا.

ولا يخجلون من أن يقفوا موقف الحليم الواعظ الوديع البريء، يذكّرون بالحلم والصفح إذا ما أحاطت بهم خطيئتهم وأدركهم الوهن، وكان التذكير والوعظ في صالحهم. أما إذا لم يكن في ذلك فائدة لهم، فإنهم أول من يسخر بالمثل ويهزأ بالقيم.

فهاهم - وقبل أن يصل إليهم القائد الأعلى النبي بدقائق معدودات يشتمون ويسبون ويهددون ويتوعدون، ظانين أنهم مانعتهم حصونهم، ولكنهم - وبعد دقائق معدودات مما فاهوا به من فاحش القول - إذا بهم يرون القائد الأعلى النبي (الذي سلكوا كل درب من دروب الغدر والخيانة والنكث للقضاء عليه وعلى أمته) قد أحاطتهم كتائبه المظفرة من كل جانب، فلجأوا إلى المكر والخديعة، واندفعوا يذكرون القائد المنتصر عليهم بما يمتاز به من حلم وعلم في عبارات كلها مدح وإطراء وتودد طمعاً في التأثير عليه ليعفو عنهم.

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٣٤.

ولكـن هـؤلاء اليهود الذين وقفوا (ساعتئذ) موقف الواعظ الوديع المستكين البريء نسوا (أو قل تناسوا) أنهم قد ضربوا بكل القيّم الإنسانية والمُثل الأخلاقية عرض الحائط، وداسـوا العهـود والمواثـيق بأرجلهم في خسّة ونذالة عندما رأوا جيوش الأحزاب الجرّارة تحـيط بالقلـة المسـلمة إحاطـة البـحر الهـائج بالجزيـرة الصـغيرة مـن كل جانب. فأعلنوا الترحيـب بهـذه الجـيوش الغازيـة الباغـية وأعلـنوا الانضـمام إلـيها ضد المسلمين الذين تربطهم بهم رابطة حلف عسكري متين، هي معاهدة الدفاع المشترك.

نعـم تناسـى هـؤلاء الـيهود أنهـم - عـندما جاءهم الوفد النبوي في تلك الساعات الحاسمـة - يطلـب مـنهم القـيام بالـتزاماتهم العسـكرية مـع المسـلمين ضد الغزاة، كما تلـزمهم بذلـك نصـوص معـاهدة الدفاع المشترك بينهم وبين المسلمين - تناسوا، أنهم لم يكـتفوا (في تلـك الـلحظات الحـرجة) بمخالفـة نصـوص المعـاهدة بتوقفهم عن مساندة حلفـائهم المسـلمين، بل أنكروا (في وقاحة وصفاقة) أن يكون بينهم وبين النبي أي حلف أو عهد.

نعـم نَسِـيَ هـؤلاء اليهود الذين يطلبون الرحمة ويذكّرون بالحلم، أن جوابهم لرئيس الوفـد النـبوي الـذي جـاء إلـيهم يطلـب تنفيذ المعاهدة، كان تجاهل وجود النبي ﷺ ذاته حيث قالوا (وقد ظنّوا أن المسلمين قد انتهى أمرهـم): ومن هو رسول الله ؟؟.

لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

نعم تناسى هؤلاء اليهود أنهم في الوقت الذي بلغت فيه قلوب المسلمين الحناجر من شدة الحصار، قد تفجرت في نفوسهم ينابيع الخسة والغدر، فاغتنموا اشتداد محنة المسلمين فسـارعوا إلى إحكـام حلقاتهـا، فانضموا إلى جيوش الغزاة (بالرغم من العهد الذي بينهم وبـين المسـلمين) مستهدفين بعملهم الدنيء هذا استعجال إبادة المسلمين ومحو كيانهم من الوجود، ظناً منهم أن تلك الأيام العصيبة هي الأيام الأخيرة للكيان الإسلامي الذي كان هـؤلاء الـيهود يعـتقدون أن جيوش الأحزاب العظيمة لن تعود إلى بلادها إلا بعد تحطيم هذا الكيان.

والآن وقـد دحر الله جيوش الأحزاب الغازية وتبددت الأحلام العريضة التي كانت تحـلمها قـريظة، وجـاءت كتائـب القـرآن لتصـفي الحسـاب مـع هـؤلاء الخونة الغادرين الناكـثين، عرفـت ألسـنتهم الطـريق إلى الحديـث عـن القـيم الإنسـانية والمثل الأخلاقية، وأخـذت الأفـاعي السـامة الغادرة تتظاهر بالبراءة والطيبة، وتبدي مظهرها الناعم اللين: «يا أبا القاسم! ما كنت جهولاً».

الـيهودي الذي وفى بالعهد: وهـنا أدرك هذا اليهودي المتعقل (عمرو بن سعدى) أن عـناد قومـه الأغبـياء سوف يقودهم إلى الفناء دونما شك، فأعلن براءته منهم وفارقهم إلى الأبد.

فقـد خـرج هـذا الـيهودي (ابـن سُعْدَى) من حصون قومه بني قريظة بعد أن طوقها الجيش الإسلامي من كل مكان وكان خروجه ليلاً.

وعـندما خـرج هـذا الزعـيم الـيهودي من حصون قومه مفارقاً لهم، التقى به رجال الحـرس الـنبوي الذيـن كانوا يقومون بأعمال الدورية، فألقوا عليه القبض، ثم أتوا به إلى قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري.

وعـندما عـرف قـائد الحـرس أنـه (عمـرو بـن سـعدى وكـان موقفـه النبيل قد بلغ المسـلمين) أمـر بإطلاق سراحه ليذهب حُرًّا حيث شاء، لأنه لم يرتكب ما يوجب قتله أو حـتى اعـتقاله، حيـث بقـى على عهده ولم يدخل مع بني قريظة فيما دخلوا فيه من جريمة الغدر ونكث العهد.

وهكـذا أطلـق الحـرس النـبوي سـراح الزعـيم عمـرو بـن سعدى مع أنه خرج من حصون قومه بني قريظة وكان لا يزال على يهوديته.

وبديهـي أن لا يـتعرض المسـلمون لعمرو بن سعدى اليهودي بأي أذى، لأن القصد مـن ضرب الحصار على يهود بني قريظة وإعلان الحرب عليهم، لا لأنهم يهود لا يدينون بالإسلام.

كـلاَّ، وإنمـا لأنهـم غدروا، وارتكبوا (في ظروف حربية دقيقة للغاية) الخيانة العظمى التي عقوبتها في كل قوانين الدنيا الموت.

ومـا دام أن هـذا الـيهودي ابـن سـعدى لم يشـترك مـع قومه في جريمة الغدر ونقض العهـد، فإنـه تـركه وشـأنه (حـراً) وعـدم التعرض له بأي أذىً إنما هو ترجمة فعلية لأحد مـبادئ الإسـلام العادلـة المنبثقة من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢].

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

(٢) البقرة: ١٩٣.

قال ابن إسحاق (يصف خروج عمرو بن سعدى من حصون بني قريظة مفارقاً لهم): وخرج عمرو بن سعدى القرظي، فمرّ بحرس رسول الله وعليه محمد بن مسلمة الأنصاري[1] تلك الليلة، فلما رآه ابن مسلمة استوقفه قائلاً: من هذا؟..

فقال: أنا عمرو بن سُعْدى، وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبداً.

فقال (ابن مسلمة) حين عرف ابن سعدى: اللهم! لا تحرمني إقالة عثرات الكرام، ثم خلّى سبيله، فخرج على وجهه حتى بات (مستأمناً) في مسجد رسول الله ﷺ تلك الليلة بالمدينة، ثم ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض إلى يومه هذا [2].

ثناء النبي على اليهودي الوفي: ولقد وصف النبي ﷺ هذا اليهودي المتعقل (عمرو بن سعدى) بالوفاء، وذلك أنه لما ذكرت له قصة إلقاء الحرس القبض عليه ثم إخلاء محمد بن مسلمة سبيله، قال: ذاك رجل نجاه الله بوفائه.[3]

قال ابن إسحاق: وبعض الناس يزعم أن عمرو بن سعدى قد أوثق برمة [4] فيمن أوثق من بني قريظة عند استسلامهم وأنه نجا من القتل (دون بني قريظة) حيث أصبحت الرُّمة التي كان بها مربوطاً، ملقاة ولا يدري أحد إلى أين ذهب. قال ابن إسحاق: فيزعمون أن النبي ﷺ قال فيه تلك المقالة: (ذاك رجل نجاه الله بوفائه) أ هـ، والأول أقرب إلى منطق الإسلام، فلا يمكن أن يعتقل المسلمون رجلاً بقى على عهده وأبى الغدر بهم.

مقاومة اليهود واشتداد الحصار عليهم: استمرت قريظة في غيِّها ورفضت كل الاقتراحات التي تقدم بها عمرو بن سعدى لحقن دمائها، فاعتصمت بحصونها مصممة على القتال والمقاومة.

أمّا المسلمون فقد أحكموا الحصار حول الحصون وقاموا بتطويقها من كل جانب، وقطعت الجيوش الإسلامية كل اتصال بين اليهود وبين الخارج، ووضعت القوات الإسلامية أيديها على كل مزارعهم ونخيلهم الواقعة خارج حصونهم.

---

(١) انظر ترجمه في كتابنا (غزوة أحد).

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨.

(٣) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٣٨.

(٤) حبل يتخذ من الصوف أحياناً.

مقــر قيادة الرسول أثناء الحصار: وقـد نزل الرسول ﷺ أثناء ضرب الحصار على بني قريظة على بئر من آبارهم يقال لها بئر أنّى، وجعل مقر قيادته هناك.

ولقـد كانـت مقاومة اليهود للحصار (أول الأمر) شديدة، ولكنهم بعد مرور حوالي عشـرين ليلة على هذا الحصار بدأ الضعف والقلق يتسرب إلى نفوسهم، بعد أن أجهدهم الحصـار وأيقـنوا أن المسـلمين ليسوا بمنصرفين عنهم حتى يستسلموا، أو يقتحموا عليهم حصـونهم ويفـتحوها بحد السلاح. فبالرغم من الإمكانيات المادية المتوفرة لديهم من مياه ومـواد غذائـية وسـلاح كـامل وحصـون منيعة، تساعدهم على المقاومة وقتاً طويلاً، فقد امـتلأت نفوسـهم بالرعب والخوف والفزع، فخارت قواهم، وأخذوا يفكرون في الطريقة التي يمكنهم بها حقن دمائهم.

ســيد بني قريظة يدعوهم إلى الإسلام: ففي ذلك الظرف العصيب دعا سيد بني قريظة (كعـب بـن أسـد) دعا زعماء قومه إلى اجتماع في مقر قيادته لتبادل وجهات النظر بشأن الموقف الحربي ولإبداء الرأي حول ما يجب اتخاذه لإنقاذ الموقف المتدهور.

ولمـا اجـتمع رؤسـاء الغدر والخيانة بسيّدهم كعب بن أسد (وكان عاقلاً متّزناً) لولا رفقاء السوء الذين غلبوه على أمره وحملوه على نقض العهد الذي بينه وبين النبي ﷺ.

فقد كان كعب هذا (كما تقدم) كارهاً لنقض العهد وراغباً رغبة أكيدة في البقاء على ولائـه للمسـلمين، ومـن أجـل ذلـك أقفل باب حِصنه عندما علم أن شيطان بني النضير (حُيي بن أخطب جاء لمقابلته) عندما وصلت جيوش الأحزاب إلى ضواحي المدينة.

لأنـه كـان يعـلم أن حيياً هـذا مـا جـاء إلا ليطلـب مـن بني قريظة الغدر بالمسلمين والانضمام إلى الأحزاب فكان كعب بن أسد متخوفاً من نقض العهد، وكان يقدّر النتائج الوخيمة التي ستترتب على الغدر بالمسلمين قبل وقوعها.

ولهـذا رفـض (أول الأمـر) مقابلـة حُـيَيّ بن أخطب واستقبح رأيه الداعي إلى الغدر بالمسـلمين، حيـث قـال له (بكـل صـراحة): ويحـك يـا حيي إنك امرؤ مشئوم، وإنّي قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً.

وعـندما أراد حُـيَي الـتأثير علـيه بقـوة الأحـزاب الضاربة وإقناعه بأن قضاءها على المسـلمين في حكـم المؤكـد فقـال له: ويحـك يـا كعـب جئـتك بعـز الدهر (يعني جيوش الأحـزاب) قـال له كعـب ـ وكأنه ينظر جهاراً إلى ما سيحل ببني قريظة نتيجة الانضمام إلى الأحـزاب ـ : جئـتني والله بـذل الدهر، جئتني بجهام قد هراق ماؤه، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيي، فدعني وما أنا عليه.. الخ.

وعندما اجتمع يهود بني قريظة بسيدهم كعب بن أسد عندما خنقهم الحصار، ذكّرهم، وذكّر حُييَّ بن أخطب (على وجه الخصوص) بأنه قد حذرهم هذا المصير عندما مانع في نقض العهد والغدر بالمسلمين في بداية الأمر.

فقد قال لهم في هذا الاجتماع: يا معشر يهود! قد نزل بكم من الأمر ما ترون، ولقد كنت كارهاً لنقض العهد، ثم التفت إلى حيي بن أخطب، وأشار إليه محمّله مسئولية كل ما حدث وسيحدث لبني قريظة قائلاً: ولم يكن البلاءُ والشؤم إلاَّ من هذا الجالس.

وكان حُييُّ بن أخطب عندما نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين قد تعهد لسيد بني قريظة بأن يدخل معه حصنه ليصيبه ما أصاب بني قريظة إذا ما انسحبت جيوش الأحزاب دون أن تستأصل شأفة المسلمين وتقضي عليهم قضاء تاماً، وفعلاً، فقد وفى له حيي بذلك فقد أتى الله به إلى حصون بني قريظة ليجني ثمار أعماله الشريرة فبقى معهم داخل حصونهم حتى نهاية أمرهم.

ثم واصل كعب بن أسد حديثه مع قومه في هذا الاجتماع فدعاهم (لإنقاذ الموقف) إلى إتباع أمر من ثلاثة:

أ- إما إتباع النبي ﷺ والدخول في الإسلام.

ب- وإمّا الهجوم على المسلمين بطريقة انتحارية، بعد قتل نساء بني قريظة وأطفالها.

جـ- وإمّا أخذ المسلمين على حين غرة بالهجوم عليهم يوم السبت وهو يوم لا يعمل فيه اليهود شيئاً (تديّناً).

ولكن اليهود رفضوا العمل بأي من هذه الاقتراحات.

فقد قال لهم سيدهم كعب بن أسد: أتذكرون يا بني قريظة ما قال لكم ابن خراش (حبر من أحبارهم) إنه يخرج بهذه القرية نبيٌّ فاتبعوه وكونوا له أنصاراً، وتكونوا آمنتم بالكتابين الأول والآخر ثم دعا كعب بن أسد قومه إلى إتباع النبي ﷺ والإيمان به قائلاً:

فوالله! لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن من بني إسرائيل، فاتبعوه تأمنوا على دمائكم وأموالكم ونسائكم.

وقد رفض بنو قريظة اقتراح زعيمهم هذا قائلين: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره.

يقترح قتل النساء والأطفال والهجوم على المسلمين: فلما علم كعب رفض قومه لهذا الاقتراح عرض عليهم العمل بالاقتراح الثاني القاضي بالهجوم على المسلمين هجوماً انتحارياً ليفكوا الحصار، أو يموتوا كما يموت الأبطال قائلاً: فإذا أبيتم على هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مصلتين السيوف، ولم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك، نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجد النساء والأبناء.

فرفض بنو قريظة (أيضاً هذا الاقتراح الجريء) قائلين لسيدهم كعب بن أسد - في رعب وقلق وجزع -: نقتل هؤلاء المساكين؟.. فما خير العيش بعدهم.

فطلب منهم كعب، تنفيذ الاقتراح الثالث والأخير، وهو أخذ المسلمين على حين غرَّة بالهجوم عليهم ليلة السبت، قائلاً: فإذا أبيتم عليَّ هذه (أيضاً) فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة.

فرفضوا هذا الاقتراح أيضاً قائلين: تفسد سبتنا علينا، وتحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا، إلا من قد علمت، ما لم يخف عليك من المسخ.

وهنا يئس سيد بني قريظة من قومه ونفض يده منهم، فختم حديثه قائلاً: ما بات منكم رجل منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً[1].

اليهود يطلبون المفاوضة: وعندما بلغ الحصار ذروته قام زعماء بني قريظة بعدة محاولات للحصول على ضمان من النبي ﷺ يحقن لهم دماءهم ويعفي نساءهم وذراريهم من السبي، ثم يخرجون من يثرب إلى غير رجعة. وكانت أُولى هذه المحاولات، أن بعثت قريظة إلى النبي ﷺ تعرض عليه استعدادها للجلاء عن يثرب وعلى الصورة التي تم بها إجلاء إخوانهم من بني النضير بعد معركة أُحُد.

وقد حمل هذا العرض اليهودي إلى النبي ﷺ أحدُ زعماء بني قريظة، وهو نباش بن قيس، فقد طلب هذا الزعيم اليهودي من النبي القائد ﷺ أن يسمح له بالحضور إلى مقر قيادته حول الحصون للمفاوضة، فسمح له النبي بذلك.

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٣٦.

النبي يرفض المفاوضة على غير التسليم: ولما أتى الحرس النبوي بهذا الزعيم اليهودي إلى النبي القائد ﷺ قدَّم له العرض الذي يحمله من بني قريظة والذي يطلبون فيه السماح لهم بالخروج من يثرب مع نسائهم وذراريهم وما تقدر الإبل على حمله من متاع (سوى السلاح) على أن يتركوا بقية كل ما يملكون في يثرب للمسلمين.

غير أن النبي ﷺ رفض هذا العرض رفضاً باتاً وأبلغ مندوب بني قريظة أنه لا يقبل إلاَّ أن يسلّم هؤلاء اليهود دون قيد أو شرط.

فعاد إلى قريظة مندوبها وأبلغها نتيجة مفاوضاته مع النبي القائد الذي رفض العرض اليهودي.

ومع هذا الرفض فلم ييأس اليهود فأرسلوا مندوبهم إياه (نبّاش بن قيس) ثانية ليعرض على النبي القائد ﷺ عرضاً آخر، يطلبون فيه أن يسمح لهم (رجالاً ونساءً وأطفالاً) بالجلاء عن يثرب والنجاة بأرواحهم، وأبلغوه أنهم يوافقون على ترك كل ما يملكون للمسلمين، فلا يحملون معهم أي شيء من المال.

وعندما تقدم نباش بن قيس بهذا الطلب إلى القائد الأعلى للجيش الإسلامي (باسم بني قريظة) رفض الموافقة عليه وكرر القول بأنه لا يقبل من هؤلاء اليهود إلا التسليم دون قيد أو شرط.

ولما تبلغت قريظة رفض عرضها الأخير هذا، أسقط في يدها وازدادت مخاوفها وتضاعف قلقها وصار زعماؤها يتخبطون في دوامة من الحيرة والقلق، لا يدرون كيف يتصرفون، لاسيما وأن الحصار قد أجهدهم وأخذ بخناقهم فحطم أعصابهم.

لا أمل في النجدة: ولا شك أن يهود بني قريظة قد قلبوا الأمر من جميع وجوهه للاستعانة والاستغاثة بأية فئة يمكنها المساهمة في تخليص رقابهم من الموت المحقق الذي ينتظرهم جزاء خيانتهم العظمى.

ولكن ماذا عسى أن يُجديهم التفكير والبحث في هذا الوجه، وبمن يستغيثون ويستنجدون؟.

أبقريش أم بغطفان.

إن هـذه القـبائل (بحـق) هـي أشـد قـبائل الجزيـرة العربية قوة، وأقواها شكيمة، مع العـداء الشـديد لرسـول الله ﷺ وهـذه القبائل هي التي يمكن لقريظة أن تستنجد بها ولو لفـك الحصـار عن معاقلها، ولكن قريظة تعلم أن هذا الحصار الذي تغرق الآن حصونها في محيطه المتلاطم إنمـا كـان من أهم أسباب التعجيل به هو غضب تلك القبائل القرشية والنجدية ونقمتها على هؤلاء اليهود.

ولهـذا فإنـه لا أمـل لهـؤلاء اليهود المحصورين في أن تستجيب لهم تلك القبائل إذا ما استنجدوا بها.

موقـــف خيبر من بني قريظة: أمـا يهـود خيبر من بني النضير وغيرهم (وهم أقوى قوة يهوديـة مسـلحة في جزيـرة العـرب) والذيـن لهم اليد الطولى في تجميع جيوش الأحزاب وتمويـنها لغـزو المديـنة، فقـد أصـابهم الذعر وتملّكهم الفزع لانسحاب جيوش الأحزاب دون أن تحقق شيئاً من الهدف الذي جاءت من أجله.

يضاف إلى هذا أن يهود بني النضير هؤلاء قد خرجوا من المدينة أذلاًّء مطرودين، بعد أن حاربوا المسلمين حرباً خاسرة كانت نهايتها الاستسلام وطرد هؤلاء اليهود من المدينة.

فلـو أن فيهم بقية من قدرة على منازلة المسلمين ما قبلوا الجلاء عن المدينة على تلك الصورة المهينة.

فهـم (إذن) أضـعف مـن أن يفكـروا في الـزحف عـلى المديـنة لفـك الحصار الخانق المضروب على سيدهم حيي بن أخطب مع عصابة الغدر والخيانة من بني قريظة.

ولهـذا فـإن بـني قريظة لم يفكروا (مطلقاً) في الاستنجاد بإخوتهم من يهود خيبر وبني النضير، لأنهم على يقين بأن هؤلاء اليهود لن يصنعوا لهم شيئاً إذا ما استنجدوا بهم.

ولهـذا فإنـه لم يـبق ـ أمـام يهـود بني قريظة ـ بعد الذي بذلوه من محاولات فاشلة لحقن دمائهم، سوى الإقدام على أحد أمرين.

إمّـا أن تفتح قريظة حصونها وتدخل في معركة فاصلة مع المسلمين يكون الحكم فيها للسيف.

وإما الاستسلام للقائد الأعلى النبي دون قيد أو شرط.

أمّـا الدخول في معركة فاصلة مع المسلمين، فقد أثبتت قريظة أنها أجبن من أن تفكر فيه أبداً.

ذلـك أن سـيدها كعـب بـن أسد قد عرض عليها القيام بهذا العمل البطولي ولكنها رفضت الإقدام عليه وهي ترتجف جبناً لمجرد ذكره.

إذن، فلا مناص لقريظة من الاستسلام لقوات المسلمين والنزول على حكم الرسول ﷺ دون قيد أو شرط.

وهذا هو الذي قرره بنو قريظة (أخيراً)، وذلك طمعاً منهم في أن يعفو عنهم النبي ﷺ ويحقن دماءهم كما فعل مع بني قينقاع وبني النضير الذين تمرّدوا عليه واستسلموا له فعفا عنهم.

محاولة اليهود الأخيرة: ولكن بني قريظة - قبل أن يبلّغوا النبي ﷺ - قرار استسلامهم رسمياً قاموا بمحاولة أُخرى لعلّهم (بها) ينالون شيئاً من تخفيف العقوبة التي كانوا يتوقعونها جزاء غدرهم وخيانتهم.

فعلى إثر رفض الرسول ﷺ عرضهم الأول والثاني عقدوا اجتماعاً خاصاً، لبحث ما يجب اتخاذه حيال الموقف المتأزم.

وفي هذا الاجتماع اتفق زعماءُ قريظة على أن يتصلوا بالنبي القائد ﷺ ويطلبوا منه أن يسمح لحليفهم أبي لبابة [1] الأنصاري بأن يأتي إليهم ليستشيروه في أمرهم.

وكان أبو لبابة حليفاً لبني قريظة، وكانت أمواله وولده في منطقتهم، فكانوا لذلك يعتقدون فيه الإخلاص لهم والعطف عليهم.

وقد سمح النبي ﷺ لأبي لبابة أن يذهب إلى بني قريظة - كما طلبوا - لمقابلتهم، فقد استدعاه وقال له: اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس.

وقد ذهب أبو لبابة إلى بني قريظة، وعندما دخل حصنهم الرئيسي قام النساء والصبيان يبكون في وجهه من شدة الحصار، ويظهر أن اليهود قد دبّروا حشر النساء والصبيان ليجهشوا بالبكاء في وجه أبي لبابة للتأثير عليه. وعندما اجتمع زعماءُ اليهود إلى أبي لُبابة شرحوا له ما هم فيه من جهد وهمّ وضيق، واستشاروه هل من مصلحتهم النزول على حكم النبي ﷺ دونما قيد أو شرط؟

الصحابي الذي خان الله ورسوله: وقد ارتكب أبو لبابة رضي الله عنه غلطة كبيرة اعترف هو فيما بعد بأنها خيانة كبرى، فقد رقَّ أبو لُبابة عندما رأي النساء والصبيان يبكون في وجهه، فتغلبت عليه العاطفة، فانحرفت به عن جادة الصواب.

---

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

وذلك أنه عندما اجتمع بزعماء بني قريظة فبسطوا أمامه مشكلتهم وطلبوا منه التوجيه فيما إذا كان من مصلحتهم النزول على حكم النبي ﷺ والاستسلام له دونما قيد أو شرط، نصحهم (إشارة) بألا يفعلوا، وأفهمهم بأن مصيرهم سيكون الذبح إنْ هم نزلوا على حكم الرسول ﷺ. ولنترك هذا الصحابي الجليل أبا لبابة ليحدثنا عن قصة المنزلق الذي انزلق إليه يوم ذاك.

قال أبو لبابة: لما أرسلت بنو قريظة إلى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يرسلني إليهم، دعاني وقال: اذهب إلى حلفائك، فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس (وكان الأوس هم قوم سعد بن معاذ حلفاء بني قريظة) قال أبو لبابة: فذهبت إليهم فقام إليَّ كعب بن أسد (سيدهم) فقال:

يا أبا بشير، قد عرفت ما بيننا، وقد اشتد علينا الحصار وقد هلكنا، ومحمد لا يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه، فلو زال عنا، لحقنا بأرض الشام أو خيبر، ولم نطأ له أرضاً، ولم نكثر عليه جمعاً أبداً، أما ترى قد اخترناك على غيرك؟.

ثم استشاره كعب بن أسد قائلاً: أننزل على حكم محمد؟

وهنا زلت بالصحابي الجليل قدمه حيث كان جوابه على استشارة كعب بن أسد قوله:

نعم، ـ وأشار إلى حلقه ـ أنه الذبح، يعني أبو لبابة، أن اليهود سيكون مصيرهم الموت، إن هم نزلوا على حكم الرسول ﷺ، غير أن أبا لبابة المؤمن الصادق، لم يكد ينطق بآخر كلمة من هذه الإشارة حتى أسقط في يده، وأدرك عظم الخطيئة التي ارتكبها في حق نبيه وأُمّته.

فارتبك ثم استرجع (أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون)، ثم فاضت عيناه بالدموع ندماً على ما فعل.

ولما رآه سيد بني قريظة كعب بن أسد على تلك الحال من الخوف والاضطراب قال له (مستغرباً): مالك يا أبا لبابة؟ فقال: خنت الله ورسوله، يعني بذلك إشارته لليهود بأن مصيرهم سيكون الموت، إن هم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ.

أبو لبابة يربط نفسه في المسجد: ولقد ضاقت الأرض على أبي لبابة بما رحبت، وأخذ ضميره في تأنيبه وتقريعه على ما فعل، وفوراً غادر أبو لبابة حصن حليفه كعب بن أسد مهموماً حزيناً.

وخَجَلاً من رسول الله ﷺ لم يذهب إليه وإنما توجه إلى المسجد والدموع تسيل من عينيه، وقرر أن يربط نفسه بسارية من سواري المسجد إلى أن يموت أو يتوب الله عليه.

وقد وصف أبو لبابة نفسُه هذه الحادثة بقوله: فوالله! ما زلت قدماي من مكانهما، حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، وفعلاً فقد ربط أبو لبابة نفسه بسارية المسجد.

قال ابن إسحاق: ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأْت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهدت الله أن لا أطأ بني قريظة أبداً ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً.

ولقد كان امتحاناً نفسياً قاسياً تعرض له هذا الصحابي الجليل، فقد ربط نفسه بسلسلة ثقيلة بالأسطوانة التي ينصرف إليها رسول الله ﷺ من صلاة الصبح، وهي تقع عند باب أم سلمة.

ولما بلغ رسول الله ﷺ قصة أبي لبابة وما فعل بنفسه، ـ وكان ﷺ قد استبطأه ـ قال: أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأمّا إذ قد فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

وكانت امرأة أبي لُبابة وابنته تأتيه في وقت صلاة فتفك رباطه، وكذا إذا أراد حاجة الإنسان ثم يعود فيربط بالعمود وقد أقام أبو لبابة مربوطاً سبع عشرة ليلة حتى كاد يذهب سمعه وبصره.

توبة أبي لبابة: وبعد أن أقام هذا الصحابي الممتحن مربوطاً ما شاء الله أن يقيم، تاب الله عليه وأطلقه الرسول ﷺ بيده الكريمة.

قال ابن إسحاق: إن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر وهو في بيت أم سلَمَة، فقالت أم سلَمَة:

فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك، قالت: فقلت: مم تضحك؟ أضحك الله سنك.

قال: تيب على أبي لُبابة.

قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟.

قال: بلى.

قال: فقامت على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يُضرب عليهن الحجاب ـ فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله! حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

يمنعه الرسول من التصدق بكل ماله: وكم كانت فرحة هذا الصحابي الجليل (أبي لبابة) بقبول الله توبته حتى إنه أراد أن ينخلع من كل ماله تكميلاً لتوبته فقال له النبي ﷺ: يجزيك الثلث أن تتصدق به[١].

أمّا الآية التي نزلت في توبة أبي لبابة فهي (كما قال ابن إسحاق) الآية المائة والثلاث من سورة التوبة وهي قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، كما أن القرآن الكريم قد أشار أيضاً (كما يقول ابن إسحاق) إلى الخطيئة التي ارتكبها أبو لبابة.

وهذه الإشارة جاءت (كما قال ابن عباس ونقله عنه ابن إسحاق) في الآية السابعة والعشرين من سورة الأنفال وهل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

انهيار اليهود في المقاومة: لقد كانت استشارة أبي لبابة آخر محاولة يقوم بها بنو قريظة للحصول على أي شرط يحقنون به دماءهم عند الاستسلام، ولكنهم بدلاً من أن يظفروا بشيء من ذلك تلقوا من أبي لبابة (بإشارته تلك) ما يؤكد لهم أن الموت مصيرهم إن هم استسلموا للمسلمين ونزلوا على حكم النبي ﷺ.

وبهذا انقطع آخر خيط من الأمل لهم في التخفيف، وبدلاً من أن يكون ذلك حافزاً لهم على الاستبسال والقتال حتى الموت ملكهم الرعب والفزع وسيطرت عليهم روح الجبن، فانهاروا انهياراً كلياً.

لقد كان بوسع بني قريظة (وخاصة في ذلك الظرف) أن يستمروا في المقاومة لأشهر طويلة، يكسبون فيها بعض التنازلات من جانب المسلمين كالاكتفاء بنفيهم من المدينة.

لقد كان المسلمون المحاصرون لهم في حالة تعب شديد نتيجة الجهد المضني الذي بذلوه في ليالي الخندق المخيفة التي تحالف فيها البلاءُ على المسلمين وأحاطهم من كل جانب طيلة أكثر من خمس وعشرين ليلة، حُرِموا فيها حتى النّوم لشدة الخوف ودوام الحراسة والمرابطة في وجه عدّوهم الجبار المحاصر لهم والذي ما كان يترك لهم فرصة يستريحون فيها.

---

(١) مصدر قصة أبي لبابة.. سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٣٦ وما بعدها، السيرة الحلبية ج٢ ص ١١٧ وما بعدها، والبداية والنهاية ج٤ ص ١١٩ وما بعدها، وجوامع السيرة لابن حزم ص ١٩٣ وما بعدها.

يضـاف إلى ذلـك أن المسـلمين كـانوا في حالة مجاعة شديدة، والجوّ كان (مع ذلك في غاية البرودة).

فكـان المسـلمون يـرابطون حـول اليهود في العَراء فيتعرضون للفح البرد الشديد مع شـدة الجـوع، بينما بنو قريظة ـ وهم من أثرى سكان يثرب ـ يحتمون بحصونهم المنيعة الشامخة في مأمن من لفح البرد القارص، موفوراً لديهم كل ما يحتاجونه من الطعام لأشهر طويلـة، كمـا أن المـاء كـان موجـوداً لديهم بصفة دائمة داخل الحصون حيث كانت هذه الحصون تحتوي على آبار كثيرة.

ولكـن الـيهود ـ مـع كـل هـذه العوامـل التي توحي بقوتهم المادية التي تمكنهم من الاسـتمرار في المقاومـة لمدة طويلة ـ قد انهارت أعصابهم وتحطمت معنوياتهم إلى درجة لم يحتملوا معها الحصار أكثر من خمس وعشرين ليلة.

فقـد قـذف الله في قلوبهم الرعب، وهم على تلك الحالة من القوة والمنعة والتحصن ووفرة السلاح وكثرة العدد، فكانوا يفكرون في كل شيء إلا استعمال السلاح للدفاع عن حصونهم.

قـال اللواء الركن محمود شيت خطاب في كتابه (الرسول القائد): «لم تكن حرب بني قـريظة حـرب مـيدان وإنما كانت حرب أعصاب، فلم يستطع اليهود أن يتحملوا الحصار عـلى الـرغم من توفر المواد الغذائية لديهم وتوفّر المياه والآبار ومناعة حصونهم وصعوبة اقتحامها، فآثروا التسليم على مكابدة الحصار.

والحـق أن الموقـف العسـكري كـان إلى جانـبهم، لـتلك الأسباب كلها ولشدة تعب المسلمين ولبرودة الطقس، ولكن معنوياتهم المنحطة انهارت، فلم يقاوموا طويلاً كما كان المؤمل». أهـ.

الـتهديد باقـتحام حصـون اليهود: ومع شدة الجزع والانهيار الكلي الذي عم حملة السـلاح مـن الـيهود فقـد ظلـوا يمـاطلون في التسـليم في انـتظار معجـزة خارقـة تتدخل لإنقـاذهم مـن وحـل الورطـة الخانقة، ولكن هيهات، فالمسلمون لمّا رأوا مماطلة اليهود في التسـليم ـ مـع الانهـيار الذي لاحظوه عليهم ـ أرهبوهم إرهاباً شديداً إذ أعلنوا أنهم سيقتحمون الحصون ويفتحونها بحد السيف.

لقـد كـان المسـلمون (دونمـا شـك) يفضّـلون أن يتم استسلام بني قريظة دونما قتال، ولهذا ظلوا (على ما هم فيه من تعب وجوع) يحاصرونهم أكثر من عشرين ليلة.

ولكنهم لما رأوا مماطلتهم في الاستسلام، ورأوا أن بقاء القوات الإسلامية مرابطة في العراء هكذا حول الحصون في ذلك البرد القارص مع قلة المواد الضرورية، (مما يعود بالضرر الكبير على القوات الإسلامية المحاصرة وقد يعود بالفائدة على اليهود) قرروا اقتحام الحصون المغلقة وفتحها مهما كان الثمن.

فقد صاح علي بن أبي طالب - حامل لواء الجيش - وابن عمته الزبير بن العوام، صاح: والله! لأذوقن ما ذاق حمزة ولأفتحن حصنهم[١].

استسلام اليهود وانتهاء الحصار: وبعد هذا الإنذار الذي سمعه اليهود من حامل لواء الجيش علي بن أبي طالب، تحركت قطاعات الجيش الإسلامي وتأهبت للهجوم العام، واقتحام الحصون كلها في هجوم كاسح.

ولكن اليهود (وهذا الذي كانت تتوقعه القيادة الإسلامية منهم) لما رأوا كتائب الجيش الإسلامي تتحرك، وأيقنوا أن الهجوم على حصونهم أمرٌ لا مفرّ منه، طلبوا إيقاف الهجوم، وأعلنوا الاستسلام والنزول على حكم الرسول ﷺ دونما قيد أو شرط.

فأوقف المسلمون الهجوم، وسارع اليهود إلى فتح أبواب معاقلهم وحصونهم فوراً، بعد أن ألقوا سلاحهم وأخذوا في مغادرة الحصون مستسلمين.

فابتدرهم جند الإسلام لحراستهم وصاروا يجمعونهم منعزلين في ناحية، وبعد أن تكامل خروجهم من الحصون (رجالاً ونساء وأطفالاً) أمر النبي القائد ﷺ باعتقال الرجال ووضع القيود في أيديهم. وقد تمّ ذلك تحت إشراف الرئيس محمد بن مسلمة الأنصاري قائد الحرس النبوي.

أما النساء والذراري، فقد أمر النبي ﷺ بعزلهم عن الرجال البالغين فجعلوا ناحية، بعد أن أوكل أمرهم إلى عبد الله بن سلام[٢].

وبعد أن تمت عملية الاستسلام أمر النبي ﷺ أن يوضع الرجال في حبس خاص بهم. أما النساء والذراري فقد أمر ﷺ أن يحفظوا في مكان ليس فيه صفة الحبس والتضييق.

وقد حُبس الرجال من بني قريظة - وعددهم حوالي ثمانمائة مقاتل -[٣] في دار أسامة بن زيد.

---

(١) البداية والنهاية ج٤ ص ١٢٢.

(٢) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٣) الكامل لابن الأثير ج٢ ص ١٢٧.

أمـا النساء والأطفال، فقد أعدَّت لهم القيادة النبوية داراً، ينزلون فيها ليست لها صفة السجن، إذ أمر النبي القائد ﷺ بإنزالهم في دار الضيافة، وهي دار ابنة الحرث النجارية المعدَّة (دائماً) لنزول الوفود التي تقصد المدينة، وكان عدد هؤلاء النساء والذراري يناهز الألف[1].

الأوس يشفعون لليهود عند رسول الله: لقد كان بنو قريظة (كما تقدم) حلفاء الأوس في الجاهلية، كما كان يهود بني النضير وبني قينقاع حلفاء الخزرج.

ولما كانت آثار هذا الحلف لا تزال قائمة حتى بعد مجيء الإسلام، حيث ظل الحليفُ يبذل لحليفه كل عون يقدر عليه (وإن اختلفا في الدين والعقيدة) دون أن يعترض الإسلام على ذلك.

فقد توجه وفد من وجوه الأوس إلى رسول الله ﷺ للتوسط لديه بشأن حلفائهم اليهود.

ولما اجتمع وفد الشفاعة من الأوس بالنبي ﷺ تقدموا إليه بالتماس، طلبوا فيه أن يتكرم بالتخفيف من عقوبة هؤلاء اليهود ولو بالاكتفاء بنفيهم من المدينة.

وقد ذكّر وفد الشفاعة هذا، النبي ﷺ بموقف التسامح الذي وقفه من حلفاء الخزرج (يهود بني قينقاع) الذين قَبِلَ فيهم (عندما نزلوا على حكمه) شفاعة زعيم الخزرج عبد الله بن أبي، فاكتفى في معاقبتهم بنفيهم من المدينة[2].

محاكمة بني قريظة: ومع فظاعة الجريمة، جريمة الغدر والنكث والخيانة العظمى التي ارتكبها يهود بني قريظة، فإن النبي ﷺ - بما جُبِلَ عليه من نبل وشهامة ومراعاة لعواطف أصحابه الذين آووا ونصروا لم يشأ أن يرفض وساطة الأوس في حلفائهم القدامى اليهود.

بل مراعاة لهؤلاء الصحابة الأجلاء الذين - تحت ضغط رماحهم وإرهاب سيوفهم استسلم هؤلاء المجرمون من اليهود - جعل مصيرهم في أيدي الأوس أنفسهم، حيث فوض أمر هؤلاء اليهود إلى سيد الأوس، سعد بن معاذ ليحكم فيهم بما يريه الله تعالى.

وقد طابت نفس الأوس من صحابة محمد ﷺ بهذا التفويض حيث كانوا يأملون من ورائه أن يخفف سيدهم سعد بن معاذ من عقوبة حلفائه.

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص ١١٨.

(٢) انظر قصة إجلاء يهود بني قينقاع في كتابنا (غزوة أحد) الفصل الأول.

إلا أن حكم سيدهم سعد في هؤلاء اليهود جاء على خلاف ما كان يتوقع قومه.

تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة: قال ابن إسحاق: فلما أصبحوا (أي بنو قريظة) نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فقال الأوس: يا رسول الله، إنهم كانوا موالينا (أي حلفاءنا) دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت.

وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول، فوهبهم له.

فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: فذاك سعد بن معاذ [١].

شفاعة وجوه الأوس عند سيدهم لليهود: وبعد أن جعل النبي ﷺ مصير يهود بني قريظة في يد حليفهم سعد بن معاذ ليحكم فيهم بما شاء، طمع قومه الأوس في أن يصدر عنهم عفواً ينجيهم من القتل.

ولذلك توجه وفد من زعماء الأوس إلى سيدهم سعد بن معاذ ليطلبوا منه أن يرأف في الحكم بحلفائه بني قريظة، ذكّروه بأن النبي ﷺ لم يجعل إليه أمرهم إلا ليحسن فيهم [٢].

الحكم الجريح: ولم يكن سعد بن معاذ رضي الله عنه ممن اشتركوا في عملية حصار بني قريظة، لأنه كان في المدينة، تحت العلاج من جرحه الخطير الذي أصابه وقطع شريانه يوم الخندق، نتيجة سهم أصابه به أحد فرسان المشركين عبر الخندق.

وكانت تقوم بعلاج سعد الجريح سيدة صحابية جليلة صالحة كانت قد أقامت لها خيمة في المسجد النبوي، تحتسب فيها عند الله القيام بمداواة جرحى المعارك من الصحابة ممن لم يكن له من يعالجه من أهله.

وسعد بن معاذ ليس من هذا النوع لأنه سيد الأوس وله أهله وعشيرته القادرون على رعايته وعلاجه، ولكن النبي ﷺ أمر أن يوضع في الخيمة في المسجد، وهدف الرسول ﷺ من هذا هو أن يكون هذا الزعيم الأوسي قريباً منه فيعوده ويتعرف حاله متى شاء.

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٣٩.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٣٩.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم يقال لها (رُفَيدة) في مسجده، كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب.

وبعد أن أبلغ النبي ﷺ أعيان قبيلة الأوس أنه قد جعل أمر حلفائهم اليهود إلى سعد بن معاذ ليحكم فيهم بما يريه الله، توجه هؤلاء الأعيان من المعسكر النبوي في بني قريظة إلى المدينة لمقابلة سيدهم الشاب الجريح وإبلاغه القرار النبوي بشأن اليهود.

وقد قابل أعيان الأوس سيدهم سعداً في المسجد النبوي وأخبروه أن النبي ﷺ قد جعل أمر بني قريظة إليه ليحكم فيهم بما يريه الله وأنه لابد من حضوره إلى حيث يعسكر الجيش الإسلامي في ديار بني قريظة ليبت في موضوعهم.

ولما كان جرح سعد جرحاً خطيراً، وهو نفسه كان جسيماً، فقد هيأ له قومه دابّة (حماراً) ليركبه حتى مقر قيادة الرسول ﷺ في بني قريظة.

وعندما توجه سعد إلى ديار بني قريظة أحاط به وجوه قومه من الأوس وصاروا يستعطفونه ليترفق في حكمه بحلفائهم اليهود.

فلما أكثروا عليه أبلغهم بأنه لن يحكم فيهم إلا بما يستحقون وأن ما بينهم وبين اليهود من حلف لا يمكن أن يحول بينهم وبين ما يستحقون من عقاب.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: فلما حكم النبي ﷺ سعداً في بني قريظة أتاه قومه حملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم (وفي رواية قد أُتي به على حمار عليه أكاف من ليف، قد حمل عليه وحفَّ به قومه فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت: يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم).

وأمام هذا التصريح من سعد الزعيم يئس قومه من أية تخفيضات يعطيها في حكمه على اليهود، وتأكد لديهم أن الحكم من سعد على بني قريظة سيكون الإعدام، حتى أن بعض الأوس ممن كانوا يسألون سعداً الإحسان إلى بني قريظة قد اعتبر هؤلاء اليهود (بعد ذلك التصريح من سعد) في عداد الأموات ونعاهم إلى قومه قبل أن يصل سعد إلى المعسكر النبوي في بني قريظة.

فقد ذكر ابن إسحاق في السيرة أن وجوه الأوس هؤلاء لمّا سمعوا من سعد بن معاذ هذا الجواب على طلبهم الإحسان في اليهود، رجعوا إلى دار قومهم بني عبد الأشهل ثم نعوا لهم بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد.

سعد في المعسكر النبوي: ولقد وصل سيد الأوس سعد بن معاذ إلى مقر قيادة النبي ﷺ في بني قريظة، وكان سعد عظيم الشأن عند النبي ﷺ ورفيع المقام بين المسلمين عامة وبين قومه خاصة.

فعندما اقترب سعد من مقر النبي ﷺ في بني قريظة أمر النبي ﷺ الموجودين حواليه في المعسكر أن يقوموا لسعد بن معاذ قائلاً: (قوموا إلى سيدكم)[١]. ويقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ لما قال النبي ﷺ: قوموا إلى سيدكم ـ قال: السيد هو الله[٢]. ويروي ابن برهان الدين في السيرة الحلبية ج٢ ص ١١٩ أن النبي ﷺ عندما انتهى إليه سعد بن معاذ في المعسكر قال: قوموا إلى خيركم[٣].

وقفة فقهية: وقد تباينت آراء الفقهاء حول مقاصد الأمر النبوي الكريم بالقيام لسعد بن معاذ هل هو للتكريم أم لإنزال سعد من على الدابة لأنه كان جريحاً متعباً؟.

والذي يظهر لنا (والله أعلم) أن القصد بالقيام إنما كان لإنزال سعد لا لتعظيمه.. يدلنا على هذا صيغة الأمر النبوي القائل: قوموا إلى سيدكم.. فلو كان المقصود بالقيام التعظيم لقال ﷺ ـ والله أعلم ـ: قوموا لسيدكم.

غير أن ابن برهان الدين ذكر في السيرة الحلبية أن الصحابة قالوا (يصفون قيامهم لسعد): فقمنا صفين يحييه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ. وهذا صريح في أن القيام إنما كان لتحيته.

قال ابن إسحاق: فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم، فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار (ويظهر أنهم لم يقوموا) وأمّا الأنصار فيقولون: قد عمَّ بها رسول الله فقاموا إليه.

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٤٠.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص ١١٩.

(٣) جاء في صحيح البخاري ج٥ ص ٢٤٣ أن سعداً لما دنا من الأنصار قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: قوموا إلى سيدكم ـ أو خيركم.

سعد يطلب موافقة اليهود على تحكيمه: وعندما استقر بسيد الأوس المقام في مقر القيادة النبوية في بني قريظة قال له النبي ﷺ: احكم فيهم يا سعد، فقال: الله ورسوله أحق بالحكم، فقال ﷺ: قد أمرك الله أن تحكم فيهم [(١)].

غير أن سعداً - وقد علم حرص قومه الأوس على التساهل في الحكم على حلفائهم اليهود - أحب أن يستوثق من الجميع ويأخذ عليهم العهد - الرسول والأوس وبني قريظة - بأن حكمه إذا ما صدر يكون غير قابل للنقض أو النقاش.

فقد وقف الحَكم الشاب الجريح سعد بن معاذ، في المعسكر النبوي، ووجّه حديثه إلى قومه الأوس خاصة وإلى من في المعسكر عامة قائلاً: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت؟ قالوا: نعم. ثم اتجه إلى النبي ﷺ وأشار إلى الناحية التي هو فيها، ثم قال - وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له وإكباراً -: وعلى من هاهنا، وأشار إلى الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم[(٢)]، ثم أشار إلى بني قريظة المحجوزين جانباً في المعسكر ليستوثق منهم أيضاً قائلاً: أترضون بحكمي؟ قالوا: نعم[(٣)].

وبينما الحديث يجري هكذا في المعسكر النبوي حول تفويض سعد بن معاذ في أمر بني قريظة، كان هؤلاء اليهود الذين حاق بهم مكرهم السيئ يرتجفون خوفاً من المصير المرعب الذي يتوقعونه.

إلاّ أنهم مع شعورهم بالخوف الشديد، فقد بقي لديهم شيء من الأمل في الحياة، بعد أن علموا أن حلفاءهم الأوس قد بذلوا وساطتهم لدى الرسول القائد ﷺ ليخفف من عقوبتهم، وأن الرسول ﷺ - نتيجة لهذه الوساطة قد جعل أمر هؤلاء اليهود لحليفهم وسيد حلفائهم سعد بن معاذ.

اللحظة الرهيبة في تاريخ بني قريظة: وجاءت اللحظة الحاسمة، ووقف سعد بن معاذ ليعلن كلمته النهائية في يهود بني قريظة، وأرهف هؤلاء اليهود أسماعهم مشدودة ناحية حليفهم (الحَكَم سعد) الذي أصبح مصيرهم جميعاً في يده، وسمروا أبصارهم عليه في جزع وقلق وركضت قلوبهم الخبيثة بين جنوبهم ووقفت نبضاتها في انتظار النطق بالحكم عليهم.

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص ١١٩.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٤٠.

(٣) السيرة الحلبية ج٢ ص ١١٩.

وحتى الذين في المعسكر من المسلمين، شُدّت أبصارهم ناحية الحَكم (سعد) وخاصة قومه الأوس الذين بذلوا كل مَسَاعِيهم لتخفيف الحكم على حلفائهم.

شُدّت أبصار الجميع إلى سعد ليروا كيف يُصدر حكمه على حلفائه اليهود.

لأن الجميع (وحتى النبي القائد) لا يعلمون ما هو الحكم الذي سيصدره سعد على هؤلاء اليهود.

وصدر الحكم النهائي، وكان صارماً قوياً حاسماً ورهيباً.

سعد يحكم بالإعدام على اليهود: فقد حكم سعد بن معاذ بالإعدام (ضرباً بالسيف) على كل من بلغ الحلم من رجال يهود بني قريظة.

كما حكم (كذلك) أن تُسْبَى نساؤهم وذراريهم وأن تصادر جميع ممتلكاتهم (المنقولة وغير المنقولة)، على أن يكون كل ذلك غنيمة للمسلمين المحاربين الذين حاصروا هؤلاء اليهود واستنزلوهم من حصونهم[1].

إلا أن سعداً (وقد فوض في أمر اليهود تفويضاً مطلقاً) حكم باجتهاد منه، أن تكون ديار يهود بني قريظة كلها للمهاجرين دون الأنصار، وذلك لأن المهاجرين ليس لهم في المدينة بيوت، لأنهم قد تركوا كل ممتلكاتهم في مكة عند المشركين عندما فرّوا بدينهم وهاجروا إلى المدينة.

وقد برّر سعد حكمه هذا (عندما عارضه بعض الأنصار بقوله لهم: إني أحببت أن يستغنوا عنكم[2] قال البخاري في صحيحه في كتاب المغازي: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له: حبّان بن العَرقة، رماه في الأكحل، فضرب النبي خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما رجع ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل، وهو ينفض رأسه من الغبار فقال: قد وضعت السلاح، والله، ما وضعته، أُخرج إليهم، قال النبي ﷺ: فأين؟، فأشار (جبريل) إلى بني قريظة.

فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه، فرد الحكم إلى سعد بن معاذ، قال (أي سعد): فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية وأن تقسّم أموالهم.

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٤٠، وتاريخ ابن خلدون ج٢ القسم الأول ص ٧٧٩، وطبقات ابن سعد الكبرى ج٢ ص ٧٧، والكامل لابن الأثير ج٢ ص ١٢٧.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص ١١٩.

وقال ابن سعد في طبقاته الكبرى ـ يصف استسلام بني قريظة ـ فأخذهم من الغمّ في حصنهم ما أخذهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ [١]، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، قال حميد: قال بعضهم: وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار، قال: فقالت الأنصار ـ معارضين ـ : إخواننا كنا معهم، فقال (سعد): إني أحببت أن يستغنوا عنكم [٢].

وبعد أن صدر الحكم على اليهود من سعد، لم يبد قومه الأوس أية معارضة، لأنه قد أخذ عليهم (مسبقاً) العهد والميثاق أن ليس لأحد منهم المعارضة أو التعقيب على حكمه..

أمَّا اليهود فقد صعقوا لهذا الحكم الصارم وعلاهم الذهول وخيّم عليهم الوجوم، ولم يرو أحد من المؤرخين أن هؤلاء اليهود ناقشوا هذا الحكم أو عارضوه بأي احتجاج.

لأن ذلك ليس لهم، لأنهم (أولاً) قد نزلوا على حكم رسول الله ﷺ دونما قيد أو شرط، ولأنهم (ثانياً) قد وافقوا بعد استسلامهم على تحكيم سعد ـ عندما أخذ موافقتهم قبل إصدار الحكم.

وبعض المؤرخين يذكر أن اليهود لما اشتد عليهم الحصار وافقوا على الاستسلام للقوات المحاصرة بشرط أن يحكم فيهم حليفهم سعد بن معاذ، وأن النبي ﷺ وافق على هذا الشرط.

والذي عليه جمهرة المؤرخين وأصحاب الحديث والمغازي أن سعداً لم يكن حكماً إلا بعد أن توسط قومه لدى رسول الله ﷺ ليخفف العقوبة عن هؤلاء اليهود.

يؤيد قولنا هذا ما ثبت في صحيح البخاري (وهو أصح المصادر التاريخية على الإطلاق) من أن اليهود نزلوا على حكم رسول الله ﷺ دونما قيد أو شرط فرد الحكم فيهم إلى حليفهم سيد الأوس سعد بن معاذ [٣].

---

(١) انظر ترجمة سعد بن معاذ في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٢) طبقات ابن سعد ٢ ص ٧٧ وما بعدها.

(٣) انظر صحيح البخاري ج٥ ص ٢٤٤.

أمـا مـا ثبت في صحيح البخاري من أن النبي ﷺ قال لسعد لما جاء إلى بني قريظة - بعـد استسلامهم:- هؤلاء (يعني اليهود) نزلوا على حكمك [١] فإنه يعني أن النبي ﷺ قد جعلـه نائـباً عـنه في الحكـم علـيهم بعد أن رد ذلك إليه كما هو صريح في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن عائشة[٢].

ولما نطق سعد بن معاذ بالحكم على بني قريظة قال له النبي ﷺ: «حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات»[٣].

وقفة عند حكم سعد بن معاذ: لقـد كان المفروض والمتبادر إلى الذهن أن سعداً - بعد أن أعطيت له الصلاحيات المطلقة في الحكم على حلفائه اليهود - سيراعي جانب رابطة الحلـف الـتي بينه وبين بني قريظة، فيخفّف الحكم عليهم بتخليص رقابهم من الموت على الأقـل. وهـذا هـو الـذي كـان قومـه الأوس يطمعون فيه عندما اغتبطوا بتفويضه في أمر حلفائهم اليهود، وتقدموا إليه يلتمسون منه تخفيف الحكم عليهم.

وكـان اليهود من جانبهم (كذلك) يطمعون في أن تشفع لهم عند سيد حلفائهم سعد بـن معـاذ، رابطـة الحلـف القديمـة الـتي بيـنهم بين الأوس، ولذلك أكثر زعماء قومه من الرجاء لديه لكي يتساهل في الحكم عليهم.

ولكـن سـعداً لم يـنس في زحمـة موجـات الـرجاء الموجّـه إلـيه من قومه الأوس، أن الإسـلام وكـل المنتسـبين إلى الإسـلام، وأن المديـنة، وما في المدينة من أعراض وحرمات وثمـار وحـرث ونسـل، وكـل كيان الإسلام الديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي كان قاب قوسين أو أدنى من التدمير والتخريب بسبب غدر هؤلاء اليهود ونقضهم العهد وأنه لم ينج إلا بمعجزة خارقة، لو لم تحدث لانتهى الكيان الإسلامي إلى الأبد.

ولم يـنس سـعد في ضـجيج الـرجاء الموجـه إلـيه من قومه أن هؤلاء اليهود لو تم لهم وللأحزاب النصر على المسلمين لما تورعوا عن استئصال شأفة المسلمين وهتك أعراضهم وتخريب ديارهم وتدمير كيانهم، كما هو الاتفاق بينهم وبين قيادة الأحزاب عندما طلبت

---

(١) البخاري ج ٥ ص ٢٤٣.

(٢) انظر هذا الحديث في صحيح البخاري ج٥ ص ٢٤٤ أيضاً.

(٣) زاد المعاد ج٢ ص ١٩١.

منهم هذه القيادة الغدر بالمسلمين ونقض عهدهم، لذلك لم يلبث سعد أن قال قولته الخالدة تلك لقومه، وقد جاءوا يشفعون لحلفائهم اليهود: (لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم)، ثم أصدر ذلك الحكم الصارم الذي هو (تماماً) في مستوى الأحداث والذي جاء عقوبة على قدر الجريمة.

ذكرى لم ينساها سعد: ومن الجدير بالذكر أن سعداً بن معاذ هذا، كان أحد أعضاء الوفد الذين أرسلهم النبي ﷺ إلى بني قريظة لجس النبض عندما بدأت جيوش الأحزاب في محاصرة المدينة، وذلك بعد أن بلغه أن بني قريظة قد خانوا العهد ونقضوا الحلف وانضموا إلى معسكر الأحزاب.

فقد جاء هذا الوفد إلى بني قريظة يطلب منهم الوفاء بالعهد والقيام بالتزاماتهم العسكرية للدفاع عن المدينة بجانب المسلمين، كما تنص على ذلك المعاهدة المعقودة بين المسلمين واليهود.

وكان سعد بن معاذ أحد أقطاب هذا الوفد، وقد سمع جواب اليهود على طلب الوفد، ورأى كيف شتم هؤلاء الخونة - في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ الإسلام - النبي ﷺ وأعلنوا (دونما أيّ خجل أو حياء) نقضهم العهد، وأصروا (علناً) على المشاركة الفعالة في استئصال شأفة المسلمين مغتنمين استحكام حلقات المحنة عليهم (صنيع النذل الخسيس الذي لا ضمير له ولا ذمة ولا عهد ولا شرف).

فقد تأثر سيد الأوس الشاب سعد بن معاذ تأثراً عميقاً عندما سمع من حلفائه اليهود ذلك القول القبيح ورأى منهم ذلك العمل الوضيع.

فتجسدت أمامه خسة هؤلاء اليهود ونذالتهم عندما وجّهوا إلى حلفائهم المسلمين تلك الطعنة النجلاء في أحرج الساعات وأدق الظروف التي مرت بجيش محمد في تاريخه منذ نشأ.

ولم ينس سعد في ضجيج الاستعطاف الموجه إليه من قومه بشأن حلفائهم اليهود - لم ينس (وهو يصدر ذلك الحكم الصارم العادل على هؤلاء اليهود) أنه قد حذرهم ونصحهم (بصفتهم حلفاءه) أن يبقوا على عهدهم وأن لا يغدروا برسول الله ﷺ لئلا ينتهوا إلى المصير المرعب الذي قادهم إليه أخيراً غدرهم وخيانتهم.

فقد قال لهم سعد يوم ذاك ناصحاً ومحذراً: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم - من العهد - يا بني قريظة وأنا أخاف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمرّ منه.

فكان منهم ذلك الجواب الفاحش القبيح الذي أملته نشوة الفرح بإطباق جيوش الأحزاب على المسلمين من كل جانب ونشوة الانتصار الذي تخيّلوا أنهم سيحققونه على المسلمين، حيث أفحشوا لحليفهم الناصح في القول فسبوه سبّاً مقذعاً وسبوا رسول الله إذ قالوا لسعد (يوم نصحهم): أكلت أيْر أبيك [١]، فقال (وكان حليماً هادئ الطبع عفيفاً): غير هذا من القول كان أجمل بكم - يا بني قريظة - ثم نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من هو رسول الله؟؟، لا عهد بيننا وبين محمد[٢].

لهذا فإن سعداً قد امتلأ (يوم ذاك) غيظاً على هؤلاء اليهود الخونة الأراذل، وكان يتمنى أن يشفي الله غليله منهم، ولهذا فإنه لما جرح ذلك الجرح المميت يوم الخندق توجه إلى الله بالدعاء أن لا يميته حتى ينتقم من هؤلاء الخونة المجرمين.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله أنه قال: رمى سعد بن معاذ[٣] فقطعوا أكحله [٤] فحسمه رسول الله ﷺ بالنار فانتفخت يده، فحسمه أخرى فانتفخت يده فنزفه، فلما رأى ذلك، قال: اللهم! لا تخرج نفسي حتى تقرّ عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكم سعد فحكم أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم، فلما فرغ منهم انفتق عرقه فمات.

وهكذا فإن حُكْم سعد على هؤلاء اليهود إنما جاء بعد دراسة وإلمام كامل بنفسيات هؤلاء اليهود واقتناع بأنهم (بعد خبرة وتجربة عاشها سعد معهم ولمسها فيهم) جرثومة وباء قاتلة لا مفر من إبادتها.

تنفيذ حكم الإعدام في اليهود: وبعد أن تمت إجراءات الحكم في بني قريظة (وكان ذلك في ديارهم) تحرك النبي ﷺ بجيشه نحو المدينة فدخلها، وكانت عودته من بني قريظة في اليوم السابع من ذي الحجة سنة خمس للهجرة.

وقد أمر الرسول القائد ﷺ بيهود بني قريظة فأدخلوا إلى المدينة.. دخلت بهم جميعاً قوة من الحرس النبوي بقيادة محمد بن مسلمة وعبد الله بن سلام.

---

(١) البداية والنهاية ج٤ ص ١٠٤.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٢٢، وقد ذكرنا القصة مفصلة في أول الكتاب ولكنا ذكرنا هذا المقطع منها للمناسبة.

(٣) انظر ترجمة سعد بن معاذ كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٤) الأكحل (بفتح الألف وسكون الكاف وفتح الحاء المعجمة) عرق في الذراع من الشرايين الرئيسية.

وقد أمر النبي ﷺ بحبس الرجال في دار أُسامة بن زيد، ووضع النساء والذراري في دار الضيافة دونما أي حبس أو تضييق، كما فصلنا ذلك فيما مضى.

وبعد عودة الرسول من ديار بني قريظة، شرع في إجراءات تنفيذ حكم الإعدام في هؤلاء اليهود.

فأمر بحفر خنادق عميقة لتدفن جثث هؤلاء الخونة بعد إعدامهم، وكان المكان الذي اختير لإعدامهم ودَفْنهم هو سوق المدينة الذي يغلب على الظن أنه المسمى اليوم (بسوق المناخة).

دفن اليهود في الخنادق بعد إعدامهم: وبعد أن انتهت عملية حفر الخنادق المعدة لدفن اليهود جلس النبي ﷺ في المكان المعد لإعدامهم ومعه كبار الصحابة، ثم أمر بإحضار الرجال من بني قريظة المحكوم عليهم، فأمر بإعدامهم، فأُعدموا دفعة بعد دفعة حتى لم يبق منهم أحد، وكان الصحابة كلما تم إعدام دفعة من هؤلاء اليهود قذفوا بهم في الخنادق وواروهم بالتراب، حتى انتهوا منهم.

وقد اختلف المؤرخون في عدد اليهود الذين تم إعدامهم، فالبعض يقول: إنهم ما بين ستمائة إلى سبعمائة، والبعض الآخر يقول: إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة[١].

ولقد أُعدم هؤلاء اليهود في ليلة واحدة، وقد جرت عملية الإعدام على ضوء مشاعل سعف النخل[٢].

وكان الذي تولى عملية قتل هؤلاء اليهود الخونة، هو علي بن أبي طالب والزبير بن العوام[٢].

ويقول بعض المؤرخين: إن زعماء الأوس (حلفاء بني قريظة) قد طلبوا من النبي ﷺ أن يشترك رجال من الأوس في عملية إعدام حلفائهم اليهود، لأن بعض منافسيهم من الخزرج اتهموهم بأنهم قد كرهوا قتل هؤلاء اليهود لأنهم حلفاؤهم، فأراد الأوس بهذا الاشتراك نفي هذه التهمة.

قال في الإمتاع: وجاء سعد بن عبادة والحباب بن المنذر[٣] - وهم من الخزرج - فقالا: يا رسول الله! إن الأوس كرهت قتل بني قريظة لمكان حلفهم.

---

(١) سمط النجوم العوالي ج٢ ص ١٣٨.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص ١٢٠.

(٣) السيرة الحلبية ج٢ ص ١٢٠.

فقال سعد بن معاذ (سيد الأوْس): ما كرهه أحد من الأوس فيه خير، فمن كرهه، فلا أرضاه الله فقام أسيد بن حضير [١] ـ وهو من سادات الأوس ـ فقال: يا رسول الله! لا تبقى دار من دور الأنصار إلا فرقتهم فيها، ففرقهم فقتلوهم[٢].

النبي يشهد عملية إعدام اليهود: وقد شهد النبي ﷺ عملية تنفيذ حكم الإعدام في يهود بني قريظة الذين أبى الله إلا أن يَصِلُوا (هم) إلى النهاية المرعبة التي أرادوا الوصول بالمسلمين إليها.

قال ابن إسحاق ـ يصف شهود رسول الله ﷺ عملية إعدام هؤلاء اليهود: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم ـ أي بني قريظة ـ فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالاً (أي جماعة بعد جماعة).

وكان على رأس الذين نُفذ فيهم حكم الإعدام من هؤلاء اليهود، كبير مجرميهم ورأس الفتنة والشر حيي بن أخطب [٣] سيد بني النضير الذي حزَّب الأحزاب وجمع جيوشها لغزو المدينة، وحمل بني قريظة على نكث العهد، وشجعهم على تسديد تلك الضربة الغادرة المخيفة للجيش الإسلامي من الخلف في تلك الساعات الدقيقة.

فقد قاد هذا المجرم الخبيث (حُيي بن أخطب) عمله السيئ إلى مصرعه، حيث شاء الله أن يكون هذا اليهودي الشيطان ـ ساعة ضرب الحصار على بني قريظة ـ بينهم في الحصون.

فاستسلم حُيي للمسلمين ضمن بني قريظة، فتم إعدامه معهم يوم أعدموا.

وذلك أن هذا اليهودي الشرير ـ عندما جاء لإقناع بني قريظة بضرورة نقض العهد والغدر بالمسلمين ـ قد تعهد لسيد بني قريظة كعب بن أسد بأن يبقى مع بني قريظة في حصونهم إذا ما انشمرت جيوش الأحزاب عن المدينة دون أن تحقق الهدف الذي يرمي إليه اليهود وهو سحق المسلمين وإبادتهم إبادة كاملة.

وفعلاً.. وفي هذا الزعيم اليهودي النضري لإخوانه بني قريظة بالعهد، فدخل معهم حصونهم وبقي بينهم حتى استسلموا للمسلمين فاستسلم معهم، فأعدم ضمنهم.

---

(١) تقدمت ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص ١٢٠.

(٣) انظر تفاصيل قصة حمل حيي بن أخطب بني قريظة وإغرائهم بالغدر بالمسلمين في «غزوة الأحزاب».

شيطان بني النضير يتكلم قبل إعدامه: وعندما جيء بهذا الزعيم اليهودي الخطر (حيي بن أخطب) إلى ساعة الإعدام، لم يخف بغضه للنبي الأعظم ﷺ وحقده عليه.

بل أعلن ذلك بكل صراحة وتبجح، في تلك الساعات الأخيرة من حياته الشريرة.

قال ابن إسحاق - يصف موقف حيي بن أخطب ساعة إعدامه - : وأتي بحيي بن أخطب عدو الله، وعليه حلة فقاحية [1] قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة، لئلا يسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل.

فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذله الله، وزاد السهيلي في الروض الأُنف: أن النبي ﷺ قال لحيي بن أخطب حين رآه موثقاً: ألم يمكن الله منك؟، فقال: بلى، ولكن من يخذلك يُخذل.

شجاعة حيي بن أخطب: ومن الجدير بالذكر أن هذا اليهودي المجرم لم يظهر عليه أي أثر للخوف، بل كان ساعة إعدامه على جانب كبير من الشجاعة والثبات.

فعندما تقدم الحرس بهذا اليهودي إلى ساحة الإعدام لضرب عنقه، طلب أن يسمح له بالكلام، عندما سمحوا له بذلك أقبل على الناس فقال: (أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل)، ثم جلس فضربت عنقه[2] ثم ألقى الجنود بجثته في الخندق.

وقد امتدح أحد شعراء اليهود، وهو جبل بن جوال الغطفاني الثعلبي، امتدح ابن أخطب على موقفه الذي وقفه قبل إعدامه، فقال:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ... ولكنه من يخذل الله يخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها ... وقلقل يبغي العز كل مقلقل

ومما تجدر الإشارة إليه، ويُثبت أن الشر يخرج منه الخير، هو أن أم المؤمنين (صفية) هي ابنة هذا اليهودي - حيي ابن أخطب تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن قتل زوجها في معركة خيبر، فكانت (رضي الله عنها) من خيرة أمهات المؤمنين ومن أرجحهن عقلاً.

كيف أعدم سيد بني قريظة: وبعد أن تم إعدام سيد بني النضير (حيي بن أخطب) جاء الحرس النبوي إلى ساحة الإعدام بسيد بني قريظة (كعب بن أسد).

---

(١) فقاحية لونها يضرب إلى الحمرة، على لون الورد حين هم أن يتفتح.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٤١.

وكـان كعـب هذا على جانب كبير من العقل وبُعْد النظر، وكان كارهاً لنقض العهد وغـير راغـب في الغـدر بالمسـلمين، بـل إنـه كـان يمـيل إلى الإسلام، لذلك دعا قومه إلى اعتـناقه، ولكـن غلبـت علـيه وعلـيهم الشـقوة، وغلب عليه شيطان بني النضير حُيي بن أخطب حتى انحرف به عن الخط المستقيم الذي كان يريد السير عليه، فقاده وقاد قومه بني قريظة في النهاية إلى ذلك المصير المخيف وهو الإعدام.

وقـد كـان كعب بن أسد (على النقيض من حيي بن أخطب) يمتاز عليه بعفة اللسان ووفرة الأدب.

فعـندما جاء الحرس بهذا الزعيم اليهودي لتنفيذ حكم الإعدام فيه، قال له النبي ﷺ: يا كعب! قال: نعم يا أبا القاسم.

قـال: ما انتفعتم بنصح ابن خراش [1] لكم وكان مصدقاً بي، أما أمركم بإتباعي وإن رأيتموني تقرؤني السلام؟.

قـال: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، فأمر النبي ﷺ أن يقدم فتضرب عنقه، فضربت. [2].

أفي كل موطن لا تعقلون؟

وكـان بـنو قـريظة المحتجزون في السـجن مـع سيدهم كعب بن أسد، كلما استدعى الحـرس جماعـة مـنهم لإعدامهم، لاذوا بسيدهم كعب، يسألونه في جزع وارتباك: ما تراه يصنع بنا؟.

فيجيبهم في ثبات ورباطة جأش: أفي كل موطن لا تعقلون؟ هو والله القتل.

فلم يزل الأمر كذلك (يذهب بهم الحرس إلى ساحة الإعدام جماعة بعد جماعة) حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ.

وهكـذا لم تُخطـيء فراسـة سـيد بـني قـريظة كعـب بن أسد، عندما قال لشيطان بني النضير حيي بن أخطب (إذ طلب منه الغدر بالمسلمين): ويحك يا حيي إنك امرؤ مشئوم.

فقـد توالـت الأحداث، وأثبتت الأيام صدق تقدير وفراسة كعب بن أسد، بأن حيي ابـن أخطـب كـان أشـأم إنسـان عـلى بـني قريظة، حيث وصل بهم في النهاية إلى الإبادة الكاملة.

---

(١) ابن خراش حبر من أحبارهم الكبار مات قبل ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وكان يوصيهم بإتباع النبي ﷺ.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص ١٢٠.

المـرأة الوحـيدة الـتي أعدمت: هكذا تم إعدام جميع رجال بني قريظة جزاء غدرهم وخيانـتهم ونكـثهم العهـد، أمـا النساء من بني قريظة فلم يقتل المسلمون منهن أحداً لأن آداب الحـرب في الإسـلام تحـرم تحـريماً قاطعاً قتل نساء العدو إلا حدًّا أو قصاصاً، أو في الميدان إذا كانت المرأة تقاتل.

ولهـذا فإنـه لم يقتل من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة، أمر النبي ﷺ بقتلها قصاصاً برجل من المسلمين قامت هذه المرأة باغتياله.

واسـم هـذه المـرأة الـيهودية القرظـية (مزنة) كانت قد طرحت رحىً على خلاَّد بن سويد ـ بتحريض من زوجها ـ فقتلته، فتمَّ إعدامها قصاصاً بذلك.

كانـت هـذه المرأة (ساعة تنفيذ حكم الإعدام) في رجال بني قريظة، موجودة في بيت عائشة (رضي الله عنها)، وقد استدعاها الحرس باسمها من بين جميع نساء بني قريظة.

فلما سمعت هاتف الحرس النبوي يهتف (أين مزنة؟) قالت: أنا والله.

فقالت لها عائشة: ويلك، مالك؟.

قالت: أُقتل (قتلني زوجني).

فقالت لها عائشة: وكيف قتلك زوجك؟.

قالـت: أمـرني أن أُلقـي رحـىً عـلى أصحاب محمد كانوا تحت الحصن مستظلين في فيئه، فأدركت خلاد بن سويد فشدخت رأسه فمات وأنا أقتل به.

أمر عجيب..

ثم أعطت عائشة تفصيلات أكثر عن الحادث، فقالت: إني كنت زوجة رجل من بني قـريظة وكان بيني وبينه كأشد ما يتحاب الزوجان، فلما اشتد أمر المحاصرة، قلت لزوجي: يـا حسرتي على أيام الوصال، كادت أن تنقضي وتتبدل بليالي الفراق، وما أصنع بالحياة بعدك؟.

فقـال زوجي: إن كنت صادقة إلى دعوى المحبة، فإن جماعة من المسلمين جالسون في ظل حصـن فـألقي عليهم حجر الرَّحى لعله يصيب واحداً منهم، فإن ظفروا بنا يقتلونك بذلك، ففعلت[1].

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص ١٢٠.

وكانت عائشة تتحدث عن هذه المرأة اليهودية وثباتها حديث المتعجب، قالت: والله! إنهـا لعـندي تـتحدث معي ظهراً لبطن، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هـاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت عائشة: قلت لها: ويلك مالك؟، قالت: أُقتل، قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته، قالت عائشة: فانطلق بها، فضربت عنقها.

فكانـت عائشـة تقـول: والله! ما أنسى عجباً منها، طيب نفسها وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل[١].

وذكر أبو ذر: أن هذه المرأة اليهودية (مزنة) هي زوجة رجل اسمه الحسن القرظي.

وقـد نجـا رجـل واحـد فقـط مـن بـني قـريظة مـن القـتل، وهـو رفاعـة بن سموأل القـرظي[٢]، وهبه رسول الله ﷺ لإحدى نساء بني النجار، شفعت له عند رسول الله ﷺ لأنـه أوعـد أنـه سيسلم، وقد أسلم فعلاً. وكانت هذه المرأة (وهي سلمى بنت قيس)[٣]. من نساء الأنصار السابقات إلى الإسلام.

قـال ابـن إسـحاق: إن سـلمى بنـت قـيس أُم المـنذر، وأخت سليط من أم سليط ـ وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلت معه القبلتين وبايعته بيعة النساء ـ سألته رفاعـة بـن سموأل القرظي، وكان رجلاً قد بلغ فلاذ بها (أي التجأ إليها)، وكان يعرفهم قـبل ذلـك، فقالـت: يا نبي الله! بأبي أنت وأمي، هب لي رفاعة فإنه قد زعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها فاستحيته.

قصة عجيبة من قصص اليهود: وفي الوقـت الذي تم فيه تنفيذ حكم الإعدام العادل في عصـابة الغـدر والخـيانة والإجرام من يهود بني قريظة، حدثت قصة عجيبة مثيرة، محورها محارب يهودي قديم عنيد.

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٤٢.

(٢) رفاعة بن سموأل القرظي هذا من الصحابة الكرام أسلم وحسن إسلامه. جاء له ذكر في صحيح البخاري فهو الذي روى البخاري من حديث عائشة قالت: جاءت امرأة رفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! إن رفاعة طلقني فبت طلاقي (الحديث).

(٣) هي سلمى بنت قيس بن عمرو بن عبيد النجارية الأنصارية، تكنى أم المنذر، قالت: بايعت النبي ﷺ فيمن بايعه من النساء (على أن لا يشركن بالله شيئاً) ويقال لها: خالة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أم أبي عبد الله من بني النجار، فبنو النجار هم أخوال عبد الله بن عبد المطلب، فصاروا لذلك أخوال النبي ﷺ.

كان هذا اليهودي المحارب واسمه (الزبير بن باطا) من قادة بني قريظة في الجاهلية وكان قد أسدى معروفاً كبيراً إلى رجل من صحابة محمد قبل الإسلام، وهو ثابت بن قيس بن الشماس الخزرجي[1] ، فحاول هذا الصحابي الجليل أن يجزي هذا اليهودي على معروفه السابق.

فذهب هذا الصحابي إلى نبيه محمد ﷺ وذكر له قصة فضل هذا اليهودي ومنته عليه، وطلب منه ـ بصفته القائد الأعلى ذا الصلاحيات المطلقة في العفو عمّن يرى ـ أن يعفو عن هذا اليهودي المحكوم عليه بالإعدام. ليرد له بذلك فضله السابق عليه.

فوافق النبي القائد ﷺ وأجاب صاحبه إلى ما طلب، ولكن الغريب في الأمر هو أنَّ هذا اليهودي، أبى ـ بعد صدور العفو عنه ـ إلا أن يقتل كما قتل قومه ليلحق بهم إلى الجحيم.

وتفصيل ذلك، هو أن بني قريظة كانوا يُعتبرون في السلم والحرب جزءًا من قبيلة الأوس، وذلك بفعل رابطة التحالف القائمة بين القبيلتين، كما هي القاعدة المتبعة عند العرب في الجاهلية.

ولذلك فإن يهود بني قريظة كانوا، إذا ما نشبت (في تلك الحروب الأهلية الطويلة) معركة بين الأوس والخزرج يقفون إلى جانب الأوس فيقاتلون معهم حتى النهاية كجزء لا يتجزأ منهم كما كان يفعل يهود بني النضير وبني قينقاع مع الخزرج حلفائهم.

وعندما نشبت معركة بُعاث الشهيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج والتي كان النصر الساحق فيها للأوس على الخزرج، وقع ثابت بن قيس بن الشماس الخزرجي أسيراً في يد القائد اليهودي الزبير بن باطا هذا، الذي كان يقود بعض اليهود في تلك المعركة ضد الخزرج.

وقد منَّ الزبير هذا على ثابت بن قيس حيث أخلى سبيله بعد أن جز ناصيته، فحفظها قيس يداً بيضاء للزبير بن باطا.

---

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس بن زهير الخزرجي الأنصاري، خطيب الأنصار الشهير، وهو الذي قال للرسول صلى الله عليه وسلم عند مقدمه المدينة: نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا فما لنا؟ فقال: (الجنة)، أول مشاهده العسكرية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معركة أحد وشهد ما بعدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قتل ثابت المذكور شهيداً في معركة اليمامة.

فلما وقع بنو قريظة في عملهم السيئ، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ وحكم عليهم القاضي سعد بن معاذ بالإعدام جميعاً، تذكر ثابت بن قيس ما لليهودي الزبير بن باطا عليه من فضل سابق، فأحب أن يرد له جميله، فتوجه إلى رسول الله ﷺ وطلب منه (كما تقدم) أن يُمنَّ على هذا اليهودي فيهبه له لينجو من القتل، ففعل النبي ﷺ، بل وأمر (استجابة لالتماس آخر قدمه صاحبه ثابت) بأن يعاد إلى هذا اليهودي كل أبنائه ونسائه وكامل أمواله، ولكن هذا اليهودي العنيد الذي تخطى الستين من عمره رفض كل ذلك وأبى إلاَّ أن يموت كما مات زملاؤه في الخسة والغدر والخيانة من بني قريظة.

ولنستمع إلى هذه القصة العجيبة يرويها لنا ابن هشام بسنده عن محمد بن إسحاق، فقد قال ابن إسحاق: وكان ثابت بن قيس ابن الشماس - كما ذكر لي ابن شهاب الزهري - أتى الزبير بن باطا القرظي، وكان يكنى (أبا عبد الرحمن) وكان الزبير قد منَّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية، «ذكر لي بعض ولد الزبير أنه كان منَّ عليه يوم بُعاث» أخذه فجزَّ ناصيته ثم خلَّى سبيله.

فجاء ثابت (وهو شيخ كبير) فقال: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟.

قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟.

قال: إنّي قد أردت أن أجزيك بيدك عندي.

قال: إن الكريم يجزي الكريم.

قال ابن إسحاق: ثم أتى قيس بن ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنه قد كانت للزبير عليّ منّة وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه.

فقال رسول الله ﷺ: فهو لك.

فقال الزبير بن باطا (لما أبلغه قيس أمر العفو عنه): شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟.

قال: فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هب لي امرأته وولده.

قال ﷺ: هم لك.

قال: فأتاه (ثابت) فقال له: قد وهب لي رسول الله ﷺ، أهلك وولدك، فهم لك.

قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟.

فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ماله (أي هب لي ماله).

فقال ﷺ: هو لك.

فأتاه ثابت فقال (له): قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك، فهو لك.

فقال (هذا اليهودي): أي ثابت، ما فعل الذي كأنَّ وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحي، كعب بن أسد؟.

قال: قتل.

قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي، حيي بن أخطب؟.

قال: قُتِلَ.

قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا، غزال بن سموأل؟.

قال: قُتل.

قال: فما فعل المجلسان (يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة)؟.

قال: ذهبوا، قُتلوا.

قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله! ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قَتْله دلو ناضح [1] حتى ألقى الأحبّة.

فقدَّمه ثابت، فضرب عنقه.

فلما بلغ أبا بكر الصديق، قوله: ألقى الأحبة، قال: يلقاهم في نار جهنم خالداً مخلداً[2].

مصير السبي والغنائم: وبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من أمر رجال بني قريظة (تنفيذاً للحكم الذي أصدره القاضي سعد بن معاذ) أمر الرسول القائد ﷺ بتشكيل هيئة من كبار الصحابة للقيام بجرد وإحصاء جميع أموال بني قريظة (المنقولة وغير المنقولة) من ديار وسلاح وأثاث ومزارع وخيول وجمال وغير ذلك.

وتم إحصاء السبي من النساء والذراري فكانوا ألف رأس، وقد وجد المسلمون في حصون بني قريظة من العتاد الحربي الكميات التالية:

أ- ١٥٠٠، ألف وخمسمائة سيفاً.

ب- ٢٠٠٠، ألفين من الرماح.

---

(١) الناضح: الحبل الذي يستخرج عليه المياه من البئر، بالسانية، والمراد بقوله: (قَتْلَة دلو ناضح)، هو مقدار ما يأخذ الرجل الدلو، إذا أخرجت فيصبها في الحوض، يقتلها أو يردها إلى موضعها.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٤٣.

جـ- ٣٠٠، ثلاثمائة درع.

د- ٥٠٠، خمسمائة ترس، وجحفة[١].

كما وجدت اللجنة جراراً كثيرة من الخمر المخزون المعتق، فأمر النبي ﷺ بإراقتها، وعدم قسمتها مع الغنائم، وفي هذا دليل على أن الخمر قد نزل بها التحريم قبل غزوة خيبر، والله أعلم بالصواب.

وبعد أن تم إحصاء الغنائم من سبي وأموال، أمر النبي ﷺ بتقسيمها على جند الإسلام الذين اشتركوا في حصار بني قريظة (فقط).

وقد تمَّ تقسيم الغنائم حسب القانون الذي نزل به القرآن، وهو أن تقسم خمسة أقسام: قسم يبقى تحت تصرف النبي القائد ﷺ يتصرف فيه حسبما تقتضيه المصلحة، وذلك تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٢].

وأربعة أقسام توزّع (أسهماً) على المحاربين الذين بسيوفهم جاءت هذه الغنائم.

وكما هو القانون الثابت، أُعطيت من الغنائم ثلاثة أسهم للفارس، سهم له، وسهمان لفرسه.

أما المحارب الراجل الذي لا فرس له فقد أعطى (حسب القانون) سهماً واحداً فقط.

وذلك أن أثر الفارس في المعركة على العدو أشد بكثير من أثر الراجل الذي لم يقاتل على فرس.

فعلى هذا النظام قُسِّمت غنائم يهود بني قريظة بعد استسلامهم وإعدامهم.

مشاركة المرأة في الغنائم: إلا أن النبي ﷺ - وبطريقة استثنائية - رضخ[٣] من غنيمة بني قريظة لسبع من نساء المسلمين كنَّ قد حضرن عمليات الحصار، أي أنه لم يسهم لهن في الغنيمة كالرجال وإنما أعطاهن شيئاً قدره بنفسه.

---

(١) الترس - بضم التاء وسكون الراء - صفحة من الفولاذ يحتمي بها المحارب من السيف ونحوه، والجحفة - بضم الجيم وسكون الحاء - نوع من الدرق يحتمي به المحارب أيضاً.

(٢) الأنفال: ٤١.

(٣) الرضخ - بفتح الراء - هو إعطاء قليل من كثير، دونما الرجوع إلى قاعدة معينة.

وهؤلاء النسوة الفاضلات اللواتي حضرن حصار بني قريظة هن في السيرة الحلبية:

١- أم عمارة - نسيبة بنت كعب المازنية، الصحابية الشهيرة التي قاتلت المشركين في معركة أُحد [١].

٢- صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ [٢]. ٣ - أم سليط [٣].

٤- أم العلاء [٤]. ٥ - السميراء بنت قيس [٥].

٦ - أم سعد بن معاذ [٦].

وهذه أول مرة يعطى فيها النبي ﷺ النساء من غنائم العدوّ، كما أن غزوة بني قريظة هي ثاني عمل حربي تشترك فيه المرأة المسلمة، فقد اشتركت في معركة أُحُدْ مقاتلة ومُسعفة [٧].

وكذلك أسهم رسول الله ﷺ لرجلين من المسلمين كانا قد ماتا في حصار بني قريظة.

أحدهما خلاَّد بن سويد، وهو الذي قتلته (مزنة اليهودية) بحجر رحى ألقته عليه من رأس الحصن، فقتلته به كما تقدم. وخلاد هذا هو ابن سويد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي كان من السابقين في الإسلام، شهد العقبة وبدراً.

وقد دفع رسول الله ﷺ سهمه إلى ورثته، وقال: إنَّ له أجر شهيدين [٨].

---

(١) انظر ترجمتها في كتابنا (غزوة أحد).

(٢) انظر ترجمتها في كتابنا (غزوة أحد).

(٣) أم سليط قال أبو عمر من المبايعات حضرت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، قال عمر بن الخطاب كانت ممن يزفر لنا القرب يوم أحد، وهي والدة الصحابي الشهير أبي سعيد الخدري.

(٤) ترجم في الإصابة لثلاث نساء كلهن يحمل هذا الاسم، ولكن يظهر أن صاحبة هذه الترجمة هي أم العلاء بنت الحارث بن ثابت الخزرجية الأنصارية، وهي والدة (خارجة بن زيد)، كانت من شهيرات الصحابيات، فهي من المبايعات، روى عنها الشيخان البخاري ومسلم عن طريق الزهري.

(٥) قال أبو عمر: سمراء بنت قيس الأنصارية مدنية روى عنها أبو أمامة بن سهل بن حنيف.

(٦) قال ابن عبد البر: اسمها كبشة بنت رافع بن عبيد الخدرية الأنصارية، والدة سعد بن معاذ (سيد الأوس) عاشت حتى مات ابنها، وندبته بقولها: ويل أم سعداً - صرامة وجداً، وعلى هذا يكون النساء التي رضخ لهن النبي صلى الله عليه وسلم من الغنيمة ست لا سبع، لأنه لا يوجد غيرها امرأة اسمها (كبشة بنت رافع) فيما رأينا من مصادر والله أعلم.

(٧) انظر بحث اشتراك المرأة في القتال في كتابنا (غزوة أحد) تحت عنوان(دور المرأة في المعركة) الفصل الخامس.

(٨) السيرة الحلبية ج٢ ص ١٢٠.

وثانيهما أبو سنان بن محصن [١] أخو عكاشة بن محصن [٢] مات (غير مقتول) أيام حصار بني قريظة، وهو ضمن الجيش المحاصر، وقد تسلّم ورثته سهمه في الغنيمة.

وهذه أيضاً، أول مرة يسهم فيها النبي ﷺ لميت في غنيمة من غنائم العدو.

منع التفريق بين الأم وابنها: وعند توزيع الغنائم على المحاربين أصدر النبي أمراً مشدداً بأن لا يفرق أحد بين أم وولدها من سبي بني قريظة، عندما يرغب في بيعهم.

فإما البيع معاً، وإما الاستبقاء معاً، لأنَّ في التفريق بين الأم وولدها تعذيباً شديداً لهما لا يقره الإسلام، بل إن الرسول القائد ذهب في الشفقة والرحمة إلى أبعد من منع التفريق بين الأم وولدها فأصدر أمره مشدداً أيضاً بأن لا يفرق أحد بين الأخت وأختها حتى يبلغا.

فقد روى الترمذي في صحيحه أن النبي ﷺ قال: من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة.

وعن عبادة بن الصامت، أن النبي ﷺ قال: لا يفرق بين الوالدة وولدها، فقيل: إلى متى؟ قال: حتى يبلغ الغلام وتحيض الجارية.

وروى الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: وهب لي رسول الله ﷺ غلامين (صغيرين) فبعتُ أحدهما، فقال: ما فعل غلامك؟ فقلت: بعته، فقال: (رده، رده) أي أن النبي ﷺ استنكر التفريق بين الأخ وأخيه ما داما صغيرين.

ونتيجةً لهذه الأوامر النبوية المشدَّدة بشأن سبي العدو، كان قادة الجيوش الإسلامية في حروب الإسلام يمنعون التفريق بين الأم وولدها وبين الأخت وأختها والأخ وأخيه.

وقد كتب عمر بن الخطاب إلى قادة الجيوش الإسلامية في الشام والعراق: لا تفرقوا بين الأخوين ولا بين الأم وولدها في البيع لأنه ذو رحم.

---

(١) هو أبو سنان بن محصن بن حرثان من بني أسد بن خزيمة، شهد بدراً وأحداً والخندق.

(٢) هو عكاشة بن محصن بن حرثان من بني أسد بن خزيمة من السابقين إلى الإسلام، شهد بدراً وأحداً والخندق وكل المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان عكاشة من أجل الرجال، استشهد عكاشة في حرب الردة على يد طليحة بن خويلد وأخيه سلمة عندما كان يقوم بأعمال الاستطلاع لجيش خالد بن الوليد هو وثابت بن أقرم في منطقة (بزاخة بنجد) وثبت في الصحيحين أن عكاشة بن محصن في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، فقد جاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر أولئك السبعين الذين يدخلون الجنة بغير حساب، قال عكاشة: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت منهم، فقام آخر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: سبقك بها عكاشة، فصار يضرب بها المثل، يقال للسبق في الشيء: فاز بها عكاشة.

وقد حكم الإمام الشافعي بفساد بيع المفرَّق بينهما سواء كان المفرق بينهما بالبيع أخوين، أو أم وولدها [(١)].

الرسول يتزوج من بني قريظة: وقد تزوج رسول الله ﷺ من سبايا يهود بني قريظة امرأة اسمها (ريحانة بنت عمرو) وهو (شمعون مولى رسول الله ﷺ - تزوجها بعد أن أعتقها)[(٢)].

وبعد الاستيلاء على ممتلكات يهود بني قريظة وسبي نسائهم وذراريهم، بعث رسول الله ﷺ بقسم من هذا السبي إلى البلدان المجاورة لبيعهم وشراء خيل وسلاح بثمنهم للجيش.

فبعث سعد بن زيد الأنصاري [(٣)] بسبايا من يهود بني قريظة إلى نجد في الجزيرة العربية فابتاع بهم خيلاً وأسلحة أخرى.

وكذلك بعث سعد بن عبادة بقسم من ذلك السبي إلى الشام، فباعهم واشترى بثمنهم خيلاً كثيراً ثم قسمها رسول الله ﷺ على المسلمين [(٤)].

* * *

---

(١) انظر المغني لابن قدامة ج٨ ص ٤٢٤ كتاب الجهاد، قسم الغنائم.

(٢) السيرة الحلبية ج٢.

(٣) هو سعد بن زيد بن مالك الأنصاري الأشهلي من السابقين إلى الإسلام، شهد بيعة العقبة (كما يقول الواقدي) وشهد بدراً وأحداً والخندق وكل المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم سنة ثمان من الهجرة ليهدم مناة (الصنم المشهور) فهدمه، لم أطلع على تاريخ وفاته.

(٤) السيرة الحلبية ج٢ ص ١٢٤.

الفصل الرابع
على أطلال بني قريظة

- **المعترضون على الحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود.**
- **مناقشة هؤلاء المعترضون والرد على مطاعنهم بهذا الصدد.**
- **الحكم الصادر والنافذ بحق بني قريظة موافق لجميع القوانين الدولية في كل العصور.**
- **بحث استرقاق نساء وأطفال يهود بني قريظة.**
- **بحث الرق في الإسلام بصفة عامة، والرد على خصوم الإسلام حيال هذا الموضوع.**

بعد أن فصّلنا حوادث خيانة يهود بني قريظة وما ترتَّب على هذه الخيانة المنكرة من نتائج خطيرة كان أهمها إعدام حوالي ثمانمائة مقاتل من هؤلاء اليهود وسبي نسائهم وذراريهم، ومصادرة كل ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة.

بعد أن فصلنا هذا، لابد لنا من وقفة على أطلال هؤلاء اليهود نتناول فيها بالبحث والتحليل هذه الناحية لإزالة ما يكون قد علق ببعض الأذهان حول صرامة حكم الإعدام والمصادرة والسبي الذي صدر ونفذ بحق يهود بني قريظة، والذي يبدو لأول وهلة (للسطحيين) أن فيه شيئاً من القسوة والوحشية. كما لابد لنا في هذه الوقفة من مناقشة الطعون والرد على الانتقادات التي أوردها البعض بشأن هذا الحكم الصارم الذي صدر ونفذ في هؤلاء اليهود.

الطاعنون في حكم إعدام اليهود: فهناك فريقان، لا يمرّ أحدهما بحادثة العقوبة النازلة بيهود بني قريظة، إلا ويعلن استنكاره للحكم النافذ في هؤلاء اليهود (وخاصة عقوبة الإعدام)، ويصفها بأنها عمل يتسم بالوحشية والقسوة.

فريق رئيسي، وهم غير المسلمين الذين يحرصون (دائماً) على نشر ظلال من الشكوك حول دعوة الإسلام، وإيجاد المطاعن في قطب هذه الدعوة وحامل لواء رسالتها محمد بن عبد الله ﷺ، وأهداف هذا الفريق الخبيثة ومقاصده السيئة معروفة مكشوفة، فهم أعداء أساسيين للإسلام ونبيّ الإسلام.

وفريق ثانوي، وهم بعض المنتسبين إلى الإسلام والمحسوبين عليه، الذين لا يعرفون عن هذا الدين إلا ما تلقوه في مدارس ومعاهد وجامعات أعدائه.

كـل هـؤلاء وأولـئك يلمحون ويصرحون (أحياناً) بأن عملية الإعدام الجماعية التي تمـت بحـق يهـود بـني قـريظة على تلك الصورة الصارمة السريعة، هي عملية قد اتسمت بطابع الوحشية والانتقام الذي يتناف مع قواعد الإنسانية وروح القرن العشرين المتمدّنة، لاسيما وأن اليهود قد وقعوا أسرى حرب في أيدي المسلمين.

تحذير لكل مسلم: وقـبل الدخول في مناقشة هؤلاء الطاعنين في الحكم الصادر والنافذ بحق بني قريظة، وقبل ردّ هذه المطاعن وإبطالها بالحجج المنطقية والقانونية والوجدانية، لابد لنا ولكل مسـلم مـن الإقـرار والتسـليم (صيانة لديننا وحماية لإيماننا) بأنه ليس لنا الحق في أي تعقيب أو مناقشة (فضلاً عن الانتقاد) في أي حكم يصدر عن النبي الكريم ﷺ أو يقره ويمضيه.

لأن الـنبي محمـد ﷺ لا يصـدر في أي حكـم إلا عن الله تعالى. إذ هو (كما قال جلّ وعلا).. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[1].

وأي إنسـان ينتسـب إلى الإسلام ويصدر منه أي طعن أو انتقاد لحكم يصدره رسول الله ﷺ أو يمضـيه فهـو كافـر لا مكان له في الإسلام، لأن الذي يفعل شيئاً من هذا يعتبر معترضـاً عـلى الرسول الأعظم ﷺ، والذي يعترض على الرسول ﷺ إنما هو في الحقيقة معترض على الله وطاعن في حكم الله، والطاعن في حكم الله كافر حلال الدم بالإجماع.

والحكـم الصادر في حق يهود بني قريظة هو ـ كما ثبت في صحيح البخاري - حكم الله الـذي أراده وارتضـاه كمـا قـال بذلك النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال للقاضي سعد ابن معاذ عندما أصدر حكم الإعدام على يهود بني قريظة: «حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات».

ومع إيماننا الكامل بكل ما ذكرنا وتسليمنا المطلق بعدالة ذلك الحكم الذي صدر بحق يهـود بـني قـريظة ونفـذ فيهم، فإننا مستعدون لمناقشة المعترضين الطاعنين في هذا الحكم، وأن نثبـت لهـم شـرعية ووجاهـة هـذا الحكـم، ومطابقته لكل قواعد العدالة التي يلتزمها القضـاء والحكم في كل عصر وزمان، وحتى زمن القرن العشرين، وأنه يتمشى كل المشي مـع قواعـد الإنسـانية وأن لـيس فيه أي تنافر مع إحساسات الضمائر الحية والوجدانات المستقيمة. ولنبدأ المناقشة:

طبيعة اليهود الأبدية: لقد أثبتت مجريات الأحداث ـ منذ وصول النبي ﷺ إلى منطقة يـثرب ـ أن هـؤلاء الـيهود بل كل يهود يثرب على أمر مبيّت للكيد للنبي ﷺ والقضاء عليه وعلى دعوته بأية وسيلة مهما بلغت من الخسة والوضاعة.

---

(١) النجم ٢، ٣.

وأن الغدر والخيانة واستحلال دماء وأعراض وأموال كل من يخالف اليهود في دينهم ولا ينحدر من جنسهم، قاعدة عامة ثابتة لديهم، وطبيعة خبيثة متأصلة في نفوسهم وسابحة في دمائهم. لا تلبث أن تظهر وتبرز وتتجلى عندما تسنح لهم الفرصة، فيسيرون على هذه القاعدة اللعينة، حتى ولو كانوا قد أعطوا ألف عهد ووقعوا ألف ميثاق.

المعاهدة بين المسلمين واليهود: عندما جاء النبي ﷺ إلى يثرب ودان أهلها من الأوس والخزرج بالإسلام، وصار المسلمون في المدينة أغلبية ساحقة عقد النبي ﷺ مع الطائفة اليهودية بقبائلها الثلاث: (بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة) معاهدة شاملة، كان أهم ما جاء في هذه المعاهدة أن المسلمين واليهود أُمة واحدة يشتركون في وطن واحد، وأن عليهم الدفاع المشترك عن هذا الوطن (يثرب): المسلم واليهودي يلزمه حمل السلاح لصدّ أي عدوان يأتي من الخارج يستهدف هذه المنطقة مهما كان مصدره.

أربع سنوات من المعاهدة: وفي ظرف أربع سنوات من هذه المعاهدة كشفت الأحداث المتلاحقة أن اليهود جميعاً (بقبائلهم الثلاث) ما قبلوا تلك المعاهدة وارتضوا بنودها ووقعوا عليها إلا مكراً وخداعاً، وأنهم ما كانوا يهدفون من ورائها إلا تطمين المسلمين ليثقوا بهم ويركنوا إليهم.

وحتى إذا ما سنحت لهم الفرصة داسوا هذه العهود والمواثيق وشرعوا (دون إقامة أي اعتبار لخلق أو وجدان أو ضمير أو دين) في تسديد ضربتهم التي يحرصون على أن تكون قاتلة حاسمة.

ولقد عانى النبي ﷺ من هذا الخلق اليهودي الخبيث المتأصل، متاعب كثيرة، فبالرغم من تمسك النبي ﷺ بالمعاهدة المعقودة بينه وبين اليهود، ورغبته الصادقة في تطبيقها حرفياً والوفاء بها إلى أبعد الحدود فإن هؤلاء اليهود (دونما استثناء) كانوا لا تسنح لهم فرصة يرون أنهم قادرون فيها على تسديد ضربة قاتلة إلى المسلمين إلاّ وحاولوا استغلالها وكأن لم يكن هناك بينهم وبين المسلمين عهد أو ميثاق.

لقد رأينا كيف صنع بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة معهم فحاربوا النبي ﷺ ونقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين عندما ظنوا أنهم قادرون على نسف الكيان الإسلامي وتدميره، وكيف أن النبي ﷺ قد اكتفى بنفي بني النضير وبني قينقاع بعد أن ظفر بهم، وكانت عقوبة النفي هذه (فيما يبدو لنا) في مستوى الخطيئة التي ارتكبها بنو النضير وبنو قينقاع.

ولقد حاربت بنو قريظة المسلمين مع بني النضير، ولكن (لاعتبارات خاصة) لم ينفهم النبي ﷺ بل أقرهم وعفا عنهم بعد أن جددوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين [١].

العهود والمواثيق في نظر اليهود: ولكن هؤلاء اليهود عندما سنحت لهم الفرصة وظنّوا أنهم قادرون على سحق المسلمين وإبادة خضرائهم إبادة كاملة، أقدموا على أحطّ عمل وأنذل صنيع في تاريخ النكث والغدر والخيانة.

فقد استغل هؤلاء الجبناء الموقف العصيب الذي صار إليه حلفاؤهم المسلمون حينما أغرقتهم جيوش الأحزاب الخانقة الجرَّارة من كل مكان.

فقد ثارت بهم (آن ذاك) خصائص النذالة المتأصلة في نفوسهم وطبيعة الخيانة السابحة في دمائهم، فكشفوا القناع وظهروا من جديد على حقيقتهم.

وإذا بالعهود والمواثيق التي أبرموها مع المسلمين تصبح وكأنها لم تكن.

فقد مزّق هؤلاء اليهود هذه العهود والمواثيق ووطئوها بأقدامهم حينما ذهبوا إلى قيادة الأحزاب الغزاة يضعون يدهم في أيديهم ويعاهدونهم (في تلك الساعات الرهيبة الحاسمة من تاريخ الإسلام والمسلمين) على سحق المسلمين وهدم كيان الإسلام إلى الأبد.

ويأتي إليهم المسلمون الذين (كما شهد زعيم هؤلاء اليهود كعب بن أسد) لم يروا منهم ومن نبيّهم إلا صدقاً في المعاملة ووفاءً بالعهد.. يأتون إليهم ليطلبوا منهم الثبات على العهد ويذكرونهم بالمسؤولية العظمى والنتائج الوخيمة التي تترتب على النكث بهذه العهود والمواثيق، وخاصة في مثل تلك الظروف الحربية الدقيقة الحرجة.

وإذا بالجواب يأتي من قبل هؤلاء اليهود، سخرية واستهزاءً بالنبي ﷺ وبالمسلمين، وبالعهود والمواثيق التي أبرموها معهم:

«من هو محمد (هذا الذي يقول إن بيننا وبينه عهداً) ومن هو رسول الله؟، نحن لا نعرف محمداً وليس بيننا وبينه أيّ عهد»!.

هكذا كان جواب يهود بني قريظة للمسلمين عندما جاء وفدهم إلى هؤلاء اليهود يطلب منهم الثبات على العهد الذي بين الفريقين والقيام بالالتزامات العسكرية التي عليهم والتي تفرض القيام بها نصوص تلك المعاهدة.

---

(١) ذكرنا فيما مضى أن بني قريظة قد حاربوا مع بني النضير كما ثبت في صحيح البخاري.

وهؤلاء اليهود لم يسلكوا هذا المسلك الوضيع المنحطّ إلا وقد تكون لديهم ما يشبه اليقين بأنهم ـ بمساعدة الأحزاب ـ قادرون على تدمير الكيان الإسلامي تدميراً كاملاً، واستئصال شأفة المسلمين استئصالاً كلياً، ولهذا لم يترددوا في الغدر بحلفائهم المسلمين وعلى تلك الصورة الفظيعة البشعة.

وعلم الله لو أن هؤلاء اليهود قد ظفروا بالمسلمين، وتمكنوا ـ بمساعدة الغزاة ـ من احتلال المدينة لما ترددوا لحظة في الوصول بالمسلمين إلى أقسى مما وصل المسلمون بهم إليه، ولا أدلّ على ذلك من أن هؤلاء اليهود قد اتفقوا مع قادة جيوش الأحزاب على أن لا ينصرفوا بجيوشهم عن المدينة إلا بعد القضاء على المسلمين وسحقهم سحقاً كاملاً، وذلك كشرط أساسي لانضمام هؤلاء اليهود إلى الأحزاب ضد المسلمين وإعلانهم نقض العهد الذي بينهم.

بل لحرص هؤلاء اليهود على استئصال شأفة المسلمين وحرصهم على إبادتهم إبادة كاملة، طلبوا من القيادة المشتركة للأحزاب أن يسلموا إليهم رهائن من أبنائهم سبعين شاباً ليضمنوا أن جيوش الأحزاب لن تنسحب من منطقة المدينة إلا بعد أن تفرغ من المسلمين وتقضي عليهم قضاءً تاماً [1].

فهل بعد هذا الصنيع الذي صنعه اليهود مع سبق الإصرار، والذي لم يُقدموا عليه إلا بعد درس وتخطيط وخبث نية مبيتة، هل بعد هذا الصنيع الخسيس الوضيع الذي قام به هؤلاء اليهود، يجوز لعاقل منصف أن يسمح لنفسه بالقول: إن حكم الإعدام الذي صدر ونفذ بحق يهود بني قريظة هو حكم غير إنساني ولا عادل؟.

إلى المدافعين عن بني قريظة: إننا نقول (بكل صراحة واطمئنان وثقة) لهؤلاء المعترضين على الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة: إن هذا الحكم ليس فيه (كما تتوهمون) أية قسوة أو وحشية.

وإنما هو عقاب عادل نزل بخونة مجرمين يستحقونه، عقاب يطمئن إليه الضمير والوجدان، وتقره جميع الأعراف والقوانين الدولية وتنفذ مثله حتى هذه اللحظة، ولكي نبرهن على صحة القول من الناحية العرفية والقانونية نقول:

أهم بنود المعاهدة:

١ - لقد كان اليهود من سكان يثرب، فكانوا هم والمسلمون من الناحية القانونية في العرف الحديث ـ يشكلون وحدة وطنية من حيث كونهم سكان بلد واحد قبل الإسلام وبعده.

---

(١) انظر السيرة الحلبية ج٢.

وبعد أن قام شكل الحكم في يثرب - بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة ودخول الأنصار في الإسلام - قبل اليهود (دونما أي ضغط أو إكراه) أن يكونوا مع المسلمين أمة واحدة لهم ما لهم وعليهم ما عليهم تجاه هذا الوطن الواحد: (يثرب).

٢- فقد عقد النبي ﷺ مع هؤلاء اليهود معاهدة مكتوبة [(١)] وقع عليها زعماء الفريقين: (المسلمون واليهود) التزم فيها الفريقين الدفاع عن الوطن المشترك يثرب (يوم ذاك) ضد أي اعتداء يأتي من الخارج، سواء كان المقصود بهذا الاعتداء اليهود أو المسلمين.

فقد جاء في البند الرابع والأربعين من هذه المعاهدة بشأن الدفاع المشترك عن يثرب:

(وأن بينهم - أي المسلمين واليهود - النصر على منْ دهم يثرب).

كما جاء في البند السادس والثلاثين من هذه المعاهدة (أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة - أي صحيفة المعاهدة - وأنَّ بينهم النصح والبر دون الإثم).

اليهود والمسلمون أمة واحدة:

٣- لقد أكّد اليهود واعترفوا بتوقيعهم على هذه المعاهدة بأنهم والمسلمين أمة واحدة يجمعهم وطن واحد، يلزمهم ما يلزم كل مواطن إزاء وطنه، مع بقاء كل من المسلمين واليهود على دينه حراً.

فقد جاء في البند الخامس والعشرين من هذه المعاهدة بهذا الشأن: (أن اليهود أمة مع المسلمين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم).

٤- وبالإضافة إلى أنَّ تقديم اليهود أية تسهيلات (مهما كان نوعها) لأي عدو يريد احتلال المدينة، بعد توقيعهم على هذه المعاهدة، يجعلهم (من ناحية العرف والقانون في جميع العصور) خونة يستحقون من العقوبة ما يستحق مرتكب الخيانة العظمى ضد وطنه في الظروف الحربية، فإن هؤلاء اليهود قد التزموا في هذه المعاهدة الامتناع عن تقديم أي عون لخصوم أي من الطائفتين (المسلمين واليهود)، وخاصة قريشاً (العدو رقم واحد للمسلمين).

فقد جاء في البند الثالث والأربعين من هذه المعاهدة: (وأنه لا تُجّار قريش ولا من نَصَرها).

---

(١) انظر بنود هذه المعاهدة مفصلة في كتاب (الوثائق السياسية) للسيد الدكتور محمد حميد الله ص ١.

٥- بالإضافة إلى هذا كله اعترف يهود بني قريظة (في هذه المعاهدة) بالحكم الإسلامي القائم في يثرب، وإن لم يعترفوا بالإسلام رسمياً.

كان اليهود مواطنين يثربيين: كما أقروا في هذه المعاهدة بأنهم مواطنون يثربيون يجري عليهم (في ظل هذا الحكم) ما يجري على غيرهم، ما عدا الأمور المتعلقة بأحوالهم الشخصية كالزواج والطلاق والإرث، وما يتعلق بمعابدهم وطقوس عباداتهم، كما اعترفوا اعترافاً كاملاً بأن مرجعهم في جميع قضاياهم (عدا الدينية الخاصة بهم) هو الرئيس الأعلى لهذه الدولة محمد بن عبد الله ﷺ.

فقد جاء في البند الثاني والأربعين من هذه المعاهدة: (وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة).

٦- بل لقد اعترف اليهود بتوقيعهم على هذه المعاهدة بأن محمد بن عبد الله النبي ﷺ هو الحاكم الأعلى لهؤلاء اليهود أنفسهم.

فقد جاء في البندين الخامس والسادس والثلاثين: (وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد).

هذا هو الموقف العام الذي كان عليه المسلمون واليهود في منطقة يثرب، وهذه هي أهم بنود معاهدة التحالف والتواطن بين المسلمين واليهود.

لم يكن اليهود مجبرين على المعاهدة:

٧- لقد قبل اليهود هذا الوضع وارتضوا تلك المعاهدة ووقعوا عليها والتزموا العمل بمقتضاها طائعين مختارين دون أن يكرههم أحد، فقد ارتضوا ذلك الوضع ووقّعوا على تلك المعاهدة، والدولة الإسلامية لّما تزل وليدة ليس لها أية قوة عسكرية شهيرة مرهوبة، حيث أن هذه المعاهدة قد عقدت بين الفريقين، قبل معركة بدر الكبرى التي تكوّنت بعدها القوة الإسلامية المرهوبة.

فقد كان اليهود عند عقد هذه المعاهدة (من الناحية العسكرية) في مركز ممتاز لا يمكن ـ معه ـ أن يقال: إنهم قد عقدوا هذه المعاهدة بدافع من القوة والقسر.

فنظرة فاحصة مجرَّدة عن الهوى، إلى بنود هذه المعاهدة، ووقفة عدل وإنصاف وتدبّر ومقارنة، عند أعمال الغدر والخيانة العظمى التي قام بها يهود بني قريظة ضد المسلمين في تلك الظروف الحربية العصيبة التي كانت فيها المدينة (بأعراضها وأرواحها وحرثها ونسلها وكلّ ما يرتبط فيها بالمسلمين) في مهب العاصفة، نعم نظرة فاحصة مجردة ووقفة

عادلة، منصفة عند هذه الأعمال الخطيرة التي أقدم عليها يهود بني قريظة ضد مواطنيهم وحلفائهم المسلمين، تجعل من الصعب على أي إنسان يحترم نفسه ولا يخضع لحكم العاطفة والهوى، أن ينكر شناعة الجريمة الكبرى وبشاعة الخيانة العظمى التي ارتكبها هؤلاء اليهود في حق وطنهم ومواطنيهم.

كما أنه (أيضاً) من الصعب على أي إنسان يحترم نفسه، ويتمتع بكامل السيطرة على تفكيره وعقله، أن يزعم أنَّ الحكم الذي صدر ونفذ بحق هؤلاء اليهود المجرمين، فيه شيء يتنافى مع قواعد العدل ومبادئ الإنسانية وأسس القانون الدولي العام.

لقد كان اليهود بحكم وجودهم في منطقة يثرب وبحكم استيطانهم مع العرب في هذه المنطقة منذ مئات السنين ثم بحكم المعاهدة المعقودة بينهم وبين المسلمين التي بموجبها ارتضوا أن يكونوا أمة مع المسلمين وارتضوا البقاء في ظل الدولة القائمة بعد الاعتراف بها وارتضائهم وإعلانهم بأنهم جزءٌ لا يتجزأ من مواطنيها، نعم بحكم ذلك كله أصبح يهود بني قريظة مواطنين يثربيين يلزمهم (في ظل الدولة القائمة) الدفاع عن هذه المنطقة، ويترتب عليهم من الأحكام والالتزامات ما يترتب على أي مواطن في هذا العصر.

لقد ارتكب يهود بني قريظة ثلاث جرائم، تكفي واحدة منها لإدانتهم (قانوناً) بالخيانة العظمى التي تبرر (في جميع قوانين الدنيا حديثاً وقديماً) الحكم عليهم بالموت:

١- اتصالهم بالعدو ونقلهم إليه أسراراً عسكرية تفيده وتعرّض سلامة جيش المدينة (وطن هؤلاء اليهود) لأشدِّ الأخطار.

٢- مدهم العدو الغازي بكل ما أمكنهم من عون مادي وتأييد أدبي ومعنوي ييسر له مهمة احتلال وطنهم المدينة والقضاء على مواطنيهم.

٣- (وهو الأخطر) رفعهم السلاح ضد جيش المدينة (وطنهم) ونكثهم العهد وإعلانهم الاستعداد لضرب مواطنيهم من الخلف، في ظروف هي أدق ما شهد النبي وجيشه في تاريخ حياته.

سؤال قانوني: والسؤال الذي نحب توجيهه إلى المعترضين والمستهجنين للحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة هو: ما هو الحكم اليوم الذي يجب إنزاله (في جميع القوانين الدولية) بمن خان وطنه وغدر بأمته وشرع (أثناء ظروف حربية قائمة) في الاتصال بالعدو الذي جاء غازياً لاحتلال وطنه وسحق مواطنيه وأخذ (بطريقة أو أخرى) يُيسر له سبل هذا الاحتلال؟.

أعتقد أن أحداً من هؤلاء المعترضين لن يستطيع القول إن قانوناً واحداً في أي بلد من بلاد الدنيا سيقول لمن أقدموا على مثل هذه الجرائم التي ذكرنا، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

بل أعتقد أن واحداً من هؤلاء المعترضين لن يستطيع إلاّ أن يقول: إن أقل عقوبة يمكن إنزالها بمن ارتكب مثل هذه الجرائم التي أشرنا إليها هي الموت.

لأن جميع قوانين الدنيا (بلا استثناء) تنص على أن الموت ومصادرة الممتلكات هي العقوبة العادلة التي يجب أن تنزل بمن ارتكب مثل تلك الجرائم التي ذكرنا.

بنو قريظة في نظر القانون الدولي: فإذا عرفنا هذا واتفقنا على أنه ليس من الظلم ولا من الوحشية في شيء إصدار حكم الإعدام وتنفيذه بحق المواطن الذي يتصل بالعدو في حالة الحرب القائمة وييسّر له (ولو ببعض المعلومات) مهمة احتلال وطنه أو الإضرار بدولته وأمته، فإن سؤالاً آخر أهم من السؤال الأول لابد للمعترضين على الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة من الإجابة عليه وهو:

ما هو (في عرف جميع القوانين) حكم الذي ينقل معلومات إلى العدو تنفعه وتيسر له الأضرار بالأمة وتعرض الوطن للخطر فحسب، بل ما حكم الذي يستغل حراجة ظروف وطنه ومواطنيه الذي هو جزء منهم ويقيم بينهم فيخون ويغدر، ويطعن وطنه وأُمته من الخلف؟.

فيشهر السلاح في وجه دولته ومواطنيه، ويعلن انضمامه إلى العدو الغازي في تلك الظروف الحربية الدقيقة المخيفة، قاصداً من وراء غدره وخيانته إخضاع وطنه للغزاة وسحق الفئات الأخرى من بني وطنه وإسقاط النظام القائم (بحد السلاح وبالتواطؤ مع العدو) الذي ارتضاه واعترف به وعاش في ظله آمناً مطمئناً لم يهضم له حق ولم يكن إلا محل الرعاية والوفاء؟.

أعتقد أنّ أحداً (وحتى من المستبشعين للحكم الصادر في حق بني قريظة) لن يكون جوابه (إذا كان يحترم عقله) على هذا السؤال إلا الاعتراف بأن جميع قوانين وأعراف الدنيا في الحاضر والماضي تنص (بالإجماع) على أن الموت والمصادرة هي عقوبة كل من يقدم على هذه الجرائم التي أشرنا إليها.

وحيث أن هذا أمر متفق عليه (بلا جدال) عند جميع الأمم ـ قديماً وحديثاً ـ فإنه من التحامل والتعسف والافتراء القول بأن الحكم الصادر في حق بني قريظة هو حكم غير عادل ومخالف لقواعد الإنسانية.

لأن هـؤلاء الـيهود قـد جمعوا في تصرفاتهم الخائنة الغادرة ضد المسلمين كل الجرائم التي عقوبة واحدة منها (فقط) الموت في جميع قوانين الدنيا في كل العصور والأزمنة.

فالـيهود لم يكـتفوا بالتجسـس عـلى مواطنـيهم لحسـاب العـدو في حالة الحرب، ولم يكـتفوا بمـد هذا العدو بالمساعدات المادية والأدبية التي تيسّر له مهمة احتلال المدينة وطن الجمـيع المشـترك (يـوم ذاك).. وهـي أعمال تصنف في باب الخيانة العظمى التي عقوبتها المـوت في جميع قوانين العالم.. نعم لم يكتفوا بهذه الأعمال فحسب، بل (بالإضافة إلى كل ذلـك) شـهروا السـلاح في وجه الجيش الإسلامي المشغول بمواجهة الغزاة، وأعلنوا قطع كـل صـلة تصلهم بحلفائهم ومواطنيهم المسلمين، وانضموا في تلك الساعات المزلزلة، إلى قـوات العـدو الغازيـة مستهدفين سحق المسلمين (بسرعة) سحقاً كاملاً مستغلين الموقف الدقـيق المـتأزم الـذي بلغـت فيه حالة المسلمين من الضيق والشدة حد الاختناق ضاربين بكل المثل والأعراف والقوانين والعهود والمواثيق عرض الحائط.

إن يهـود بني قريظة (وقد ظهرت نواياهم الخبيثة وتكشفوا على تلك الحالة من اللؤم والخسة والدناءة) لو تم النصر لهم وللأحزاب على المسلمين لما اكتفوا إلا باستئصال شأفة المسلمين ومصادرة كل أملاكهم وسبي جميع نسائهم وذراريهم.

وهـذا أمـر مبيّت منهم للمسلمين (بالتأكيد) فهم لم يقدموا على تلك الخيانة العظمى فيتواطـئوا مـع العـدو الغازي إلا وقد وضعوا نصب أعينهم (كهدف أول) إبادة المسلمين عن أخرهم.

وقـد تجلّى هذا المقصد الخبيث من اليهود عندما طلبوا من الأحزاب (كشرط أساسي لانضـمامهم إلـيهم) أن لا ينسـحبوا ويفكـوا الحصـار عن المدينة إلا بعد سحق المسلمين واستئصـال شـأفتهم، وأخـذوا بذلـك العهـد عـلى مندوب الأحزاب (حيي بن أخطب) فتعهد لهم بذلك باسم الأحزاب.

فكيف (إذن) بعد هذه الحقائق الدامغة كلها، وبعد هذه الأعمال التي قام بها اليهود، والـتي يكفـي الـبعض منها (فكيف بها مجتمعة) لإدانة هؤلاء اليهود بالخيانة العظمى التي عقوبـتها الموت والمصادرة في جميع قوانين الدنيا.. كيف بعد هذا كله يسوغ لعاقل منصف يحـترم نفسه أن ينفي صفة العدل والإنصاف عن الحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود الذيـن لم ينـتهوا إلا إلى المصـير الـذي حاولوا (خيانة وغدراً وبكل الوسائل الخسيسة) أن يصلوا بالمسلمين إليه؟؟.

ولماذا يكون من العدل والإنصاف تنفيذ حكم الإعدام (في هذا العصر) فيمن ارتكب جريمة واحدة فقط من الجرائم التي أشرنا إليها والتي تكفي واحدة منها بإنزال عقوبة الإعدام بمرتكبها كنقل أسرار حربية إلى العدو (فقط) كما يحدث في هذا الزمن، ولا يكون من العدل والإنصاف، بل يصبح من القسوة والوحشية والظلم، تنفيذ حكم الإعدام فيمن ارتكب كل هذه الجرائم الخطيرة مجتمعة كما فعل بنو قريظة؟؟.

المحكومين يهود والحاكمين مسلمون أم ماذا؟؟.

إننا لا زلنا نسمع كل يوم بأحكام الإعدام تصدر بحق أناس في أمريكا وأوروبا وكل العالم المسمى (بالعالم الحر) لا لأنهم انضموا إلى الأعداء وشهروا السلاح في وجه دولتهم ومواطنيهم، وإنما لأنهم نقلوا إلى العدو معلومات تفيده وتيسر له الإضرار بوطنهم ومواطنيهم.

فما حلَّ ليهود بني قريظة (إذن) من عقاب صارم إنما هو جزاء عادل، يستن إلى قاعدة دولية عامة في كل عصر وزمان، وهو بعيد كل البعد عن أي شطط أو انحراف عن مبادئ العدالة والإنصاف، لاسيما في ذلك العصر الذي لو وقع فيه المسلمون في أيدي يهود بني قريظة والأحزاب الذين تواطأ معهم يهود بني قريظة، لما صاروا (أي المسلمون) إلا إلى أقسى مما صار إليه هؤلاء اليهود على أيدي المسلمين.

اليهود خونة لا أسرى حرب: قد يقول قائل متبجح: لماذا لم يعامل النبي القائد ﷺ يهود بني قريظة كما يعامل القائد المنتصر رجال جيش العدو الذي حارب وكتب له الفشل في حربه فانهزم واستسلم، كما هو الحال في هذا العصر؟.

والجواب على هذا التساؤل هو (من ناحية القانون الدولي العام المعاصر):

١ - أن اليهود عندما فعلوا ما فعلوا بانضمامهم إلى قوات الأحزاب الغازية ضد المسلمين، لم يكونوا في حالة حرب مع المسلمين، بل لم يكونوا حتى في حالة تعاد أو تنافر.

وإنما كانوا أصدقاء متحالفين مع المسلمين، بل ومواطنين هم والمسلمون أُمة واحدة يشكلون وحدة وطنية لا تتجزأ، ملزمون هم والمسلمون (على حدّ سواء) بالدفاع المشترك عن الوطن الواحد المشترك وهو الوطن اليثربي، كما نصت على ذلك الاتفاقية المعقودة بينهم.

فيهود بني قريظة - من وجهة نظر القانون الدولي العام - لا يمكن وضعهم في مكان العدو الذي استسلم وهو يخوض حرباً مشروعة (قانوناً) كالحرب التي تنشب (لسببٍ من الأسباب) بين دولة ودولة.

وإنما مكان هؤلاء اليهود ـ من وجهة نظر القانون الدولي العام ـ هو مكان الخائن المتآمر المتواطئ مع العدوّ على أُمته ووطنه في حالة الحرب القائمة، وحكم الذي شأنه هكذا عند الظفر به، معروف لدى الخاص والعام، ومنصوص عليه في جميع القوانين الدولية، وهو الإعدام لا غير.

فيهود بني قريظة ليسوا أسرى حرب بالمعنى المتعارف عليه دولياً، حتى يقال لماذا لم يعاملهم محمد ﷺ مثلما عامل غيرهم ممن وقع في يده من أسرى الحرب الآخرين، وإنما هم خونة غادرون ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى ضد وطنهم وأُمتهم، فظفرت بهم يد العدالة، بعد أن أدانتهم بالتواطؤ مع العدو ضد الوطن الذي هو وطنهم والأمة التي هم جزءٌ منها والدولة التي هم في ظلها، ولهذا فالحكم الذي صدر بحق هؤلاء اليهود ونُفّذ فيهم، إذا نظرنا إليه (فقط) من زاوية العرف والقانون المتعارف عليه والمعمول به في القرن العشرين عند جميع الدول، وجدنا أنه يتفق كل الاتفاق مع هذا العرف وذلك القانون من جميع الوجوه.

ولعلَّ الذين يستبشعون الحكم الذي صدر ونفّذ بحق يهود بني قريظة، ينسون أو يتناسون أنه في القرن العشرين هذا (قرن التقدمية والتمدن كما يسمّونه) قد سمعنا ولا نزال نسمع بأحكام تصدر بالموت وتنفذ (في ظل القانون) بحق أناس، لا لأنهم ارتكبوا مثلما ارتكب يهود بني قريظة من جرائم الغدر والخيانة العظمى ضد مواطنيهم ووطنهم المدينة، وإنما لأنهم نقلوا (فقط) إلى عدو غير محارب بعض الأسرار التي تتعلق بسلامة الجيش والقوات المسلحة كذلك الأمريكي الذي نفذ فيه حكم الإعدام لأنه كان على اتصال بالروس ونقل إليهم أسراراً حربية تتعلق بصنع القنبلة الذرية وغيرها.

فكيف بالله (إذن) يكون من العدل المتمشي مع روح القرن العشرين إعدام مواطن أو مواطنين، لأنهم (فقط) نقلوا إلى العدو أسراراً تتعلق بسلامة الجيش.. أسراراً ليس من المؤكد أن نقلها سيعرض الجيش للإبادة وإنما يمكّن قيادة العدو المنتظر (روسيا) من الاستفادة عسكرياً، ويكون من الظلم والوحشية إعدام المواطن الذي لم يكتف بنقل أسرار جيش بلاده إلى العدو والمحارب المحيط ببلاده، بل شهر السلاح في وجه هذا الجيش وهو في أحلك ليالي محنته وشرع (بالاتفاق مع العدوّ الغازي) في تسديد طعنة إلى ذلك الجيش فألّف قوة مسلحة داخل الوطن المشترك، واتصل بالعدو اتصالاً مباشراً مكشوفاً وأعلن انضمامه إليه مستهدفاً إبادة الأمة التي هو جزء منها وتسهيل احتلال الوطن الذي هو شريك فيه، وتدمير الجيش الذي كان من المفروض أن يكون في صفوفه مدافعاً عن الوطن المشترك؟.

أعتقد أنه لا جواب عند هؤلاء المعترضين والمستبشعين لما نزل بيهود بني قريظة إلا الفلسفة الفارغة والمغالطة المكشوفة التي تمليها الرغبة المبيتة الملحة في الطعن والتشويه لكل ما هو إسلامي فحسب..

إن يهود بني قريظة (بالإضافة إلى صفة المواطن) كانت لهم صفة الجندي والضابط الذي يجب أن يكون قوة محاربة داخل جيش المدينة ضد أي اعتداءٍ تتعرض له (يثرب) الوطن المشترك للمسلمين واليهود - يوم ذاك - كما تنص على ذلك الاتفاقية المعقودة بين الفريقين.

فاليهود إذن (كما قلنا) ليسوا أسرى حرب بالمعنى المعروف حتى يقال: إن إعدامهم على تلك الصورة الجماعية وحشية وقسوة تتنافى وروح القرن العشرين، بل هم قوم مواطنون ارتكبوا (ضد أمتهم ووطنهم) الخيانة العظمى وعلى درجة لم يصل إليها أحد قبلهم ولا بعدهم في البشاعة والفظاعة والدناءة هذا من جهة.

لكل دولة قانونها الخاص: ومن جهة أخرى، فإن المتعارف عليه (دولياً في كل عصر وزمان) هو أن لكل أُمة ودولة قانونها الخاص الذي تسير على نهجه في سلمها وحربها.

ودولة الإسلام (يوم نزل العقاب ببني قريظة) كان لها قانونها الثابت الذي تنطبق نصوصه على كل مواطنيها: مسلمين وغير مسلمين، كما هو معروف بالتواتر لدى جميع المفكرين.

وقانون الإسلام (كما هو في الدستور الأعلى: القرآن يجعل مصير أسرى الحرب إلى الإمام) وهو الحاكم والقائد الأعلى للجيش ليتصرف فيهم وفق مصلحة الأمة والدولة والدين[1].

وعلى ضوء هذا الحق الذي أعطاه القانون الإسلامي (في حالة الحرب) لرئيس الدولة والقائد الأعلى للجيش، فإن يهود بني قريظة حتى لو كانوا أسرى حرب بالمعنى المتعارف عليه، وأمر القائد الأعلى النبي ﷺ بإعدامهم (فإنه من ناحية العرف السائد دولياً) لا مكان للاستنكار مطلقاً[2].

---

(١) انظر كتاب المغني لابن قدامة ج٨ ص ٣٧٢، وانظر كذلك المحل لابن حزم ج٧ ص ٢٩١ وما بعدها.

(٢) من الثابت المجمع عليه عند جميع المؤرخين ورواة الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتل من الأسرى (طيلة حياته) سوى ثلاثة، وهم: ١- عقبة بن أبي معيط. ٢- النضر بن الحرث العبدري. وكان هذان الرجلان من كبار مجرمي الحرب. ٣- أبو عزة - عمرو بن عبد الله الجمحي - أسره المسلمون في بدر وأطلق النبي سراحه على أن لا يحمل السلاح ضد المسلمين، ولكنه غدر وحمله مرة أخرى في غزوة أحد، فأسر مرة أخرى فأمر النبي بإعدامه.

لأن النبي القائد ﷺ إنما كان تصرّفه هذا في حدود القانون الذي التزم العمل به وقام بتطبيقه في كل مناسبة على نفسه وعلى جميع أفراد شعبه، ولا لوم (من وجهة النظر الدولية) ولا اعتراض على من طبق قانون بلاده فيها على غير أبناء بلاده فكيف بأبناء بلاده؟.

إعدام اليهود والاتفاقات الدولية: يضاف إلى هذا أنه (عند حادثة بني قريظة) لم تكن هناك معاهدات دولية تحرّم إعدام المحاربين المستسلمين كما هو اليوم، ارتبط بها النبي القائد ﷺ حتى يسوغ للمشوشين والطاعنين بالباطل أن يقولوا: إن محمداً ﷺ - بإعدام يهود بني قريظة - قد خالف العرف والقانون الدوليين.

بل إن النظام الشائع يوم ذاك عند جميع الأمم (مسلمين وغير مسلمين) أن أسرى الحرب يكون مصيرهم في يد الرئيس الأعلى للدولة وأحياناً إلى قائد الجبهة ليتصرف فيهم وفق المصلحة .

وعلى فرض أن يهود بني قريظة أسرى حرب بالمعنى المتعارف عليه، وليسوا خونة غادرين ارتكبوا الخيانة العظمى ضد وطنهم ومواطنيهم (مع أنهم كذلك بالتأكيد)، فإن مصلحة المسلمين وسلامة كيانهم استلزمت إبادة هؤلاء اليهود الذين بالإضافة إلى ارتكابهم الخيانة العظمى التي عقوبتها الموت كانوا قوة محاربة دلّت الأحداث المتلاحقة على أن بقاء هذه القوة داخل المدينة أو إعطاءها الحرية في الجلاء سيكون (بالتأكيد) مصدر خطر كبير يهدد سلامة دولة الإسلام الوليدة في كل لحظة، هذه الدولة التي لم ير اليهود من رجالها إلا البر والعدل والوفاء.

فقد دلّت التجارب العملية المتكررة مع هؤلاء اليهود أنهم على أتم استعداد لاغتنام أية فرصة وسلوك أي سبيل - مهما كانت خسته ووضاعته للإطاحة بحكومة المدينة وهدم الكيان الإسلامي من الأساس.

كما حدث من إخوانهم يهود بني النضير الذين أعفاهم النبي ﷺ من القتل بعد استسلامهم [1] ثم سمح لهم بالجلاء من المدينة إلى حيث شاءوا.

(١) انظر تفاصيل محاصرة يهود بني النضير في أول هذا الكتاب.

فعندما سنحت الفرصة لبني النضير لم يترددوا في القيام بتنظيم أخطر غزو تعرضت لـه المدينة في تاريخها حيث سعى زعماء هؤلاء اليهود واستخدموا أموالهم ونفوذهم لتحشيد أقوى القبائل العربية الوثنية المحاربة ضد المسلمين، وكونوا منها ذلك الجيش الضخم الذي بلغ أكثر من عشرة آلاف مقاتل وجاءوا في مقدمة هذا الجيش العظيم مستهدفين سحق المسلمين وهدم كيان الإسلام من الأساس.

بل كما حدث من يهود بني قريظة أنفسهم الذين حاربوا النبي ﷺ مع بني النضير ثم أعفاهم النبي (بصفة خاصة) من القتل والنفي والمصادرة (كما هو ثابت في صحيح البخاري).

فيهود بني قريظة هؤلاء - بالرغم من إحسان النبي ﷺ إليهم وإعفائهم بصفة خاصة من القتل والنفي والمصادرة بعد أن ثبت اشتراكهم في الحرب ضده مع بني النضير - فإنهم عندما سنحت لهم الفرصة، لم يتورعوا عن الإقدام على، ذلك العمل الفظيع، الغدر بالمسلمين ومحاولة القضاء عليهم بالاشتراك مع الأحزاب.

فعملية إبادة حوالي ثمانمائة مقاتل من يهود بني قريظة إنما هي عملية تتطلبها مصلحة الأمة، وهو عمل ضروري لسلامة الأمة والدولة، ويقره القانون السائد في الأرض التي يقطنها هؤلاء اليهود.

سكان هيروشيما وبنو قريظة: وإذا قارنًا عملية القصاص العادل الذي به أباد المسلمون حوالي ثمانمائة مقاتل من خونة يهود بني قريظة المحاربين، إذا قارنا هذه العملية التي يستهجنها بعض الباحثين عن المطاعن الموهومة في الإسلام، إذا قارنّا هذه العملية بما ارتكبه ولا يزال يرتكبه هؤلاء الذين يتشدقون بذكر وحشية عملية إبادة بني قريظة ويتبجحون بذكر مدنية القرن العشرين وعدالة القرن العشرين وحقوق الإنسان لوجدنا أن عملية واحدة من عمليات الإبادة التي أقدموا عليها تكفي لأن تجعل عملية إبادة بني قريظة شيئاً لا يكاد يذكر.

فكم سمعنا ولا نزال نسمع ويسمع ويرى العالم كيف يحصد هؤلاء المتمدنون مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال الذين لم يكونوا (يوماً من المحاربين) ويستأصلون شأفتهم باسم القانون وحماية الوطن وسلامة الدولة.

فأين (مثلاً) إبادة ثمانمائة مقاتل (خونة محاربين ناكثين غادرين) نزل بهم حكم الإعدام قصاصاً، من مائتين وخمسين ألف غير محاربين ولا خونة ولا ناكثين ولا غادرين مسحتهم من الوجود هم ومدينتهم نساءً وأطفالاً وشيوخاً، قنبلة ذرية واحدة ألقت بها

علـيهم (عـن قصد وسابق تخطيط) طائرة حربية تابعة لدولة يقال حتى هذه اللحظة: إنها أم الحـريات ومعقـل الدفـاع عـن الإنسـانية، وهي دولة الولايات المتحدة الأمريكية، التي ألقى سلاح طيرانها تلك القنبلة على مدينة (هيروشيما العزل الآمنة في اليابان) في أواخر الحـرب العالمـية الثانـية، كمـا ألقى مثلها على سكان مدينة (نجازاكي العزل كذلك) فأباد وشوّه (أيضاً) مئات الآلاف من الشيوخ والنساء والأطفال العزْل؟.

نعـم أيـن إعـدام ثمانمائـة يهـودي قُـتِلُوا بعـد محاكمة وإدانة صريحة بالخيانة العظمى والغـدر البشـع، مـن حصـد أرواح مـئات الآلاف مـن النساء والشيوخ والأطفال العزل اليابانيين دون أن يقترفوا ذنباً أو يرتكبوا خطيئة؟.

وبعـد، ألا يخجـل هـؤلاء المتعصـبون ضد الإسلام والباحثون له كل يوم عن مطعن يحطُّ من شأنه، ألا يخجل هؤلاء هم وفروخهم من المنتسبين إلى الإسلام والطاعنين (باسم الإنسـانية) في الحكـم الصـادر والـنافذ بحق هـؤلاء اليهود الخونة.. ألا يخجل هؤلاء هم وفروخهم من المحسوبين على الإسلام حينما يتشدقون بطعونهم في حكم الإعدام الصادر بحـق ثمانمائـة يهـودي ارتكـبوا الخـيانة العظمى، ويصفونه بأنه حكم وحشي لا يتفق مع روح القـرن العشـرين المـتمدنة، وهـم يعلمون أن أسيادهم (ومن يعتبرون في الذروة من مدنـية القـرن العشـرين) قـد حصـدوا أرواح مئات الآلاف من غير المحاربين من الشيوخ والنساء والأطفال عن قصد وتخطيط وسابق إصرار؟.

خــرافة مدنــية القــرن العشرين: وأيـة مدنية القرن العشرين هذه التي يتبجح هؤلاء المتعصـبون وفـروخهم بسـموها وعلـوّ روحهـا، ويجعلـون مـنها مقياسـاً للعـدل والرحمة والـتمدن، وبمعـيارها يصـدرون حكمهـم بالقسـوة والوحشـية والهمجية على قرار حكم الإعدام الذي صدر ونفذ في حق يهود بني قريظة.

أهـي هـذه المدنـية الـتي (كمـا رأيـنا ورأى العـالم) سمـح أقطابهـا وحماتها وسدنتها لأنفسهم أن يمسحوا من الوجود بسلاح وحشي رهيب مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال العزّل؟؟.

أهـي هـذه المدنـية التي سمح حماتها وسدنتها لطياريهم (في الحرب العالمية الثانية) أن يقتلوا تحت الأنقاض في ليلة واحدة أربعين ألف إنسان من المدنيين العزل [1].؟؟. الخ.

---

(١) عندما كنت في زيارة لألمانيا الغربية عام ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م، زرت مدينة هامبورج الشهيرة. وعندما كنا نتجول في أحد الأحياء الشهيرة من هذه المدينة قال لنا الدليل المرافق: إنه في ليلة واحدة قتل من أهل هذه المدينة اربعون ألف بفعل

أهـي هـذه مدنـية القـرن العشـرين الـتي بهـا يتشـدق البـبغاوات من المحسوبين على الإسـلام ويجعلونهـا مثـلهم الأعـلى ومـرجعهم الأول في الحديـث عن الإنسانية والمدنية وحقـوق الإنسان ويحتجون بأن إعدام ثمانمائة مقاتل من خونة يهود بني قريظة يتنافى مع روح مدنيتهم هذه؟؟.

أهـذه هـي مدنية القرن العشرين التي أباحت بقانون دم إنسان زنجي إذ حكمت عليه بـالإعدام ونفّـذ فـيه هـذا الحكـم لأنـه سـرق دولاريـن مـن إنسان أبيض [1]، وحكمت بالإعدام على زنجي آخر لأنه (فقط) راود امرأة بيضاء عن نفسها ولم يرتكب الخطيئة؟.

أهـذه هـي المدنية العالية التي يجعلها الحاقدون على الإسلام والمفتونون من المنتسبين إلـيه، مقياسـاً أعـلى للإنسـانية والرحمة والعدل توزن بميزان روحها أعمال أعظم وأعدل وأرحـم رجـل عـرفه الـتاريخ محمـد بن عبد الله ﷺ، ويصفون حكم الإعدام الذي أقره ونفـذه في يهـود بـني قريظة بالقسوة والهمجية بحجة أنه يتنافى مع روح هذه المدنية، مدنية القرن العشرين إياها[2]؟؟.

وبعـد ، لقـد تعمدنـا في مناقشة المعترضين على حكم الإعدام الجماعي الصادر بحق يهـود بـني قـريظة والـنافذ فـيهم.. تعمدنـا إغفـال النصـوص الشـرعية والاحتجاج بها، ومناقشتهم في حدود مفهوم الأعراف والقوانين العصرية التي يقدسونها، لأنهم لا يؤمنون بالإسلام الذي هو مصدر تلك الأحكام التي نفذت في اليهود.

فصار من غير المجدي محاولة إقناعهم بوجاهة ذلك الحكم وعدالته عن طريق الرجوع بهم إلى قواعد ونصوص الشريعة الإسلامية من آيات وأحاديث.

فهـذه النصـوص والقواعـد إنمـا يُـنَاقش في حدودها من يؤمن بمصدرها ويرى نفسه ملزماً بالرضوخ لها والاحتكام إليها.

=

الغارات الجوية التي شنتها طائرات الحلفاء دون تمييز على هامبورج، وكم مثل هذه الأعمال الوحشية التي ارتكبها الذين يتشدقون بروح مدنية القرن العشرين المزعومة.

(١) قبل ما يقرب من خمس سنوات حكمت محكمة أمريكية في الولايات المتحدة بالإعدام على الزنجي (جيمس ولسون) وجريمته (كما أعلنت المحكمة) أنه سرق دولارين إلا ربعاً من امرأة بيضاء.. انظر كتابنا (صراع مع الباطل ص ١١٧).

(٢) وأين هؤلاء الذين يريدون الطعن في الحكم الصادر والنافذ في ثمانمائة مقاتل من بني قريظة بحجة أنه يتسم بطابع الوحشية والانتقام، أين هؤلاء المتمدنون من فعلة ريتشارد (قلب الأسد) قائد الحملة الصليبية في فلسطين الذي أعدم ثلاثة آلاف أسير من المسلمين في فلسطين بعد أن أعطاهم الأمان وقطع على نفسه عهداً بحقن دمائهم؟ كما أثبت ذلك جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب)؟.

وأعداء الإسلام هؤلاء وفروخهم من الذين يسيرون على أصول قوانينهم في تشريعاتهم الوضعية إنما يهدفون بمحاولاتهم الطعن في الحكم الصادر بحق اليهود، انتقاص أصول هذه الشريعة الإسلامية الغراء، ولهذا لزم إبطال مزاعمهم ونقض مطاعنهم في حدود قانونهم وبمنطقهم ذاته.

حكم بني قريظة في شريعتهم: وهناك أمر آخر مهمّ لابد من ذكره بهذه المناسبة، وهو أن الحكم الذي أصدره سعد بن معاذ على يهود بني قريظة وأقره النبي ﷺ وقام بتنفيذه، قد جاء (تماماً) وفق الشريعة الموسوية عند اليهود أنفسهم كما في التوراة عندهم.

فقد نصَّ الإصحاح العشرون في سفر التثنية من كتابهم، المقدس على أن لهم قتل كل الرجال من أعدائهم إذا ظفروا بهم وامتلاك نسائهم وأطفالهم وكل ما يملكون.

وهذا هو نص الإصحاح العشرين من سفر التثنية: «وإن لم تسالمك أية قرية بل حاربتك فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك»[1].

وهذا النص الصريح في كتاب اليهود المقدس يجعل هؤلاء اليهود (بالتأكيد) يرون أن من حقهم تنفيذ حكم الإعدام فيمن وقع في أيديهم من أعدائهم الرجال وسبي نسائهم وذراريهم ومصادرة كل ممتلكاتهم.

وهذا يعني أن اليهود لو نجحوا في مؤامرتهم وتم لهم ولأحلافهم التغلب على المسلمين لما ترددوا لحظة في إبادة المحاربين منهم وسبي نسائهم وذراريهم ومصادرة أموالهم، تمشياً مع حكم كتابهم المقدس الذي جاء صريحاً في سفر التثنية.

وهكذا جاءت العقوبة التي أنزلها المسلمون باليهود هي نفس العقوبة التي كان هؤلاء اليهود ينوون إنزالها بالمسلمين لو وقعوا في أيديهم.

فالحكم النازل باليهود إنما جاء (تماما) وفقاً لشريعتهم، فهو إذن جزاءً وفاقاً.

ولهذا لم يبق (لا من الناحية الدينية ولا الوجدانية ولا القانونية) أي مجال للانتقاد في الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة.

---

(١) سفر التثنية: ٢٠، ١٣ - ١٤.

وبالإضافة إلى كل ما أوردنا من حجج لا تقبل الجدل فإنا نقول لهؤلاء الطاعنين والمستبشعين لهذا الحكم: إنه مهما تقولون في صرامة هذا الحكم وقسوته، فإن أي واحد منكم لو كان مسئولاً عسكرياً عن سلامة أمته (وفي أي عصر من العصور) فتعرض هو وجيشه ووطنه وأمته لمثل ما تعرض له محمد ﷺ من خطر خيانة يهود بني قريظة وغدرهم بانقلابهم على المسلمين في ذلك الظرف، ذلك الغدر والانقلاب الذي جعل جيش المدينة الذي كان اليهود (جزءًا منه بموجب المعاهدة) يقع في أخطر مأزق يمرّ به في تاريخ حياته العسكرية.

حيث وصل هذا الجيش (بسبب خيانة بني قريظة) إلى درجة من الخطر كانت قاب قوسين أو أدنى من الإبادة لولا عناية الله التي أنقذت المسلمين بمعجزة.

نعم نقول لهؤلاء المعترضين: لو أن واحداً منهم كان قائداً عسكرياً وتعرض هو وجيشه وأمته ووطنه لمثل ما تعرض له النبي القائد من يهود بني قريظة، لما وسعه إلا أن ينزل بهم (على الأقل) ذلك الحكم الذي أنزله الرسول بأولئك اليهود الخونة الغادرين.

دفاع مجيد

لقد رأيت بحثاً أعجبني في الدفاع عن سعد بن معاذ القاضي المحكَّم في بني قريظة لكاتب إسلامي فاضل هو الأستاذ محمد البيومي فنّد فيه مزاعم المستشرقين وأنحى باللوم على المنتسبين إلى الإسلام من القانونيين الذين تأثروا بوساوس المستشرقين.

فقد نشرت مجلة الحج الغراء الصادرة بمكة المكرمة في عددها الثاني عشر من سنتها الثامنة عشرة مقالاً لهذا الكاتب الكريم تحت عنوان: (إنصاف سعد بن معاذ).

ولأهمية هذا المقال فإنا سنقتطف منه للقراء أهم النقاط المتعلقة ببحثنا هذا.

قال الأستاذ البيومي: «ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين في تجريد سيد الأوس سعد بن معاذ، حين أصدر حكمه العادل باستئصال بني قريظة، إذ خانوا الله ورسوله وتآمروا بالمسلمين، فحالفوا قريشاً على حرب محمد ﷺ ناقضين عهودهم الوثيقة، ومعلنين دفائن أحقادهم الثائرة.

ويوم صدق الله وعده فرد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وحان أوان القصاص فارتضوا سعد بن معاذ حَكماً، فجزاهم بما اقترفوا من العقوق والغدر أعدل الجزاء.

ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين في ذلك عن غرض جائر وهوى مريض، إنما الغريب حقاً أن يستمع إليهم بعض عقلائنا المسلمين من كبار رجال القانون، فيروا في حكم سعد مغالات كبيرة.

ولا أدري كيف يقولون ذلك وقد درسوا القوانين المعاصرة دراسة نافذة، وكان في مقدرتهم أن يطبقوها على قضية بني قريظة ليروا أن قوانين القرن العشرين لا تختلف في شيء عما أصدره سعد بن معاذ.

ثم يقول الأستاذ البيومي: ولكن أقوال ذوي الغرض من المستشرقين قد خدعت رجالنا عن عقولهم، فنسوا ما يحفظون وتجاهلوا ما يعلمون.

ثم يكرّ الأستاذ البيومي على تلك المطاعن، فيثبت بطلانها عن طريق المقارنة بين القوانين العصرية الوضعية وبين حكم سعد على اليهود قائلاً: وسنضطر هنا إلى مخاطبتهم بلغتهم القانونية، ثم يقول:

لقد كان بين الرسول ﷺ وبين يهود بني قريظة معاهدة تحفظ حقوق الفريقين وتقضي على كل فريق أن ينصر الآخر إذا واجه خطراً في حرب.

ولكنهم (أي اليهود) تآمروا فانضموا إلى أعدائه وأوقعوه بين شقي الرحى في المدينة مصطلياً بنار أعدائه المشركين من جهة واعتداء حلفائه اليهود في ساعة العسرة من جهة ثانية.

فاقترفوا بذلك الغدر الشنيع ثلاث جرائم:

أولاً: رفع السلاح ضد سلطان المدينة مع الأجنبي المعتدي.

ثانياً: دس الدسائس لدى العدو ضد المسلمين.

ثالثاً: تسهيل دخول العدو للبلاد.

ثم يعقب الأستاذ البيومي على إدانة اليهود بهذه الجرائم الثلاث فيقول:

وقانون العقوبات المصري - وهو أقرب قانون يعرفه من يؤاخذون سعداً من رجالنا القانونيين - يجعل الإعدام عقوبة كل جريمة من الجرائم الثلاث (التي ارتكبها اليهود) [1].

وينص على ذلك في المواد ٧٧، ٧٨، ٧٩ وهذه هي نصوصه على الترتيب:

(المادة ٧٧) يعاقب بالإعدام كل مصري رفع السلاح على مصر أو التحق على وجه بعمل في القوات المسلحة لدولة تحارب مصر.

---

(١) القانون المعمول به في مصر حتى الآن هو مزيج من القوانين الأجنبية الفرنسية والسويسرية والإيطالية والإنكليزية، ولم يكن هذا القانون يعتمد على الشريعة الإسلامية في أية ناحية من نواحيه كقاعدة يرجع إليها.. انظر كتاب (حقيقة القومية العربية) للأستاذ المصري المشهور محمد الغزالي.

(المادة ٧٨) كل من ألقى الدسائس إلى دولة أجنبية أو إلى أحد من مأموريها أو إلى أي شخص يعمل لمصلحتها أو تخابر معها أو معه بقصد استعدائه على مصر أو تمكينه من العدوان عليها يعاقب بالإعدام، سواء تحقق الغرض أم لم يتحقق.

(المادة ٧٩) يعاقب بالإعدام كل من سهّل دخول العدو إلى البلاد أو سلمه مواقع أو سفناً أو طائرات مما يستعمل في الدفاع عن البلاد؛ أو نقل إليه أخباراً أو أرشده أو حرّض الجنود على الانضمام إليه أو أثار الفتن والشائعات أو نحو ذلك [1].

ثم يؤكد عدالة العقوبة النازلة بيهود بني قريظة - من وجهة نظر مدنية القرن العشرين - فيقول: فقانون القرن العشرين صريح في إدانة بني قريظة حيث ارتكبوا جميع ما تستحق جريمة واحدة منه الإعدام.

وسنعرض لخيانتهم بالتفصيل حين نوجز سيرة سعد ليعلم القارئ المنصف، كم تجنى عليه أعداء الإسلام إذ وصفوه بالوحشية والقسوة والغدر.

وكم تنكب رجالنا من القوانيين سبيل الإنصاف حين زعموا أن حكمه القضائي لا يوائم أحكام القرن العشرين وقد فاتهم أن يحيطوا بالقضية من أطرافها ليروا شططهم البعيد.

أمّا الرجل (يعني سعد بن معاذ) فبطل صادق ومسلم صريح.

إن هؤلاء الغادرين قد آسفوه بخيانتهم الأثيمة، فما راعوا إلا ولا ذمة، وكان سعد مع قومه من الأوس قد شفع لديهم - بادئ ذي بدءٍ - ليرجعوا عن غدرهم الفاضح، فما راقبوا الله في حلف أو ميثاق حتى انكشفت الغمة فقبعوا في حصونهم يترقبون ما تتمخض عنه الحوادث.

وطبيعي أن يعجّل المسلمون بعقاب هؤلاء الخونة عقاباً رادعاً، فاتجهوا إليهم على الفور وحاصروهم في ديارهم خمساً وعشرين ليلة أججت القلق والحسرة في ضلوعهم فعرضوا شروطاً للجلاء كما فعل بنو قينقاع وأملوا أن يتقبلها الرسول بقبول حسن.

وقد اتجهت أنظارهم إلى حلفائهم من الأوس ليكونوا شفعاءهم لدى محمد، ورسول الله ﷺ يدرك نفسيات قومه، فيضع الشيء في موضعه، إذ يختار سعد بن معاذ «حليف بني قريظة» ليكون فيصلاً قاطعاً ينزل الفريقان على رأيه.

---

(١) وبالرجوع إلى جميع القوانين الوضعية العصرية يتضح أنها جميعاً تتفق على هذه العقوبات في محاكماتها للمواطنين الخونة.

وسعد قد قدّر الموقف تقدير من شاهد كروبه ومآزقه وعرف النذر المستطيرة التي تراءت في الأفق فأوشكت أن تطيح بالعصبة المؤمنة، لولا عناية الله التي أثارت الريح.

ولقد همّ أصحابه يزيّنون له الإحسان في مواليه ويجنحون به إلى السلام والفداء، فماذا فعل عند ذاك؟.

لقد حكم (سعد) بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء وأمر الرسول ﷺ بتنفيذ الحكم.

ولاقى اليهود أسوأ مصير على أفظع خيانة توجه إلى معاهد مسالم [١] يأمن حلفاؤه، فيأتيه الروع من مأمنه الحصين.

التقول على الإسلام: ثم يقول الأستاذ رجب البيومي: وقد كانت صرامة هذه العقوبة مدعاة للتقول على الإسلام دون عدالة وإنصاف، فالمسلمون لم يتجنوا على بني قريظة باستئصالهم المبيد، لأنهم متهمون بالخيانة العظمى، وقد ثبتت إدانتهم ثبوتاً قامت دلائله وفدحت نتائجه، وهذه الخيانة الخطيرة ليس لها في جميع الشرائع غير الإعدام السريع.

مقارنة بين قبائل اليهود الثلاث: ثم ينفي الكاتب استحقاق بني قريظة لأية شفقة فيقول: ولم يكن اليهود أسرى حرب فيميل بهم إلى الشفقة، ولكنهم أشرّ من الأعداء، إذ يبيتون لأناس يأمنونهم ويخصونهم بحقوق الجار (والمواطن) وواجبات الذمام، وموقفهم هنا يختلف اختلافاً واضحاً عن موقف بني قينقاع وبني النضير.

فالأولون قد أبدوا البغضاء من أفواههم وأشاعوا الريب والشكوك ورأوا في الدعاية المغرضة سلاحاً لا يفلّ.

والآخرون (أي بنو النضير) قد ائتمروا على قتل الرسول ﷺ تحالفوا مع بعض المنافقين على المناجزة دون أن تتيح لهم الفرصة طريقاً يصلون منه إلى التنفيذ، وهؤلاء وأولئك أهون خطباً من الذين سلّوا السيوف ووقفوا في صفوف العدو، وأوقعوا الهلع في قلوب يحيط بها الروع من كل ناحية، فتعادل الكفتين بينهما طيش لا يقره إنصاف.

---

(١) بل إلى مواطن آمن كان ينتظر النصر من هؤلاء اليهود الذين كانوا (يوم ذاك) جزءًا من الوطن الذي خانوه ومن الأمة التي غدروا بها، لأن هؤلاء اليهود كانوا (أمة مع المسلمين) بموجب المعاهدة المعقودة بين الفريقين، كما فصلنا ذلك فيما مضى من هذا الكتاب.

وقد جلا بنو قينقاع وبنو النضير عن المدينة، فكانوا مثار القلق والفتنة ومبعث الضيق للمسلمين، فهم الذين حزّبوا الأحزاب وجمعوا القبائل مع المشركين ليوم الخندق، فأعطوا بمؤامرتهم المزعجة محمداً ﷺ درساً حاسماً يحتّم استئصال شأفتهم وتتبع أفاعيهم في كل مكمن، ليطفأ لهباً يستعر إذا هبّت عليه الريح.

ويختتم الأستاذ محمد رجب البيومي دفاعه عن الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة فيقول: وقد تحقق الدرس مبدئياً في يهود بني قريظة وظهرت نتائجه الحاسمة في خيبر، حيث تعرض اليهود على يد محمد ﷺ لزلزال رهيب. أ هـ.

دفاع الدكتور محمد علي: ومن الذين تعرضوا لشبه الوحشية والقسوة التي أراد خصوم الإسلام وفروخهم إلصاقها بحكم الإعدام الصادر بحق بني قريظة مولانا محمد علي، فقد تناول موضوع نهاية بني قريظة في كتابه الشهير (حياة محمد ورسالته) بشيء من التحليل المنطقي، فردَّ (في اختصار) كل الاعتراضات التي جاءت بشأن ذلك الحكم الصارم.

فقد جاء في كتابه المذكور (أثناء حديثه عن مقتلة بني قريظة): ويتعين علينا أن لا ننسى هنا أن الإسلام كان يمر - آن ذاك - بمرحلة حرجة جداً من مراحل حياته، كانت هي فترة معركة أُحُد، عندما تألب الأعداء من كل صوب وشهروا السلاح لتسديد ضربة قاضية إلى الإسلام.

كان الهجوم يشن من الخارج، خطراً من غير ريب، ولكن الانفجار الداخلي المرتقب في كل لحظة كان أشد من ذلك خطراً ويقول المثل: الإنذار المسبق يساوي التسلح المسبق، وكان هذا ممكناً في حال هجوم خارجي، لما يتيحه للمسلمين من وقت يستعدون خلاله لمواجهة الوضع.

أما الانفجار غير المرتقب في المدينة نفسها فخليق به أن يكون طعنة قاتلة توجه إلى فؤاد الإسلام نفسه.

وكان بنو النضير على صلات ودية مع أعداء الإسلام، ومثل بنو النضير دوراً هاماً في معركة الأحزاب، فبالإضافة إلى تحريضهم بيوتات قريش، راحوا يطوفون في الصحراء ملمّين بمضارب البدو، يثيرونهم على الإسلام.

ثم يخلص مولانا (محمد علي) إلى الحديث عن جريمة الخيانة العظمى التي ارتكبها بنو قريظة فيقول: وتأثر بنو قريظة أيضاً وكان موقفهم من الإسلام حتى ذلك الحين - أي حتى تخريب الأحزاب - ودياً [١].. تأثروا بهذه الحملة الدعاوية.

لقد رفض بنو قريظة أول الأمر أن يشاركوا ضد الإسلام ولكنهم تلقوا تأكيدات تفيد أن المسلمين كانوا في وضع يائس، لن يتمكنوا معه من البقاء، إنهم لن يستطيعوا بأية حال الصمود في وجه الأعداد الضخمة التي نجمت مثل نبات الفطر [٢] في كل ناحية للقضاء على الإسلام [٣].

ولقد قيل لبني قريظة أن قد آن لهم أن يختاروا بين الانحياز إلى المسلمين وبين التعاون مع الأحزاب، وهكذا أقنع بنو قريظة بالانضمام إلى صف سائر القبائل المعادية للإسلام، فنقضوا عهدهم الذي أعطوه المسلمين وتحالفوا مع الأحزاب، واعدين إيّاهم بأن يسدوا إليهم العون في النزاع المقبل - معركة الأحزاب.

والحق أن الميثاق الجديد برغم أنه عقد سراً، لم يبق حرفاً ميتاً، فقد شارك بنو قريظة عملياً في القتال. وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [٤].

والتاريخ أيضاً يشهد على اشتراكهم في المعركة، بل لقد بيتوا خطة للهجوم على نساء المسلمين أيضاً، وكان في خيانة بني قريظة - وقد برز في الجانب الآخر في الخندق أربعة وعشرون ألف مقاتل [٥] متحرقين لسحق الإسلام، وانهمك المنافقون في إنزال الأذى بالمسلمين في الداخل - مما زاد في متاعب الرسول ﷺ وأصحابه إلى حدّ بعيد..

---

(١) الثابت (كما في صحيح البخاري) أن يهود بني قريظة قد حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم مع إخوانهم بني النضير عندما حاولوا اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن الرسول (لظروف خاصة) سمح لبني قريظة بالبقاء وأجلى إخوانهم بني النضير.

(٢) الفطر (بضم أوله وسكون ثانيه) هو النبات الأولى الكثير الذي أول ما تنفطر عنه الأرض، والفطر أيضاً جنس من الكم أبيض عظام.

(٣) وهذا الذي يجعل جريمة بني قريظة تبلغ نهايتها في الشناعة والخسة والوضاعة، لأنهم بدلاً من أن يخففوا من بلواء حلفائهم ومواطنيهم الذين وقعوا في ذلك المأزق المميت سارعوا إلى الإجهاز عليهم فانضموا إلى أعدائهم، وهذا أفظع ما شهدته سجلات النكث والغدر والخيانة، ومع هذا يأتي من يزعم أن الحكم النافذ في بني قريظة قد اتسم بطابع الوحشية المنافية لروح مدينة القرن العشرين.

(٤) الأحزاب: ٢٦.

(٥) لم نر في شيء من مصادر التاريخ ان جيوش الأحزاب قد بلغت هذا العدد.

وهكـذا رُئـي، عـند انقضـاء معـركة الأحـزاب، أن من المناسب أن تنزل ببني قريظة العقوبة التي يستحقون، والتي قد تحول دون تكرار مثل هذه الخيانة الغادرة في المستقبل.

ومـن ثـم ألقى المسلمون الحصار على معاقلهم، فاستسلموا بعد مقاومة قصيرة، وقد اخـتار بـنو قريظة بأنفسهم سعد بن معاذ (وكان فيما مضى حليفهم) حكماً يعيِّن العقوبة الـتي يستحقون، ولو أنهم فوّضوا أمرهم إلى الرسول (إذن لعاملهم) في أغلب الظن، كما عامل أبناء عمومتهم بني قينقاع وبني النضير، لقد كان خليقاً به أن يحكم عليهم ـ في أسوأ الأحوال ـ بالنفي من المدينة[1].

ولكـن سـعداً، الحَكَـم الـذي اصـطفوه هـم، كـان ينظر إلى غدرهم الخطر، في لحظة الحـرج، باشمـئزاز بـالغ، لقد ارتأى أنَّ عظم الأذى الذي أنزلوه بالمسلمين يقتضي عقوبة نموذجـية بدونهـا لـن تحظى المواثيق، في المستقبل، إلاَّ باحترام ضئيل، وقد يعتبرها أي من الفريقين المعنيين عندئذ قصاصات ورق لا قيمة لها..

ومـن هنا انتهى إلى هذا القرار، أنَّ جزاءهم العادل يجب أن لا يكون ـ بأية حال ـ أخف من تلك التي قضى بها كتابهم المقدس (العهد القديم) في حق العدوّ المهزوم، وهذا ما يقضي به (العهد القديم) في هذا الصدد.

وبعـد أن يشير مولانا محمد علي إلى النص الثابت في الإصحاح العشرين من كتابهم بهـذا الصـدد، يقول: «وهكذا حكم سعد، وفقاً للشريعة الموسوية، بقتل ذكور بني قريظة، وبسبي نسائهم وأطفالهم، وبمصادرة ممتلكاتهم».

ومهمـا بـدت هـذه العقوبـة قاسـية، فقـد كانت على وجه الضبط، العقوبة التي كان اليهود ينزلونها ـ تبعاً لتشريع كتابهم المقدس بالمغلوبين من أعدائهم.

وإلى هـذا فإن جريمة الغدر الشائن التي اتهم بها بنو قريظة خليق بها ـ في مثل تلك الظـروف ـ أن لا تجازى بأيما عقوبة أخف، حتى في عصر المدنية هذا.. كان القاضي من اختـيارهم، وكـان الحكـم منطبقاً أشد الانطباق مع شريعتهم المقدسة نفسها، وفوق ذلك أدينوا بخيانة من نوع خطير».

---

(١) هذا من المؤلف ظن أثبت عدم صوابه قول النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بعد صدور الحكم: حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات.

وهنا يخاطب المؤلف الفاضل، الطاعنين في حكم الإعدام الصادر بحق بني قريظة فيقول لهم: فهل من المنطق في شيء أن ينتقد الرسول لهذا السبب.. إن كل اعتراض على قسوة هذه العقوبة، هو اعتراض على الشريعة الموسوية.. إنه في الواقع انتقاد لا شعوري لتلك الشريعة، وتسليم بأن شريعة أكثر إنسانية يجب أن تحلّ محلها وأيما مقارنة بالشريعة الإسلامية في هذا الصدد، خليق بها أن تكشف - في وضوح بالغ - أي قانون رفيق عطوف رحيم قدّمه الإسلام إلى الناس. أ هـ[1].

حديث الشيخ الغزالي: ويقول الأستاذ محمد الغزالي في كتابه (فقه السيرة) معلقاً على مقتلة بني قريظة: أجل هو القتل، وإنما تقع تبعات الحكم به على من تعرَّض له بسوءِ صنيعه وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتحقق، ولو قد تحققت لكان ألوف المسلمين هلكى تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية، يحرضهم ويؤازرهم أولئك اليهود.

وربما كانت مغامرات نفر من طلاَّب الزعامة سبباً في هذه الكارثة التي حلّت ببني قريظة، ولو أن حيي بن أخطب وأضرابه سكنوا في جوار الإسلام وعاشوا على ما أوتوا من مغانم، ما تعرضوا ولا تعرّض قومهم لهذا القصاص الخطير.

ثم يتحدث الأستاذ الغزالي عن ظاهرة لا تزال في كل عصر وزمان، وهي أن الشعوب (فقط) هي التي تدفع الثمن باهظاً لمغامرات قادتها المتهوسين المصابين بمرض حب السيطرة والتحكم فيقول: لكن الشعوب تدفع من دمها ثمناً فادحاً لأخطاء قادتها، وفي عصرنا هذا دفع الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثماناً باهظة لأثرة الساسة المخدوعين[2].

---

(١) حياة محمد ورسالته ص ١٧٥.

(٢) وفي هذه الأيام بالذات تراق الدماء العربية المسلمة بغزارة رخيصة لا لتحرير وطن من غاز أو محتل دخيل وإنما لإشباع شهوات فئة من القادة مصابين بوباء السيطرة والتسلط على غيرهم من إخوانهم فصار لذلك العربي يقتل أخاه العربي فأزهقت على مذابح أطماع هؤلاء الزعماء المتهوسين أرواح عشرات الآلاف من العرب وذهبت دماؤهم هدراً، وهكذا فالثمن (دائماً) لطيش الزعماء وغرورهم، إنما تدفعه الشعوب من دم أبنائها.

ولذلك ينعى القرآن على أُولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التي يحملها غيرهم قبلهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ [١] ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [٢]. أ هـ [٣].

رأى إنكليزي منصف: وإذا كانت جمهرة كتاب الغرب قد جانبت الصواب وحادت عن جادة الإنصاف عندما وصفت الحكم الصادر والنافذ بحق بني قريظة بالوحشية والقسوة، فإن هؤلاء الكتّاب لم يخلوا من منصفين قالوا كلمة الحق وأبوا الانحراف في تيار الهوى والعاطفة فنفوا (بتجرد ونزاهة) أن يكون في ذلك الحكم أي شيء من الوحشية والهمجية، ومن هؤلاء المؤلف الإنكليزي الكبير الدكتور (مونتجمري وات)، فقد جاء في كتابه (محمد نبي ورجل دولة) ص ١٧١ وما بعدها ـ ما يلي:

لقد انتقد بعض الأوروبيين الحكم الصادر بحق بني قريظة ووصفوه بالهمجية، وقد اندهش بعض معاصري محمد لعدم اكتراثه بالعواقب التي قد تنتج عن قتل بني قريظة.. إلاّ أن عمل هذه القبيلة أثناء محاصرة المدينة كان يعتبر ناقضاً للمعاهدة المبرمة مع محمد ﷺ.

ثم ينفي الدكتور (مونتجمري) ما ألصقه بعض المستشرقين بالنبي ﷺ من اتهامات باطلة، فيقول: ولا داعي للافتراض بأن محمداً قد ضغط على سعد بن معاذ لينزل هذه العقوبة ببني قريظة فإن رجلاً بعيد النظر كسعد لابد أنه أدرك أن طغيان الولاء القبلي على الولاء الإسلامي سيجدد المعارك الدموية التي جاءوا (أي الأوس والخزرج) بمحمد ﷺ لينقذهم منها، ويقال: إنه عندما مثل (سعد) أمام محمد ﷺ لينفذ حكمه أشار سعد إلى أن قرب نهايته تحتّم عليه أولاً القيام بواجبه تجاه ربه والجماعة الإسلامية حتى على حساب الأحلاف القديمة.

---

(١) ما اشد ما تنطبق هذه الآية على ذلك الذي دفع بخيرة جنده وصفوة ضباطه ليموتوا بالآلاف (في حرب خاسرة ظالمة كما يموت المعتدي الأثيم الباغي وما أسوأ المصير الذي يؤول إليه المسلم، إذ يقتله مسلم وهو يصد عدوانه عن عرضه وارضه.

(٢) إبراهيم: ٢٨ - ٢٩.

(٣) فقه السيرة ص ٢٤٠.

ثم يشير الكاتب الإنكليزي إلى حكمة الرسول في اختيار حليف اليهود (سعد بن معاذ) ليحكم فيهم، ويستدل من ذلك على بعد النبي ﷺ عن الديكتاتورية التي اتهمه بها خصومه فيقول:

إن تعيين سعد بن معاذ من قبل محمد ﷺ لم يكن يقصد به التستر وراء سلطة ديكتاتورية، لم يكن محمد ﷺ يملكها في ذلك الوقت، بل كان محاولة لمعالجة مشكلة عويصة بأحصف وأحذق طريقة ممكنة.

ثم يؤكد الدكتور مونتجمري بأن الحكم النافذ في حق بني قريظة لم ينفذ لأنهم خونة ارتكبوا الخيانة العظمى فيقول:

لم تبق قبيلة يهودية ذات أهمية بالمدينة بعد القضاء على بني قريظة، بل كانت هناك بعض المجموعات الصغيرة.. وتشير بعض الروايات إلى أن أحد أثرياء اليهود قد اشترى بعض نساء وأطفال بني قريظة، ولا شك أن اليهود الذين تخلّفوا في المدينة كانوا على جانب كبير من الحذر فلم يمتنعوا عن بعض النشاطات المعادية فحسب، بل حتى عن بعض النشاطات الاجتماعية، غير أن عواطفهم كانت بلا شك مع إخوانهم اليهود في غزوة خيبر.

إن استمرار وجود بعض اليهود في المدينة يمكن أن يعتبر دليلاً ضد وجهة نظر بعض العلماء الأوروبيين التي تقول: إن محمداً ﷺ انتهج في السنة الثانية من الهجرة سياسة إبادة جميع يهود المدينة لمجرد كونهم يهود وأن هذه السياسة أخذت تزداد عنفاً، ثم يقول الدكتور (مونتجمري): إلاَّ أن محمداً ﷺ لم يكن من طبيعته سلوك مثل هذه السياسة، فقد كان يتمتع بنظرة معتدلة لأسس المشاكل المعاصرة ولسياسة طويلة الأمد يكون على ضوئها سياسته بموجب العوامل.. أمّا بالنسبة لهجومه على القبيلتين اليهوديتين فقد كانت مجرد فرصة مواتية، غير أنه كانت هناك بعض الأسباب العميقة.. فقد كان اليهود من جانبهم يحاولون زعزعة المجتمع الإسلامي بانتقاداتهم الموجهة ضد الوحي القرآني، كما أنهم كانوا يمنحون تأييدهم السياسي لأعداء محمد ومناوئيه من المنافقين. وقد سمح لهم محمد ﷺ (مع هذا) بالعيش في المدينة دون أن يمسهم منه أي أذى.. أ هـ [1] ترجمة الأستاذ أحمد سالم بالعمش.

---

(١) ذكرنا فيما مضى من هذا الكتاب (الفصل الثاني) كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يقابل استفزازات اليهود وتحرشاتهم ومحاولاتهم هدم المجتمع الإسلامي بالحلم والصبر والتسامح فلم يتخذ ضدهم أي إجراء ولم يمسهم بأي أذى حتى لجأوا إلى القوة وسفك الدم وتجريد الجيوش وإثارة الحروب بغياً وعدواناً.

الإسلام والــرق

بقيت مسألة عميقة الجذور في هذا الباب لابد من التعرض لها بالبحث والمناقشة، وهي مسألة استرقاق نساء وأطفال بني قريظة وتقسيمهم من جملة الغنائم بين المحاربين المسلمين.

فأعداء الإسلام بصفة عامة والمعترضون على الحكم الصادر والنافذ بحق بني قريظة بصفة خاصة يجعلون سبي نساء بني قريظة وأطفالهم واسترقاقهم نقطة هجوم على الإسلام قائلين: إن هذا تصرّف مخالف لروح القرن العشرين ومناف لحقوق الإنسان، يجعل الإسلام في صفوف النظم الهمجية التي تبيح استعباد الإنسان لأخيه الإنسان.

وهي من أخبث الشبه والتهم التي في أبواقها ينفخ الشيوعيون والصليبيون وكل الخائفين من قيام سلطان الإسلام.. لإدخال وساوس الإلحاد والتشكك في صلاحية هذا الدين.

وحتى الشباب المسلم صار الكثير منه (نتيجة لهذه الوساوس) نهباً لنوازع الشك والحيرة والتساؤل.. كيف أباح الإسلام الرق، وهو الذي جاء لتحرير البشرية وإعلان المساواة بين كل البشر؟..

هكذا (دائماً) يتردد السؤال على ألسنة بعض الشباب المسلم الذي تأثر ببعض وساوس أعداء هذا الدين، والذي لم ينجح الأعداء (كلياً) في جرِّه إلى هاوية الكفر بدينه.

والحقيقة أن هذا السؤال سؤال حساس، سنجيب عليه هنا (للمناسبة) بشيء من الإسهاب والتفصيل، وبالقدر الذي نبدِّد به (على الأقل) غيوم الحيرة التي تتلبد (أحياناً) حول نفوس بعض الشباب المثقف عصرياً والذي تأثر بحملات التشكيك والاتهام التي يوجهها أعداء الإسلام إلى هذا الدين عبر موقفه من الرق خاصة.

وأجوبتنا على هذه التهم والتساؤلات (بشأن موقف الإسلام من الرق) ستكون، لا عن طريق الاستدلال بالنصوص المنبثقة من الكتاب والسنة، لأن هؤلاء الخصوم والمتأثرين بوساوسهم من المنتصبين إلى هذا الدين لن يقتنعوا بذلك، ولهذا فإن ردنا على هؤلاء (بهذا الخصوص) سيكون عن طريق الاحتكام إلى العقل والمنطق فحسب، فنقول:

الإسلام لم يشرع الرق:

١- إن الإسلام لم يكن هو المشرِّع الأول لنظام الرق، فاسترقاقه أسرى العدو وسبيه نساءهم وذراريهم لم يشرعه ابتداءً.

ولكن هذا الدين جاء والرق نظام عالمي معمول به عند جميع الأمم والشعوب دونما استثناء وعلى أوسع نطاق، ليس بين هذه الأمم والشعوب من يستنكره البتة.

وكان (قبل ظهور الإسلام) للرق في العالم منابع كثيرة ومصادر متعددة (غير مصدر الحرب) وخاصة في الدول الرومانية. من هذه المصادر:

أ- كان الفلاح في العهد الروماني يعتبر نوعاً من الرقيق لمالك الأرض يجوز له بيعه وشراؤه.

ب- كان سواد اللون عند الفرس والرومان وغيرهم صفة تبيح الاسترقاق، فكل أسود عندهم هو عبد يجوز بيعه وشراؤه مهما كانت الوسيلة التي تم الحصول بها عليه.

وكان هذا النظام معمولاً به في الأمريكتين حيث نهب النخاسون الغربيين (في ظرف خمسين سنة) من الإفريقيين السود حوالي خمسة عشر مليوناً ونقلوهم عبيداً إلى الأمريكتين، وظلوا عبيداً إلى أيام (إبراهام لنكولن) الذي أعلن تحريرهم، ولكنهم مع هذا الإعلان ظلوا (في مرتبة العبيد) محرومين معزولين ليس لهم من الحقوق مثل ما للبيض.

ج- كانوا في أوروبا وفي كثير من بلدان العالم يسترقون المَدين مقابل الدين الذي يعجز عن دفعه، ويقرهم القانون على ذلك.

د- كان كثير من الشعوب (وخاصة في الشرق الأقصى) يبيح لهم النظام بيع أولادهم وحتى زوجاتهم ليدخلوا في عالم العبيد.

هـ - كما أن هناك نوعاً من الرق عند الهندوس وهو أحط أنواع الرق (المنبوذون) الذين يعتقد الهندوس (حتى هذا اليوم) أن هذا النوع (المنبوذين) هم أرقاء أبديون خلقوا هكذا ولا يمكن تخليصهم من هذا الرق حتى الممات، وهذا نظام ديني عندهم، يلقن المنبوذون الرضا به كقاعدة من قواعد دينهم التي لا يجوز لهم الخروج عنها.

و - هذا بالإضافة إلى المصدر الأكبر للاسترقاق في العالم يوم ذاك، وهو الحروب التي يقضي النظام العالمي السائد (قبل ظهور الإسلام) أن يكون فيها المغلوبون هم ونساؤهم وذراريهم أرقاء كجزء من الغنائم التي يغنمها الجيش المنتصر.

الإسلام يلغي جميع أنواع الرق:

٢- ولما كان تحرير الإنسان من استعباد أخيه الإنسان، ورفع الظلم عنه مهما كان نوعه أو لونه أو دينه أو جنسه، هو من أهم أهداف الإسلام الرئيسية، فقد سارع هذا الدين إلى تجفيف جميع منابع الرق، وأمر بردم جميع مصادره، فألغى كل أنواع الرق التي كان النظام العالمي يعترف بها ويبيحها، فحرم الإسلام هذه الأنواع واعتبر التعامل بها باطلاً.

ولم يسمح الإسلام لأتباعه إلا بنوع واحد من الاسترقاق، وهو الناتج عن الحروب العادلة المشروعة التي يخوضها المسلمون ضد أعدائهم [1].

ولكي يبطل الإسلام جميع أنواع الرق التي كانت سائدة قبله (ماعدا رق الحرب) أعلن بكل وضوح أن الحرية هي صفة أساسية لكل إنسان (مهما كان لونه أو دينه أو جنسه) وأن رق الحرب الذي أبقى عليه الإسلام، إنما هو صفة عارضة يتعرض لها الإنسان تحد من حريته في بعض المجالات (لا كلها) وإلا فرقيق الحرب (عند الإسلام) إنسان له كامل حقوق الآدميين.

لماذا أباح الإسلام رق الحرب: أما لماذا لم يلغ الإسلام نظام الرق الناتج عن الحرب كما ألغى جميع الأنواع الأخرى وحرّمها، وهو السؤال الذي يردده الطاعنون في جوهر الإسلام ويوسوسون به لدى المثقفين العصريين من المنتسبين إلى هذا الدين، والذين طالما تأثروا بهذه الوساوس فنأت بهم عن حظيرة الإسلام إذ تكون هذه الوساوس سبباً في تشككهم في صلاحية هذا الدين وعدالته.. أما لماذا لم يلغ الإسلام العمل بنظام الرق الناتج عن الحرب؟ فإنا سنجيب عليه، وجوابنا سيكون (طبعاً) من ناحية جدلية منطقية عقلية، لا من الناحية الدينية التي تعتمد على نصوص القرآن والحديث، لأن الذين يتقدمون (عادةً) بمثل هذا السؤال لا يؤمنون بالقرآن ولا بالحديث. أما الجواب فهو:

١- لقد قلنا إن الإسلام جاء إلى الوجود، والرق نظام عالمي وعملة اقتصادية تتعامل بها جميع الأمم دونما استثناء، والرق الناتج عن الحروب هو نوع من أنواع هذا الرق.

فكان المغلوبون يصيرون، هم ونساؤهم وأطفالهم عبيداً للغالب تمشياً مع هذا العرف العالمي والنظام الأممي السائد عند ظهور الإسلام، ولما كان المسلمون يشتبكون مع خصومهم في حروب كثيرة فإن خصوم الإسلام إذا ما انتصروا على المسلمين (والحرب سجال) فإنهم (تمشياً مع هذا النظام السائد) يسترقونهم رجالاً ونساءً وأطفالاً.

---

(١) الحرب العادلة في نظر الإسلام، هي التي يخوضها المسلمون بدافع إعلاء كلمة الله ولإزاحة الذين يستخدمون القوة لمنع نشرها، ولهذا كان المسلمون لا يشنون أي حرب على الكفار إلا بعد أن يطلبوا منهم ويخيروهم في واحدة من ثلاث (١) إما الدخول في الإسلام. (٢) وإما دفع الجزية ليتركوا وشأنهم لأن ذلك دليل على عدم معارضة سلطان الإسلام الذي لم يخرج أتباعه إلا لنشر كلمة الله. (٣) وأما الحرب التي لا يعني الموافقة عليها سوى أن الأعداء مصممون على مقاومة نشر وإعلاء كلمة الله بالقوة بين شعوبهم. هذه هي الحرب العادلة في الإسلام، أما خوض الحرب (ولو ضد الكفار) إذا لم تكن بدافع إعلاء كلمة الله أو صد عدواً على المسلمين، وإنما بدافع الكسب والحصول على الأموال (فقط) فهي حرب غير عادلة لا يقرها الإسلام، وليس لما ينتج عنها حكم ما ينتج عن الجهاد في سبيل الله، فهل يفهم الطاعنون في الإسلام هذا؟.

الاسترقاق في الإسلام معاملة بالمثل:

ب - فكان من البديهي المتمشي مع العدل والعقل والمنطق أن يشرع الإسلام لأتباعه السير على نظام الاسترقاق الحربي المتبع قبل ظهور هذا الدين.

وذلك كإجراء ضروري لابد للمسلمين منه، إذ أنه من باب المعاملة بالمثل، في ظروف حربية تتطلب فيها مصلحة الجيش والأمة (عسكرياً وسياسياً ونفسياً) القيام به.

والمعاملة بالمثل (بل وحتى مقابلة العدوان بالعدوان) عمل مشروع تقره جميع النظم والأعراف والقوانين حتى هذه اللحظة.

وحتى لو فرضنا جدلاً أن سَبْيَ النساء والذراري واسترقاقهم هو عدوان، فإن من حق المحاربين المسلمين أن يشرع لهم دينهم ويبيح سبي واسترقاق رجال العدوّ ونسائهم وذراريهم، كإجراء حربي مقابل ما دام أن العدوّ (إذا ما تمّ له النصر) يسبي ويسترق رجال ونساء وذراري المسلمين.

فهل يريد خصوم الإسلام والناقمون على عملية استرقاق نساء وذراري يهود بني قريظة، هل يريد هؤلاء من الإسلام أن يعفي العدوَّ المحارب من هذه العملية (التي هي إجراء حربي مقابل)، وهو يرى هذا العدوّ - حين يتم له الظفر - يسترق ويستعبد رجال ونساء وذراري المسلمين ويسومهم سوءَ العذاب كعمل من أعمال الحرب المتعارف عليه دولياً قبل ظهور الإسلام [1] فالإسلام (إذن) ليس هو الذي شرع الرق وحبذه ودعا إليه وشجّع عليه؟.

بل إن الإسلام (كما سيأتي) قد حارب الرق وجفف منابعه وردم موارده حيث أبطل التعامل به، في جميع صوره، ما عدا نوع واحد وهو (كما قلنا) الاسترقاق الناتج عن العمليات الحربية التي يقوم بها المسلمون ضد الأعداء في حرب عادلة لا غدر فيها ولا عدوان وفي سبيل رفع راية الإسلام وحماية دعوته فقط.

---

(١) قال الأستاذ محمد الغزالي في كتابه (الإسلام والاستبداد السياسي) ص ١٢٧: وكان من الممكن تحريم الاسترقاق (أصلاً)، ولكن هذا التصرف من المسلمين يعتبر عبثاً لأن أعداءهم سيرفضون التقيد بهذا التحريم، ثم ينشأ عن ذلك أن أسرى المسلمين لديهم يستعبدون وأسرى المشركين ليدينا يحررون. وفي أي حرب يقع هذا التناقض؟. في حرب نحن فيها المدافعون عن حرية العقل والضمير الكابحون لجماح المعتدين والمتكبرين، وغيرنا فيها يطبق سياسة شاعر الجاهلية القائل:

بغاة ظالمين، وما ظلمنا ... ولكنا سنبدأ ظالمينا

لذلك سار الإسلام على قاعدة المعاملة بالمثل حتى لا يضار من تعلقه المطلق بالحرية الكاملة.

أبقى الإسلام على هذا النوع من الرق الحربي (إن صحّ هذا التعبير) كإجراء لا مناص منه ولا مفر (أملته ضرورة لا يملك النبي القائد المشرع عن الله الخلاص منها) لأن هذا النوع من الرق لا يأتي من جانب المسلمين وحدهم وإنما يأتي (أولاً) من جانب أقوام لا يملك الإسلام السيطرة عليهم، وليس للمسلمين من سلطان عليهم، حتى يمنعوهم من الاسترقاق.. أقوام يسترقون من يقع في أيديهم من أسرى المسلمين ويستعبدونهم، سواءً كانوا رجالاً أو نساءً أو أطفالاً.

فصار استرقاق المسلمين لأسرى الحرب من أعدائهم أمراً لا مفر منه، لأنه معاملة حربية بالمثل لابد منها، ومن هذا الباب استرقاق نساء وذراري يهود بني قريظة.

فيهود بني قريظة هؤلاء (وقد علمتم النص الصريح في كتابهم القاضي بقتل المغلوبين من رجال أعدائهم واسترقاق نسائهم وذراريهم) لو تمَّ لهم الظفر بالمسلمين لما صار رجالهم إلاَّ إلى القتل ونساؤهم وذراريهم إلاَّ إلى الاسترقاق والاستعباد.

فالإسلام - إذن - مع رغبته الأكيدة الملموسة في تحرير الإنسان وحضه على تحرير الرقيق في كل مناسبة لا يمكن أن يلغي (من جانب واحد) هذا النوع من الرق الحربي الذي كان المسلمون يقع الكثير منهم في أغلاله بين يوم وآخر في يد الأعداء نتيجة الحرب القائمة بين الإسلام وخصومه سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها [1].

ليس في الإسلام ما يمنع من الاتفاق على إلغاء الرق: ويمكننا (من خلال الأنظمة التي وضعها الإسلام لهذا النوع من الرق الوحيد الذي أبقى عليه) أن نستنتج أن هذا الدين لم يكن راغباً في أن يكون الرق نظاماً أبدياً لا يجوز إلغاؤه.

بل على العكس جعل الباب مفتوحاً لكي يكون من الممكن والجائز الاتفاق على قفل منابع الرق نهائياً، وذلك عن طريق الاتفاقات الدولية العامة أو الجزئية (مثلاً).

بدليل أن هذا الدين لم يجعل استرقاق أسرى الحرب أمراً لا مفر منه (كما هو في الشريعة الموسوية وغيرها من النظم والشرائع).

بل جعل أمر هؤلاء الأسرى (وهم المادة الوحيدة للرق في الإسلام) إلى الحاكم الأعلى ليتصرف فيهم وفق المصلحة العامة ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾[2].

---

(١) وقال الأستاذ محمد قطب في كتابه (شبهات حول الإسلام ص ٤٥): فليس من حسن السياسة أن تشجع عدوك عليك بإطلاق أسراه، بينما أهلك وعشيرتك وأتباع دينك، يسامون الخسف والعذاب عند هؤلاء الأعداء، والمعاملة بالمثل هنا هي أعدل قانون تستطيع استخدامه أو هي القانون الوحيد.

(٢) سورة محمد آية: ٤.

فإذا ما رأى هذا الحاكم أن المصلحة العامة تقضي بالاتفاق مع العدو على قفل منابع الرق نهائياً بإطلاق أسرى الحرب من الجانبيين وعدم استرقاقهم جاز له ذلك استناداً إلى قاعدة التخيير العامة التي وضعها القرآن الكريم ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ .

وما تبادل الأسرى الذي طالما تم بين المسلمين وأعدائهم في عصور مختلفة إلا نوعاً من اتفاقيات إلغاء الرق التي أباح الإسلام عقدها.

فلو أن الإسلام يعتبر الرق نظاماً أبدياً لا يجوز إلغاؤه وقفل منابعه (نهائياً) لما أباح تبادل الأسرى، بل لما دعا إلى التطوع بتحرير العبيد وفكاك أسر الأرقاء سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، وجعل ذلك من أبرِّ الأعمال التي يرضى الله عنها ويجزل الثواب على فعلها كما سيأتي مفصلاً فيما يلي من هذا الكتاب إن شاء الله.

هذا ما حضرنا (بشأن موقف الإسلام من الرق) من أجوبة على أسئلة خصوم الإسلام واستشكالات الحائرين من الشباب المثقف المتأثر بوساوس هؤلاء الخصوم الذين يتلمسون كل يوم للإسلام مقتلاً لعلهم يسدون إليه طعنة جديدة.

وأعتقد أنه جواب لا غبار على صحته واستقامته في نظر العقل المستقيم والمنطق السليم، ولا يمكن أن يبقى بعده لعاقل يحترم نفسه سبيلاً إلى التشنيع على الإسلام أو الطعن في نظامه فيما يتعلق بإباحته لأتباعه (يوم ذاك) الاسترقاق الحربي.

٣- هذا جوابنا مختصر بشأن إباحة الإسلام لأتباعه الاسترقاق من حيث المبدأ، كمعاملة بالمثل.

أما من ناحية معاملة الرقيق والنظام الدقيق الإنساني العادل الذي وضعه الإسلام لهذه المعاملة، فإن العاقل المنصف المتجرد عن الهوى - برجوعه إلى أصول وقواعد هذا النظام - يجد أن الإسلام (مع إباحته لأتباعه استرقاق المحاربين من الأعداء) لم يبق من هذا الرق إلا شكله، بالنظر للمعاملة الرهيبة الوحشية التي كان يلقاها الرقيق قبل ظهور الإسلام.

فبالرجوع إلى القواعد التي وضعها الإسلام لمعاملة الرقيق (أياً كان دينه أو لونه أو جنسه) وفرض العمل بها، يجد العاقل المنصف أن لا مناص من الاعتراف بأن الإسلام (مع إباحته نوعاً واحداً من أنواع الرق من حيث المبدأ) يعتبر محرراً للرقيق، وحتى لهذا النوع الذي أباحه من حيث المبدأ.

الرقيق عند الرومان والأمم الأخرى: فقد كان الرقيق في شرعة الرومان وعرف الهند والفرس، لا يعتبر من البشر، فليس في قوانينهم اعتراف بأي حق لهذا الرقيق، فلم تضع هذه القوانين أي نظام يحفظ للرقيق أي حق البتة.

لـذا كـان الرقيق (وخاصة في نظر الرومان) أحط منزلة من البهائم، مقذوفاً به خارج كـيان البشـر، كـان من حق السيد الروماني أن يخصى رقيقه أو يجلده أو يقتله بأية طريقة شـاء وبـأي أسـلوب أراد دون أن يجد هذا الرقيق حرفاً واحداً في القانون الروماني يحميه مـن شيء من هذا الظلم الفادح، وما حلقات المبارزة بالسيف والرمح والفأس التي تنتهي دائمـاً بقـتل المغلوب في غير ما حرب ضرورية وإنما للتسلية، والتي تقام لها المهرجانات في العهـود الرومانـية، والـتي يشـهدها الملـوك والأباطـرة، والتي يجبر فيها المتبارزون على أن تكـون فـيها مبارزتهم مبارزة حقيقة تسدد فيها الطعنات القاتلة بالسيوف والرماح إلى أي مكـان في الجسـم بقصـد القـتل.. ما حلقات هذه المبارزة الوحشية إلاّ عملية من عمليات تعذيب السادة الرومان للرقيق وقتله بقصد التسلية، والتسلية فقط.

حيـث أن كـل المـبارزات الرومانـية المشـهورة الـتي تقـام لهـا المهـرجانات وتعـدُّ لها الساحات والمدرجات، والتي تزهق فيها روح الإنسان عبثاً وللتسلية فقط، لا يقوم بها إلا الأرقـاء الذيـن يُجـبَر كـل مـنهم عـلى مبارزة صاحبه (وسط ضحكات السادة الصاخبة وهتافاتهم المخمورة العربيدة) مبارزة حقيقية حتى الموت.

وبالجملـة كـان الرقـيق فـيما قـبل عهـود الإسـلام (في عهد الرومان والفرس والهند وغيرهم) ليس له أي حق مما يمكن تسميته حقوق الإنسان.

فليس له (في جميع هذه العهود) حق الشكوى من أي ظلم ينزل به من سيده، وإذا ما تجـرأ وشكا فإنه ليس هناك أية جهة قانونية يكون من حقها حتى النظر في هذه الشكوى، لأن الرقيق (في عرف أولئك الأقوام) قد شطب من قائمة الإنسان.

الحقــوق الــتي أعطاها الإسلام للرقيق: وبيـنما كـان الحال يجري على هذا المنوال من الوحشـية والهمجـية في معاملـة الرقـيق، جاء الإسلام، فنظر في شؤون الرقيق فوضع لهم ذلك النظام الإنساني العادل الذي به أعاد لهذا الإنسان الضائع (الرقيق) بشريته وإنسانيته حتى جعله يشعر بالتساوي مع سيده في كل الحقوق.

سـاوى الإسـلام بـين الرقـيق وسـيده في القصاص والدم حيث أعلن النبي ﷺ هذه المسـاواة قـائلاً (كما في صحيح البخاري ومسلم): «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه ومن أخصى عبده أخصيناه».

وأعلن الإسلام وحدة الأصل والمنشأ والمصير بين السيد والمسود: «أنتم بنو آدم وآدم من تراب»[(١)]. ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[(٢)].

وأعلن أنه لا فضل لسيد على عبد لمجرد أن هذا سيد وذاك عبد وإنما الفضل بالتقوى «ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أعجمي على عربي، ولا أسود على أحمر إلاَّ بالتقوى»[(٣)].

وقرر الإسلام أن السادة ليسوا أصحاب فضل حين ينفقون على عبيدهم، لأنهم جميعاً في وضع واحد بالنسبة لله خالق الجميع وحده ورازق الجميع وحده: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾[(٤)].

وجاء الإسلام ففرض على السادة أن يحسنوا معاملتهم للرقيق: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[(٥)].

كما أعلن الإسلام أن العلاقة بين السادة والرقيق ليست علاقة الاستعلاء والاستعباد، أو التسخير والتحقير (كما كانت الحالة في العهد الروماني وأشباهه) وإنما هي علاقة القربى والأخوة، فالسادة (أهل) للجارية يستأذنون في زواجها: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[(٦)].

وأعلن الإسلام أن الرقيق أخ لمالكه، فرض عليه أن يتساوى معه في المأكل والملبس «إخوانكم خَوَلكُم فمن كان (أخوه) تحت يده فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[(٧)].

---

(١) حديث رواه مسلم وأبو داود. (٢) سورة النساء ٢٥. (٣) حديث أخرجه الطبراني في كتاب آداب النفوس.

(٤) سورة النحل ٧١.

(٥) سورة النساء ٣٦.

(٦) سورة النساء ٢٥.

(٧) حديث رواه البخاري.

بـل إن الإسـلام (صـوناً لمشـاعر الرقـيق ومحافظـة على كرامته كإنسان) نهى عن أن يـنادي المـالك لرقـيقه باسـم العـبد « لا يقل أحدكم: هذا عبدي وهذه أمتي، وليقل فتاي وفـتاتي»[١]. ويسـتند أبـو هريـرة عـلى هذا النص في معاملة الرقيق، فيقول لرجل ركب وخلفه عبده يجرى: «أحمله خلفك فإنه أخوك وروحه مثل روحك» [٢].

مســاواة الإسلام بين المالك والرقيق: بـل إن الإسلام يذهب إلى أبعد من هذا في حماية الرقـيق وصـون حقوقـه كإنسـان لا فـرق بيـنه وبين مالكه، لولا الملابسات العارضة التي جعلـته رقـيقاً، فيعطيه من الضمانات الكافية الوافية ما تجعله في مأمن، من أي اعتداء من مالكه.

وقـد بلغت هذه الضمانات إلى درجة أن الرقيق - إذا لطمه مالكه ظلماً وعدواناً - وجـب علـيه تحريـره تأديـباً له عـلى اعـتدائه وعدوانـه، فقـد روى مسـلم وأبو داود أن النبي ﷺ قال: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفّارته أن يعتقه».

وهذه مرحلة في معاملة الرقيق والاعتناء به وحمايته لم يصل إلى مثلها تشريع في الدنيا، لا قبل الإسلام ولا بعده.

كــيف فــتح الإسلام باب التحرر للرقيق: ثـم إن الإسلام - مع وضع هذه القوانين الإنسـانية العادلـة الـتي أعـادت، ولأول مرة في التاريخ، للرقيق إنسانيته الضائعة وكرامته المهـدورة، ورغـبة مـن هـذا الدين القويم في التحرير الكامل - لكل البشر - قد وضع (ولأول مـرة في الـتاريخ) قانونـاً فتح بموجبه باب التحرر لأي رقيق يحس في نفسه الرغبة في التحرر من قيد الرق.

وهـذا القـانون هـو قـانون المكاتـبة الـذي وضـعه الإسلام لصالح الرقيق على وجه الخصوص.

وخلاصـة هـذا القـانون، هو أنه من حق الرقيق المملوك أن يطلب من مالكه التحرر مـن رقه على مبلغ معلوم من المال يعمل الرقيق على جمعه ودفعه لمالكه ليصبح بعد دفعه حراً.

كــيف يجبر الإسلام المالك على تحرر عبده؟ وإذا مـا طلب الرقيق المكاتبة للتحرر على هذه الصفة فإن المالك (كما هو ظاهر النص القرآني) لا يملك رفض طلب الرقيق.

---

(١) حديث رواه أبو هريرة.

(٢) شبهات حول الإسلام ص ٣٣ وما بعدها، للأستاذ محمد قطب.

فواجب على المالك أن يكاتب رقيقه، ويعينه على التحرر، ما لم يكن في تحريره مساس بسلامة دول الإسلام.

فقد نصَّ القرآن صراحة على ذلك: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرًا ﴾[1].

وقد استدعى الخليفة الفاروق أنس بن مالك وحقق معه عندما شكاه مملوكه (سيرين) لأنه رفض أن يكاتبه وأمره بأن يكاتبه، حيث رفع عمر الدرة [2] على أنس وقرأ عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ... ﴾ الآية [3]. فكاتبه حتى تحرر.

وجوب مساعدة الرقيق على التحرر: بل إن الإسلام فرض على مالك الرقيق مساعدته (مادياً) على التحرر إذا ما أراده عن طريق المكاتبة: ﴿ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾[4].

وذهب الحنابلة والشافعية إلى وجوب إسقاط ربع المبلغ الذي كوتب عليه الرقيق مساعدة له على التحرر من الرق، فمثلاً لو تم الاتفاق بين الرقيق ومالكه على أن يدفع الرقيق لمالكه (مقابل تحرره) ألف دينار، فإن على المالك أن يتنازل للرقيق المكاتب عن مائتين وخمسين ديناراً بأن يعيدها له بعد حصوله على المبلغ كاملاً لقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾[5].

البند المالي الخاص لتحرير العبيد: وحرصاً من الإسلام على تحرير الرقيق على أوسع نطاق، جعل هذا الدين بنداً خاصاً تتولى الدولة صرف إعانات سخية منه للذين يريدون التحرر من الرق عن طريق المكاتبة.

وهو البند الرابع في الآية الكريمة التي حددت مصارف الزكاة التي كانت من أكبر موارد الدولة الإسلامية في عهدها الأول: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾[6]. فنص القرآن الكريم، على وجوب تولّي بيت المال (وهو المسمى بوزارة المالية في هذا العصر) صرف الإعانات المالية للمكاتبين لمساعدتهم على التحرر، إذا ظهر عجزهم عن أداء المبلغ المتفق عليه لتحريرهم بكسبهم الخاص.

---

(١) سورة النور ٣٣.

(٢) الدرة هي عصا الخليفة الفاروق المشهورة.

(٣) النور ٣٣.

(٤) انظر المغني لابن قدامة ج ٩ ص ٤٢٤.

(٥) انظر المغني لابن قدامة ج ٩ ص ٤٢٤.

(٦) سورة التوبة ٦٠.

وبمجرد إبرام عقد المكاتبة بين الرقيق ومالكه، فإن الإسلام يجبر المالك على أن يفسح الطريق للرقيق لكي يعمل بالطرق المشروعة التي تروق له ليجمع بها المبلغ المتفق عليه.

فإن قبل الرقيق العمل عند مالكه بعد المكاتبة، فإن هذا العمل يجب أن يكون بأجر لحساب الرقيق المكاتب، وإن رغب المكاتب العمل عند غير سيده لجمع المبلغ المطلوب، لزم إعطاؤه مطلق الحرية في ذلك، ولا يجوز للمالك إجباره على عمل معين.

كيف قلص الإسلام من سلطة المالك على الرقيق؟ فهذا القانون (قانون المكاتبة) يعتبر من الإسلام تشجيعاً وإغراءً مدعوماً بالسلطة للرقيق على التحرر وتقليصاً من سلطة المالك عليه.

وهذا يعني أن الرقيق (بعد صدور هذا القانون الخاص به) لم يعد رقيقاً ولا عبداً بالمعنى المتعارف عليه قبل ظهور الإسلام.

بل إنه يعتبر (بعد صدور هذا القانون وبالنظر للحالة السيئة التي كان عليها قبل ظهور الإسلام) حُرّاً لا عبداً.

لأن الإسلام ـ عندما وضع التشريعات الخاصة بحماية الرقيق لم يعط السيادة المطلقة للمالك على الرقيق، بدليل أنه جعل الرقيق حراً في أن يتخلص من قيد الرق عن طريق المكاتبة، رضي مالكه أم أبى، كما ينص على ذلك ظاهر القرآن، وكما هو عمل الخليفة الثاني الذي أجبر الصحابي الشهير أنس بن مالك [١] على مكاتبة مملوكه (سيرين) عندما طلب منه ذلك.

وهذه حقوق التي أعطاها الإسلام للرقيق، لم يعطه مثلها أي شرع أو قانون قبل الإسلام أو بعده، وحتى إبراهام لنكولن الذي أعلن تحرير الرقيق في أمريكا، لم يغيِّر إعلانه من حالة الزنوج التعسة شيئاً حيث ظلوا (حتى هذا اليوم) يعاملون معاملة العبيد بالرغم من ذلك الإعلان الذي يفتخر به الأمريكان فقد ظل الزنوج (في واقع أمرهم) محرومين من الحقوق التي يتمتع بها مواطنهم الأبيض.

الإبقاء على الرق في الإسلام شكلياً: ومع إبقاء الإسلام على هذا النوع من الرق الحربي، فإن إبقاءه عليه يكاد يكون شكلياً فقط. وذلك لكثرة السبل التي فتحها أمام هذا النوع من الرقيق، ليتحرر من قيد الرق، سواء عن طريق القانون الذي أعطى الإسلام

---

(١) انظر ترجمه في كتابنا (غزوة أحد).

بموجبه الرقيق مطلق الحرية في أن يطلب التحرر من ملك سيده عن طريق المكاتبة وتسديد أقساط هذه المكاتبة من عمل يده ومن وزارة المالية، إذا ثبت عجزه عن التسديد بالكسب من العمل، أو عن طريق باب التطوع العريض الواسع الذي فتحه الإسلام لتحرير الرقيق.

أما فسح الطريق أمام الرقيق للتحرر عن طريق القانون المدعم بالسلطة التنفيذية ومساندة الدولة المالية، فقد أوضحناه في تعليقنا على قانون مكاتبة الرقيق في الإسلام.

محاربة الإسلام للرق: أما التطوع في تحرير الرقيق فقد دعا الإسلام المسلمين إليه وحضهم على الدخول فيه من أوسع أبوابه، حيث دعا بحرارة وإلحاح إلى عتق العبيد تطوعاً، وجعل الجنة جزاء الذين يتطوعون بتحرير الرقيق، مما يمكن اعتباره من الإسلام محاربة للرق، لا تشجيعاً عليه.

فإذا رجعنا إلى جميع نصوص الكتاب والسنة فلن نجد نصّاً واحداً يأمر بالاسترقاق أو يحض عليه، بل لوجدنا كل النصوص المتعلقة بالرقيق والتي تبلغ المئات، كلها (تقريباً) تتحدث عن فضيلة العتق وتدعو إليه وتحضُّ على تحرير العبيد وتخليصهم من قيد الرق.

فالقرآن الكريم طالما تحدث عن فضيلة عتق الأرقاء، واعتبر الإقدام عليه منجاة من النار: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [(١)].

وقد دعا النبي ﷺ في عشرات الأحاديث إلى التطوع بتحرير الرقيق، وتعهد لهؤلاء المتطوعين بالجزاء الحسن عند الله والنجاة من النار، ومما ورد عنه ﷺ في هذا المجال قوله:

«من أعتق رقبة مؤمنة كانت له فداءً من النار»[(٢)].

«أيما رجل أعتق امرءًا مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار»[(٣)].

..« ورجل كانت عنده جارية وضيئة فأدَّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها.. ثم تزوجها يبتغي بذلك وجه الله فذلك يؤتي أجره مرتين» [(٤)]. «أيما رجل أعتق امرءًا مسلماً كان فكاكه من النار»[(٥)].

---

(١) البلد آية ١١.

(٢) عن جمع الفوائد ج٢ ص ٦٩٥.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) الإسلام والاستبداد السياسي ص ١٣٥.

(٥) رواه الترمذي.

«وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! علّمني عملاً يدخلني الجنة، قال! إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة: أعتق النسمة وفك الرقبة»[١]. إلى غير ذلك من نداءات التشجيع النبوية على تحرير الأرقاء والترغيب فيه.

تحرير الرقيق غير المسلم: ودعوة الإسلام إلى تحرير الرقيق والحض عليه، لا تقتصر على الأرقاء الذين دخلوا في الإسلام بعد استرقاقهم، بل إن هذه الدعوة إلى التحرير تشمل كل الأرقاء سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، كما هو منصوص عليه في كتب الفقه الإسلامي، التي تشير بوضوح إلى أن تحرير الرقيق الكافر هو عمل مبرور وقربة إلى الله يثيب الله على فعلها، لعموم النص الداعي إلى التحرير[٢].

رغبة الإسلام في تصفية الرق: ورغبة من الإسلام في تصفية الرق تصفية نهائية، أو تضييق مداه إلى أبعد الحدود، فإنه - بالإضافة إلى القوانين الإلزامية التي وضعها بغية إفساح الطريق أمام الأرقاء ليتحرروا من قيد الرق، والعقوبة التي فرضها على مالك الرقيق، وهي تحرير هذا الرقيق، إذا اعتدى عليه مالكه بالضرب في غير ما حق، وبالإضافة إلى حض المسلمين على تحرير الرقيق ابتغاء مرضاة الله تعالى، فإن الإسلام قد جاء بتشريعات أخرى لصالح الرقيق، بغية تحرير أكبر عدد ممكن منه، فقد جعل عتق الرقيق عقوبة لازم تنفيذها على مرتكبي كثير من المخالفات.

١-جعل العتق كفارة في عقوبة القتل الخطأ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[٣].

٢- كما جعل العتق كذلك عقوبة الذين يظاهرون من نسائهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾[٤].

٣- وكذلك جعل الذي يفطر في رمضان بالوقاع ملزماً بتحرير رقبة.

٤- وكذلك الذي يحنث في يمينه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[٥].

---

(١) رواه أحمد.

(٢) انظر كتاب (مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى) ج٤ ص ٦٩٢ (فقه حنبلي).

(٣) سورة النساء ٩٢.

(٤) سورة المجادلة ٣.

(٥) المائدة ٨٩.

وبعد تلك النداءات والتوصيات المتكررة التي وجهها الإسلام إلى الذين يملكون الرقيق وحضهم فيها على ابتغاء مرضاة الله بتحرير الرقيق، تبارى الرعيل الأول من المسلمين في ميدان تحرير العبيد، وكان الرسول الأعظم ﷺ القدوة الأولى في ذلك.

إذ قام ﷺ بتحرير كل من عنده من الأرقاء، وانتشرت موجة التطوع بتحرير الرقيق بين الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة الأثرياء منهم.

وذهب كثير منهم في التطوع إلى أبعد من تحرير الرقيق الذي عنده، فصار يشتري العبيد بماله بقصد تحريرهم، فيعتقهم ابتغاءَ مرضاة الله تعالى.

وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق الذي كان ينفق الأموال الطائلة من حرِّ ماله في شراء العبيد من كفار قريش ليعتقهم ويمنحهم كامل الحرية تنفيذاً لتوصيات الإسلام الملحة في هذا الباب.

بند تحرير العبيد في وزارة مالية الإسلام: بل إن الإسلام ذهب في حرصه على تحرير الأرقاء إلى أن جعل لبيت مال المسلمين (وزارة المالية) الحق في أن تشتري العبيد وتقوم بتحريرهم إذا كان لديها من المال المجمّد ما يمكّنها من ذلك.

يدلنا على هذا ما رواه أصحاب الحديث والتاريخ من أن مبعوث الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية (يحيى بن سعيد) لما لم يجد من يوزع عليهم الأموال من الفقراء، قام واشترى (باسم الدولة) مجموعة كبيرة من العبيد فأعتقهم.

قال يحيى بن سعيد:« بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فجمعتها ثم طلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً ولم نجد من يأخذها منا، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس.. فاشتريت بها عبيداً فأعتقتهم».

ولم يقتصر الإسلام في ميدان تحسين حال الرقيق والعمل على تحريره وإعادة إنسانيته التي كانت ضائعة قبل بزوغ شمس هذا الدين على ما ذكرنا من تشريعات وقوانين وتوصيات، بل ذهب (وخاصة في ميدان تحرير الرقيق نفسياً) إلى أبعد من ذلك.

المساواة بين الأحرار والعبيد: ففي الوقت الذي كان التشريع الروماني والهندي والفارسي، يلغي إنسانية الرقيق ويعتبره كائناً مقذوفاً به خارج الكيان البشري، ويبيح (دون تحفظ) لمالكه تعذيبه أو خصيه أو قتله (حتى وإن كان على دينه) كان الإسلام يسير في طريق الارتفاع بهذا الرقيق حتى وصل به إلى درجة المساواة بينه وبين السادة.

فقد آخى النبي ﷺ بين بلال بن رباح الحبشي وخالد بن رويحة الخثعمي، كما آخى بين مولاه زيد بن حارثة وعمه حمزة بن عبد المطلب، وبين المولى خارجة بن زيد وأبي بكر الصديق.

فصار هؤلاء الموالي (بموجب هذه المؤاخاة) إخواناً لهؤلاء السادة الأعلام من العرب، «وكانت هذه المؤاخاة صلة حقيقية تعدل رابطة الدم وتصل إلى حد الاشتراك في الميراث»[١].

الأرقاء ومنصب القيادة في الإسلام: بل إن الإسلام ذهب في الارتفاع بالذين كانوا أرقاء إلى درجة أن يكونوا قادة لجيوش جنودها سادات الأنصار والمهاجرين.

فقد ولّى النبي ﷺ مولاه زيد بن حارثة (في غزوة مؤتة) على جيش من الأنصار والمهاجرين وغيرهم من سادات العرب، أمثال خالد بن الوليد.

ولما استشهد مولاه زيد القائد في تلك المعركة، أسند النبي إلى ابنه أسامة بن زيد (وهو مولى) قيادة الجيش، الذي كان فيه أمثال أبي بكر وعمر.

وهكذا أعطى الإسلام هؤلاء الذين كانوا أرقاءَ حق القيادة على الأحرار من سادات العرب، فيطيع هؤلاء السادة فرحين مسرورين.

العبيد ومنصب الخلافة: بل إن الإسلام وصل في تحرير الرقيق وإكرامه إلى أن قال (على لسان حامل رسالته ﷺ): «اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى» [٢].

وهذا يعني أن الإسلام قد جعل العبد المملوك مرشحاً لأن يكون خليفة للمسلمين، إذا كان لديه من المؤهلات والكفاءات ما يجعله أهلاً لذلك« ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى». واستناداً إلى هذا المبدأ الذي وضعه هذا الحديث الصحيح، قال عمر بن الخطاب (وهو يفكر فيمن يستخلف): «لو كان سالماً مولى أبي حذيفة حيًّا لولّيته».

كلمة إلى المنصفين: إن الإنسان المنصف المتجرد عن الهوى يدرك بكل وضوح من خلال هذه التشريعات والتوصيات التي جاء بها الإسلام لصالح الرقيق - أن هذا الدين لم تكن له أية رغبة في أن يستعبد الناس بعضهم بعضاً (كما يفتري خصوم هذا الدين)، وإنما ألقى بثقله لتحرير الرقيق والعمل على تصفية الرق فجفف كل منابعه وردم كل موارده بدليل أنه أصدر تشريعاً صريحاً قاطعاً ألغا بموجبه كل أنواع الرق التي كان التعامل بها قائماً قبل ظهوره.

---

(١) شبهات حول الإسلام ص ٤٣.

(٢) رواه البخاري.

أما نـوع الـرق الذي كاد يكون إبقاءُ الإسلام عليه (شكلياً)، وهو نوع الرق الحربي ومـا نـتج عـنه، فـإن الإسـلام قـد أصـدر تشريعات وأصدر توصيات لا تعدُّ ولا تحصى لصـالح هـذا الرقـيق حـتى لتكاد تتجسد (من خلال هذه التشريعات والتوصيات) رغبة الإسـلام الصـادقة في تصـفية الرق تصفية كاملة، وذلك لكثرة ما جاء من دعوات واسعة إلى تحرير الرقيق في كل المناسبات.

فهـل بعـد هـذا الـذي أوضـحنا يجـوز لعاقل ذي ضمير حر ووجدان سليم أن يتهم الإسلام بأنه قد أقر استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، أو حتى حبّذ الرق وشجَّع عليه؟.

إن الذيـن يتهمون الإسلام ويوجهون إليه الطعون والانتقادات عبر موقفه من الرق، إنمـا يريدون الوصول إلى هدف واحد معين (فقط)، هو تشكيك الناس (وخاصة الشباب المسلم المثقف عصرياً) وتزهيدهم في هذا الدين القويم، ليس إلاَّ.

أيها الشباب المسلم: فيا شباب الإسلام! قبل أن تسلِّموا بهذه الشبه التي يرسلها أعداءُ الإسـلام، وقـبل أن تستسـلموا لوساوسـها، حكِّموا عقولكم وأرخوا للتفكير الحر عنانه، للـنظر (قـبل كـل شـيء) في قواعـد ديـنكم ومصادر تشريعه وغاياتها وأهدافها، لتقارنوا مقارنـة حقيقية حرة، بين حقيقة هذا الدين وبين ما يقوله عنه الذين - أقل ما يقال فيهم -: إنهم خصوم الداء له وعاملون في ميدان الحرب ضده.

وإنكـم عندما تفعلون ذلك وترجعون إلى دراسة أية ناحية من نواحي دينكم تتعرض للطعـن والـنقد من هؤلاء الخصوم، عندما ترجعون إلى دراسة هذه الناحية، (قبل التسليم بهـذه المطـاعن والانتقادات والتأثر بوساوسها) سيتجسد لكم زيف هذه المطاعن وبطلان تلـك الانـتقادات وسـيتجلى لكـم مـدى الظـلم والافـتراء الـذي تحملـه هـذه المطـاعن والانتقادات.

ولا نقـول هـذا بشـأن موضـوع الرق فقط، بل نطلب منكم - التريث وسلوك هذا المسـلك الـرجولي الحـر المستقل إزاء كـل مـا تسمعون من طعون وانتقادات وتشنيعات يوجههـا الخصوم البارعون الماكرون إلى هذا الدين، باسم البحث والمقارنة أحياناً، وأحياناً باسم الحضارة والمدنية والتفكير الحر.. الخ.

أمـا إنكـم تسـلّمون بهـذه المطاعن وتتأثرون بوساوس هذه الانتقادات التي توجّه إلى ديـنكم مـن خصوم له ألداء، وأعداء موتورين، دون أن تنظروا نظرة فاحصة حرة مستقلة في الـنواحي الـتي وجهـت إلـيها المطاعن في دينكم، ودون أن تنظروا في مواقف الجبهات الأخـرى المدافعـة عـن هـذا الديـن والـتي تتولى دائماً (وفي كل المناسبات) الرد على هذه الطعـون وتفنـيد هـذه الانـتقادات بسلاح العلم والعقل والمنطق.. أما إنكم تفعلون هذا، فـإن أقل ما يقوله ذوو العقول الراجحة والأفكار الحرة فيكم (ولو من غير أبناء دينكم): أنكـم تفكـرون بالتبعية، وأنكم لستم أكثر من آلات تحكي ما يطبع عليها دون أن تعيه أو تدرك معناه.

وهذا ما لا يرضاه إنسان عادي لنفسه ـ فضلاً عن شباب مثقف واعٍ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرجل الذي غير مجرى الأحداث	٥٠٨
نعيم بن مسعود في المعسكر النبوي	٥٠٨
داهية الخندق عند بني قريظة	٥٠٩
كيف انخدعت قريظة بداهية الخندق	٥٠٩
نعيم الداهية في قيادة الأحزاب	٥١٠
انخداع الأحزاب بداهية الخندق	٥١٢
وفد الأحزاب إلى بني قريظة	٥١٢
الأحزاب تطلب الهجوم وقريظة تطلب لرهائن	٥١٣
ظهور الخلاف بين الأحزاب واليهود	٥١٣
الأحزاب يرفضون إعطاء الرهائن	٥١٤
شيطان بني النضير يحاول رأب الصدع	٥١٥
بنو قريظة يفاوضون النبي في الصلح	٥١٥
انهيار الاتحاد الوثني اليهودي	٥١٦
أبو سفيان يأمر بالانسحاب	٥١٦
أبو سفيان يخطب في الجيش	٥١٧
فك الحصار عن المدينة نهائياً	٥١٧
الأحزاب تنظم انسحابها	٥١٨
أبو سفيان يكتب إلى النبي عند الانسحاب	٥١٩
آخر غزوة يقوم بها العدو	٥٢٠
الفصل الخامس	٥٢١
عدد شهداء المسلمين	٥٢١
قتلى لم يعرف عددهم	٥٢٢
قتلى المشركين	٥٢٣
حديث القرآن عن المعركة	٥٢٣
حديث القرآن عن تدهور الحالة	٥٢٤
حديث القرآن عن المنافقين	٥٢٤
حديث القرآن عن مواقف المسلمين المشرفة	٥٢٦
الابتلاء والاختبار	٥٢٧
الفصل السادس	٥٣١
دقة موقف المسلمين	٥٣١
قوة العدو الساحقة المتفوقة في كل شيء مادي	٥٣١
نقض اليهود للعهد	٥٣١
عنصر المنافقين والمرجفين الموجودين داخل جيش الإسلام كجزء منه	٥٣٢
العوز وحالة الفقر مع برودة الطقس وشدة الرياح	٥٣٣
أسباب فشل الأحزاب	٥٣٣
الأسباب الرئيسية	٥٣٣
السبب الأول: حفر الخندق	٥٣٣
التذمر في صفوف الأحزاب	٥٣٤
السبب الثاني: خديعة نعيم بن مسعود	٥٣٥
السبب الثالث: العقيدة	٥٣٦
الخواء العقائدي عند الأحزاب	٥٣٧
مقارنة بين الأحزاب والمسلمين	٥٣٨
حصيلة الغزو العكسية	٥٣٩
سمعة المسلمين بعد غزوة الأحزاب	٥٣٩
السبب الرئيسي	٥٤١

غزوة بني قريظة (٤)

تقديم الكتاب بقلم اللواء الركن: محمود شيت خطاب	٥٤٥
كلمة المؤلف	٥٥١
الفصل الأول	٥٦١
نسب اليهود	٥٦١
قبائل اليهود في يثرب	٥٦١

العنصرية بين اليهود ٥٦١
كيف جاء اليهود إلى يثرب؟ ٥٦٢
أدوار التاريخ اليهودي في يثرب ٥٦٤
إخضاع اليهود وسيطرة اليمانيين على يثرب ٥٦٥
الأوس والخزرج في المدينة. ٥٦٥
الحرب الأهلية بين اليهود ٥٦٧
حال اليهود بعد فقدان السلطان ٥٦٨
مركز اليهود المالي ٥٦٨
اليهود في خيبر ٥٦٩
اليهود في الشمال ٥٧٠
يهود تيماء ٥٧١
نقاط أخرى في الشمال ٥٧٢
في الطائف والبحرين ٥٧٢
اليهود في اليمن ٥٧٢
كيف دخلت اليهودية اليمن ٥٧٣
ذهاب ملك التبابعة على أيدي الحبش ٥٧٥
اليهود في مكة ٥٧٦
أثر اليهودية في العرب ٥٧٦
أثر اليهودية في اليمن ٥٧٨
يهود الجزيرة في نظر غيرهم من اليهود ٥٧٩
العرب والثقافة اليهودية ٥٧٩
الشعراء اليهود ٥٨٠
السموأل بن عاد ٥٨٠
أخو السموأل سعية ٥٨١
أوس بن دنن القرظي ٥٨٢
أبو الزناد اليهودي ٥٨٢
سارة القرظية ٥٨٢
الفصل الثاني ٥٨٣
اليهود بعد الإسلام ٥٨٣
حديث اليهود عن نبوة محمد ﷺ ٥٨٤
كيف جحد اليهود الحق بعد معرفته ٥٨٦
بدء المقاومة اليهودية للإسلام ٥٨٨
نموذج من تشكيك اليهود وتلبيسهم ٥٨٨
اليهود وصرف القبلة عن الشام ٥٨٩
تعنت اليهود وحلم النبي ﷺ عليهم ٥٩١
اليهود يسبون الله ٥٩١
مساومة الرسول لفتنته ٥٩٢
محاولة اليهود بعث الروح الجاهلية بين القبائل ٥٩٣
نجاح اليهود في إثارة الحرب الأهلية ٥٩٤
الرسول ينقذ الموقف ٥٩٤
إحباط فتنة اليهود ٥٩٤
حبر من اليهود يفضحهم ٥٩٥
تبديل اليهود حكم الرجم في التوراة ٥٩٦
افتضاح اليهود في تلاعبهم ٥٩٧
اعتراف الأحبار بالتلاعب في التوراة ٥٩٨
المد الإسلامي يجرف اليهود ٥٩٨
اغتباط اليهود بزحف قريش إلى بدر ٥٩٩
اليهود ينقلون المعركة إلى صعيد أوسع ٦٠٠
اليهود بعد انتصار المسلمين في بدر ٦٠١
النبي وحرية القول ٦٠٢
الطريق الخطر ٦٠٣
اليهود يهددون بالحرب ٦٠٦
النبي ينصح بني قينقاع ٦٠٧
بنو قينقاع يغلظون القول للنبي ٦٠٨

بنو قينقاع ينقضون العهد ٦٠٨
مناقشة ابن إسحاق ٦٠٩
حصار بني قينقاع ٦١١
المنافقون وبنو قينقاع ٦١١
نجاح رأس النفاق في الشفاعة ٦١٢
طاغية اليهود الأكبر ٦١٢
الطاغية ينقض العهد ٦١٣
التحريض على المسلمين ٦١٣
الطاغية في مكة ٦١٣
مقتل طاغية اليهود ٦١٥
هدوء اليهود بعد مصرع الطاغية ٦١٦
استقرار الأحوال في المدينة ٦١٦
النبي والخطر الخارجي ٦١٧
الموقف بعد نكسة أحد ٦١٧
نشاط اليهود من جديد ٦١٨
بنو النضير ينقضون العهد ٦١٨
فاجعة بئر معونة ٦١٩
من آثار النكبة ٦١٩
النبي في ديار بني النضير ٦٢٠
فرصة كبيرة؟ ٦٢٠
المحاصرة ثم الجلاء. ٦٢٢
مركز التآمر في خيبر ٦٢٢
سيطرة بني النضير على خيبر ٦٢٣
اليهود وغزوة الأحزاب ٦٢٤

الفصل الثالث: ٢٧
بنو قريظة وإبادة المسلمين ٦٢٩
غزوة بني قريظة امتداد للأحزاب ٦٢٩
تصفية الحساب مع اليهود ٦٢٩
مرسوم الزحف على اليهود ٦٣١
أمير المدينة ٦٣٢
فرض الحصار على اليهود ٦٣٢
وقفة فقهية هامة ٦٣٣
النبي يقر الجميع ٦٣٤
وجوب احترام وجهات النظر المختلفة ٦٣٤
تأخير الصلاة أقرب إلى الصواب ٦٣٥
تأخير الصلوات لعذر القتال ٦٣٥
نيل اليهود من الذات النبوية الكريمة ٦٣٦
النبي القائد في ديار قريظة ٦٣٦
حديث النبي مع اليهود وقت الحصار ٦٣٧
طبيعة اليهود التي لا تتغير ٦٣٧
محاولة عقلاء اليهود إنقاذ الموقف ٦٣٩
زعيم يهودي يدعو قومه للدخول في الإسلام ٦٣٩
اليهودي الذي وفى بالعهد ٦٤١
ثناء النبي على اليهودي الوفي ٦٤٢
مقاومة اليهود واشتداد الحصار عليهم ٦٤٢
مقر قيادة الرسول أثناء الحصار ٦٤٣
سيد بني قريظة يدعوهم إلى الإسلام ٦٤٣
يقترح قتل النساء والأطفال والهجوم على المسلمين ٦٤٥
اليهود يطلبون المفاوضة ٦٤٥
النبي يرفض المفاوضة على غير التسليم ٦٤٦
لا أمل في النجدة ٦٤٦
موقف خيبر من بني قريظة ٦٤٧

محاولة اليهود الأخيرة ٦٤٨
الصحابي الذي خان الله ورسوله ٦٤٨
أبو لبابة يربط نفسه في المسجد ٦٤٩
توبة أبي لبابة ٦٥٠
يمنعه الرسول من التصدق بكل ماله ٦٥١
انهيار اليهود في المقاومة ٦٥١
التهديد باقتحام حصون اليهود ٦٥٢
استسلام اليهود وانتهاء الحصار ٦٥٣
الأوس يشفعون لليهود عند رسول الله ٦٥٤
محاكمة بني قريظة ٦٥٤
تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة ٦٥٥
شفاعة وجوه الأوس عند سيدهم لليهود ٦٥٥
الحكم الجريح ٦٥٧
سعد في المعسكر النبوي ٦٥٧
وقفة فقهية ٦٥٧
سعد يطلب موافقة اليهود على تحكيمه ٦٥٨
اللحظة الرهيبة في تاريخ بني قريظة ٥٦٨
سعد يحكم بالإعدام على اليهود ٦٥٩
وقفة عند حكم سعد بن معاذ ٦٦١
ذكرى لم ينسها سعد ٦٦٢
تنفيذ حكم الإعدام في اليهود ٦٦٣
دفن اليهود في الخنادق بعد إعدامهم ٦٦٤
النبي يشهد عملية إعدام اليهود ٦٦٥
شيطان بني النضير يتكلم قبل إعدامه ٦٦٦
شجاعة حيي بن أخطب ٦٦٦
كيف أعدم سيد بني قريظة؟ ٦٦٦
أفي كل موطن لا تعقلون؟ ٦٦٧
المرأة الوحيدة التي أعدمت ٦٦٨
أمر عجيب ٦٦٨
قصة عجيبة من قصص اليهود ٦٦٩
مصير السبي والغنائم ٦٧٢
مشاركة المرأة في الغنائم ٦٧٣
منع التفريق بين الأم وابنها ٦٧٥
الرسول يتزوج من بني قريظة ٦٧٦
الفصل الرابع ٦٧٧
على أطلال بني قريظة ٦٧٧
الطاعنون في حكم إعدام اليهود ٦٧٧
تحذير لكل مسلم ٦٧٨
طبيعة اليهود الأبدية ٦٧٨
المعاهدة بين المسلمين واليهود ٦٧٩
أربع سنوات من المعاهدة ٦٧٩
العهود والمواثيق في نظر اليهود ٦٨٠
إلى المدافعين عن بني قريظة ٦٨١
أهم بنود المعاهدة ٦٨١
اليهود والمسلمون أمة واحدة ٦٨٢
كان اليهود مواطنين يثربيين ٦٨٣
لم يكن اليهود مجبرين على المعاهدة ٦٨٣
سؤال قانوني ٦٨٤
بنو قريظة في نظر القانون الدولي ٦٨٥
اليهود خونة لا أسرى حرب ٦٨٧
لكل دولة قانونها الخاص ٦٨٩
إعدام اليهود والاتفاقات الدولية ٦٩٠
سكان هيروشيما وبنو قريظة ٦٩١
خرافة مدنية القرن العشرين ٦٩٢
حكم بني قريظة في شريعتهم ٦٩٤
دفاع مجيد ٦٩٥

التقول على الإسلام ٦٩٨
مقارنة بين قبائل اليهود الثلاث ٦٩٨
دفاع الدكتور محمد علي ٦٩٩
حديث الشيخ الغزالي ٧٠٢
رأي إنكليزي منصف ٧٠٣
الإسلام والرق ٦٠٥
الإسلام لم يشرع الرق ٦٠٦
الإسلام يلغي جميع أنواع الرق ٦٠٦
لماذا أباح الإسلام رق الحرب؟ ٧٠٧
الاسترقاق في الإسلام معاملة بالمثل ٧٠٨
ليس في الإسلام ما يمنع من الاتفاق على إلغاء الرق ٧٠٩
الرقيق عند الرومان والأمم الأخرى ٧١٠
الحقوق التي أعطاها الإسلام للرقيق ٧١١
مساواة الإسلام بين المالك والرقيق ٧١٣
كيف فتح الإسلام باب التحرر للرقيق؟ ٧١٣
كيف يجبر الإسلام المالك على تحرير عبده؟ ٧١٣
وجوب مساعدة الرقيق على التحرر ٧١٤
البند المالي الخاص لتحرير العبيد ٧١٤
كيف قلص الإسلام من سلطة المالك على الرقيق ٧١٥
الإبقاء على الرق في الإسلام شكلياً ٧١٥
محاربة الإسلام للرق ٧١٦
تحرير الرقيق غير المسلم ٧١٧
رغبة الإسلام في تصفية الرق ٧١٧
بند تحرير العبيد في وزارة مالية الإسلام ٧١٨
المساواة بين الأحرار والعبيد ٧١٨
الأرقاء ومنصب القيادة في الإسلام ٧١٩
العبيد ومنصب الخلافة ٧١٩
كلمة إلى المنصفين ٧١٩
أيها الشباب المسلم ٧٢٠

غزوة صلح الحديبية (٥)

تقديم الكتاب بقلم الكولونيل: عبد الله التل ٧٢٥
تمهيد المؤلف ٧٢٩
الفصل الأول ٧٣٥
مجمل الأحداث السياسية والعسكرية بين غزوة بني قريظة وصلح الحديبية ٧٣٥
الأعراب والأحزاب ٧٣٥
العمليات العسكرية ٧٣٦
خيبر آخر المطاف ٧٣٦
حملة القرظاء ٧٣٦
سيد حنيفة في الأسر ٧٣٧
ثمامة ينتصر للإسلام من قريش ٧٣٨
قريش تقتل ثمامة ٧٣٩
منع بيع محاصيل اليمامة في مكة ٧٣٩
حملة الغمر ٧٤٠
غزوة بني لحيان ٧٤١
النبي يقود الحملة بنفسه ٧٤٢
تضليل العدو ٧٤٢
فرار اللحبانيين ن قبل وصول النبي ٧٤٣
المطاردة ٧٤٣
الإقامة في أرض العدو ٧٤٤